رواية

حريق الاخيلة



إدوار الخراط

حريق الأخيلة

إدوار الخراط

رواية

لا وقت للنوستالجيا

شهوات الروح غير مقسومة

والمعني اللا محدود تنين شربت معه الراح

إدوار الخراط

١ - سرير محترق

كان كامل الصاوى أرستقراطي الهيئة أرستقراطي السلوك.

كان زميلا لنا في الجامعة، ولكنه كان مترفعا عنا جميعا، متحفظا، ومنعزلا تقريبا.

دائما عنده، على رقبته الرفيعة الطويلة، بابيون رشيق صغير، يتغير لونه من الأسود إلى الأحمر الداكن إلى المنقط بنقط صفراء دقيقة حسب تغير لون بدلته، ويلتف بعناية حول ياقة صلبة الشكل ناصعة البياض، كان البابيون عنده مهما جدا، كأنه شعار، أو رمز، أو استعلان.

وفي سنة الليسانس ربى لحية مخروطية خفيفة، على غرار لحية تروتسكي، وكانت نظارته أيضا مدورة يحيط بها إطار ذهبي رفيع، والسيجارة مذهبة الفم معلقة دائما في ركن فمه، مشتعلة أو مطفأة أو جديدة بكرا، على السواء.

يقرأ هيجل بعناية ودأب، ويتنازل أحيانا فيحدثنا عن الفلسفة الهيجلية ونحن نتمشى في شوارع محرم بيه بعد المحاضرات، أنا وقاسم إسحاق وفتوح القفاص، نناقشه بجدية

كاملة، ويجادله فتوح القفاص بحماسة واندفاع وهو يشوح بيديه ويتفتف ويتناثر الرذاذ من فمه في حميا المقارعة والمنازلـة، ويشتم بصوت عال كل " الجهلة والأغبيـاء "، ولكـن كامـل الصاوى ينصت إليه باهتمام وهدوء، ثم يرد عليه بلهجة باردة، ومنطق. لم نكن نأخذ مجادلات فتوح القفاص – مع تشويقها – على محمل الجد حقا.

وكان كامل الصاوى يحب المشى في الشوارع، وحده أو مع اثنين ثلاثة من " الأصدقاء " – لم يكن له حقـا صـديق – ويظل حذاؤه الأجليسيه مع ذلك لامعا مصقولا.

كان بيتهم في أحد شوارع محرم بيه الجانبيـة الهادئـة، زرته مرة واحدة لم تتكرر، مع قاسم إسحاق الذي كان قريبـا إليه أكثر من أي أحد، على تحفظ من كامل الصـاوى طـول الوقت، لا يريم، بينما كان قاسم على طريقته النوبيـة مرحـا متفتح القلب ودوداً لعله أكثر تبسطا واحتضانا للناس – حتى – مما تسمح به ظروف العمل الثوري الذي كنا غارقين فيه، أما كامل فهو مقفل تماما على نفسه، نموذج مثالي لقواعد الأمان.

نسيت اسم الشارع على الفور، كأنما عن عمد.

صعدنا السلالم الساكنة، لا أصوات، ولا روائح الطبـيخ البلدي الشهية، ولا وش الوابور وزياط الأولاد، ولا اسكت يـا واد اسكتي يا بت يا مقاصيف الرقبة مـن وراء الأبـواب، لا نكهة تقلية الملوخية ولا فوحة الفلفل الأخضـر المقلـي، ولا دقات الهون لعمل الكفتة، ولا نفحات تسبيكة البامية، السـلالم خافتة النور، صامتة، في عز الظهر، موحشة، مثـل سـكنى القبور، قلت لنفسي: كيف يطبخون؟ ماذا يأكلون؟

كان للباب جرس بارز من الصينى أبيض مكـور علـى شكل الكمثري

– كل بيوتنا لها أبواب بلا أجـراس كهربائيـة، نخـبط عليها.

فتحت لنا الباب خدامة صغيرة السن صغيرة الجسم (لم تكن كلمة " شغالة " معروفة على أيامها، " خدامة " هي الكلمة الأصح والأصرح والأكثر مطابقة لمقتضى الحـال) وجـاء وراءها مباشرة كامل الصاوى، يلـبس الـروب دى شـامبر الحريري بألوانه القلابة بين الأرجواني والبنفسجي الفاتح، على القميص والبابيون، والجزمة والشراب، الطقم كلـه، كـاملا،

شياكة طبيعية ومعتادة عنده، أما نحن فكنا نستقبل بعضنا بعضا بالجلابية، أو البيجاما، وبالكتير بالقميص والبنطلون والشبشب أو الصندل.

كان قاسم قد حكى لي، باختصار، أن كامل فقد أباه منـذ طفولته، وليس له أخوة أو أخوات، ترك له هذا البيت الملك، وأرضا في البحيرة، وأن أمه في عز شبابها بعد، وألمح قاسـم بإيجاز، لأنه في الغالب لم يكن يعرف أكثر مما قال، وبإعجاب أيضا – ألم يكن ثوريا؟ - أنها " متحررة " تخرج وتدخل بـلا حرج في أتومبيلات الصـديقات اللاتـي يـأتين إليهـا مـع الشوفيرات، أو اتومبيلات الأصدقاء الذين يقودون سـياراتهم الباكار أو الفورد بأنفسهم، يسهرون ويتعشون ويشربون فـي المونسينيور أو باسترودس أو سـكارابيه، أليسـت الطبقـة الوسطى وحدها هي التي تتمسك بمواضعات الأخلاق الباليـة، أما الطبقة الأرستقراطية، أو البروليتاريا، فانهم متحررون، أو كما قال، قال إنها كانت تترك كامل كثيرا وحده،ترعى شؤونه الخدامة الصغيرة، في البيت الموحش الذي أحسسـته معتمـا وخاويا على ازدحامه بالكراكيب البورجوازية الغالية: البيـانو

الألماني الضخم، جاثم في الصالون، لامع السواد، مصـقولا، مشحونا بطاقة متفجرة كامنة تحت غطائه المقفل، عليه تماثيل رخامية لجياد ترمح وهي في جمودها صافنة الساقين تخطـف الريح بأعرافها، وغزالة تجرى أمام صيادة عاريـة السـاقين ترميها بالسهام – أهذه " ديانا "؟ أم أية صيادة متحررة منطلقة وراء شهوات الطراد والقنص؟ - وعلى الجدران صور مـن الكانفاه – لم أعرف اسمه إلا بعد ذلك بسـنوات – لمـروج خضراء وأكواخ لها سقف من القرميد الأحمـر ونهـر بنـى متجمد في جريانه المشغول بالخيوط الحريرية ماكرة الصنعة، وفي الأركان ترييزة صغيرة مدورة مـن الأبنـوس تتوهجـه مدفون تحت مفارش مشغولة بالكروشيه الأنيق المكوي بدقـة. جلسنا على كراسي الطقم المذهب، كانت صلبة غير مريحـة، ظهورها منحوتة بنقوش بارزة لتلافيـف أغصـان وعناقيـد صغيرة، وأوراق شجر مطلية بذهب باهت مقشر فـي بعـض المواضع عند احتكاك الكراسي بالحائط فيما أظن – لـم تكـن هذه الأسرة غنية جدا إذن؟ - لكن السجادة، طبعـا، عجمـى

كثيفة الوبرة تصاعدت منها هبوة تراب خفيفـة جـدا عنـدما غاصت فيها أحذيتنا التي لم تكن - يعني – نظيفة جدا .

قال لي القاسم إسحاق: كامل جاء إلـى الثـورة لا عـن إحساس بالظلم الاجتماعي، أو تمرد على الفقر والمهانـة فـي مجتمعنا، ولا حتى عن إحسـاس خلقـي بضـرورة العدالـة والكرامة، بل لأسباب عقلية، علمية بحتة، موضوعية. الثـورة بحاجة إلى هذا النوع من المثقفين الذين لهم أصول بورجوازية أو ارستقراطية واختاروا الانضمام إلى صفوفنا.

كانت " صفوفنا " عندئذ، عمليـا، نحـو دسـتة مـن " الثوريين" أو أكثر قليلا.

بعد ١٩٥٠، وبعد أن خرجت مـن المعتقـل، محبطـا ويائسا، وخضت غمار حب محبط ويائس، ترك قاسم اسحق " صفوفنا " التي كانت قـد انفـرط عقـدها، علـى أي حـال، وانفضت. انضم إلى حدتو، وسجن وعذب في سـجون عبـد الناصر ومنافيه، ثم فتح مكتبا للمحاماة في أ سـوان، ومـات بسرطان في المخ، وأفتقده كثيرا، حتى الآن.

انفتح باب على الصالون وهبت نفحات عطر خفيفة ولكن نفاذة، تحمل أنوثة وخلاعة خفية، تدعو للاضطراب، متلبثة في الأركان الداخلية للبيت عند الأبواب المغلقة التي تفضى إلـى مكامن العيش الحميمة، خمنت – هكذا دون أن أعرف – أنهـا عطر باريسي حريمي.

حملت إلينا اللمونادة الخدامة التي فتحت لنا الباب.

كانت هذه ناهدة، صدرها صغير ولكن ناتئ البروز خلف حمالات عريضة للمريلة البيضاء المنشاة، على فستان حريري الملمس مشجر واضح أنه كان من ملابس ستها وقصره الخياط أو ضيقه، و واضح أن ستها تقمعها، وربما سـيدها الصـغير كامل بيه يستغل صباها أيضا، كانت نظرتها إليه مما لا تخفي دلالته، مزيج من الخضوع الروحى واعتزاز الجسم الصـغير بما يستطيع أن يمنح.

كل شيء في الشقة الفخمة – رثة الفخامة – وفق الـنمط بالضبط، ضقت به ذرعا وكدت أصيح به:

- ياه ... هو بيتكم كمان طالع من كتاب.

على أيامها كنا قد فرغنا، من زمان، من قراءة قصـص محمود كامل المحامي، أو محمود تيمور، وكنا قد عرفنا، مـن هذه الكتابات، أجواء تلك البيوت " الاسـتقراطية " وأسـرارها وما فيها من ميلودراميـات الأرامـل الطربـوات اللعوبـات والخادمات المستذلات، المعتزات مع ذلك بما لديهن من عطايا الجسم التي ليس مثلها عند الفتيات " بنات الناس " المكبوتات. هل كنا قرأنا أيضا بلزاك وستاندال وموباسـان وأضـرابهم، دعك طبعا من شارلس ديكنز أو ثاكرى أو فيلدنج ونحوهم.

اتفقنا على هذه الجلسة على أن يقتصر التعامل مع كامل الصاوى على وقاسم اسحق وحدنا، واعتبرنا ثلاثتنـا " خليـة مركزية " وقال كامل بلهجته التي فيها خنة قليلة، وهو ينظـر إلى آخر الصالون من وراء نظارته مذهبة الدوران:

- ما فيش داعي، منطقيا، لأكتر من كده، ومن الناحيـة الموضوعية أنا حاعمل بحوث في الفلسـفة الثوريـة، تبقـوا تستفيدوا منها، وإذا كنتم عايزين ترجمة، ممكن برضه..

سألته: هل يعزف على البيانو؟ فقال دون مبالاة: ساعات، لما أكون زهقان شوية، فالس من شـتراوس، نـوكتيرن مـن شوبان، حاجة كده، عزف هواة يعني.

هواة، بالطبع، في الموسيقى وفي الثورة سواء.

في ١٥ مايو ١٩٤٨ اعتقلتني حكومة النقراشي، عشـية حرب فلسطين الأولى، مع مئات من كل أصناف " الخطرين " أو " المشبوهين " سياسيا، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وجاء للمعتقل بعد ذلك من جماعتنا يسـرى محمـد يوسـف، وفريد اسكاروس، وعبد الرؤوف نصر ا ، وشوارتز، وقاسم إسحق، لم يعتقل كامل الصاوى، ولا فتوح القفاص، ولا أحمد النمس، أفرج عن زملائنا كلهم بالترتيب، بعد فترات متراوحة، وبقيت وحدي، ذهبت إلى معتقلات هاكستيب والطور ثم عدت إلى أبو قير وكنت من أواخر الذين خرجوا في فبراير ١٩٥٠، استيقظت و وجدت أن المعتقل خاو تقريبا، مفتـوح الأبـواب على الصحراء، الطريق المسفلت كان أمامي ليس فيـه أحـد، وركبت الأتوبيس، بثلاثة تعريفة، إلى محطة الرمـل ومنهـا بالترام إلى بيتنا، بستة مليم، ومعي شنطة ورق مقـوى علـى

شكل الجلد مربوط بحزام، رافقتني طول التنقلات، وبنظـارة مكسورة مربوطة بسلك، وكانـت الجزمـة بوزهـا مفتـوح وواسعة، قضيت فترة الاعتقال كلها إما بالصندل أو بالجزمـة الكاوتش، وكان الناس في الشوارع وفي الأتوبيس والتـرام لا يكادون يلتفتون إلي، وأنا أتحرك بحرية لأول مرة منذ عشرين شهرا، وكأنه ليس للحرية طعم ولكني كنـت أمـلأ صـدري بهواء مفتوح، ليست عليه حراسة.

وفقدت الاتصال تماما بكامل الصاوى، لم أره قـط بعـد ذلك، وإن ظل هذا الشبح الغريب يراودني بين الحين والحين، من بين أشباح كثيرة.

اسكندرية ٣ مارس ١٩٣٤ .

عزيزي وفيق

لست أدري .. هل يحق لي أن أكتب لك الآن ... أننـي أشعر دائما بشعور أحمق ... أن خطاباتي تقابل لديك بنوع من الاهمال الخفيف ... " ليته كان اهمالا خطيرا " .

ولكن نفسي تفيض دائما .. تطفح بما فيها ... لست أجد من أكلمه .. فصبرا جميلا..

لا تهمك تلك المشاعر الزجاجيـة الهشـة الحمقـاء ..
ولتستعد أنت .. لتقبل ما سأكوم على رأسك من نفايات..

عزيزي...

لعلك تذكر ... أو لا تذكر.. أني سألتك مرة – وكان ذلك في دمنهور – كيف يكتب توفيق الحكيم مسرحياته دافقة بصور " الحياة " .. الحياة العملية بتعبيراتها الدارجة البارعة .. على رغم انه – كما يقول – معتكف في برجه العاجي ... عزوف عن المجتمعات .. البريئة وغير البريئة منهـا .. علـى حـد تعبيره.

ولعلك تذكر – أنا أذكر جيدا – انك أجبتنـي: أن هـذا الصنف من خلق ا .. يحيا .. ليس كسائر الناس ... بل يحيا حياتين .. احداهما صاخبة .. عادية.. تافهة.. بين النـاس .. والأخرى .. هادئة .. ساهمة .. منزوية بين أربعـة جـدران عاجية بين كتب وموسيقى .. وتأملات ذاهلة طويلـة حالمـة ممتعة .. هكذا أجبت .. أو ما يقرب من ذلك.

نعم ... لقد عادت تلك الصـورة القديمـة.. صـورتك متحمسا تتكلم بمثل هذا الكلام... في شارع مـزدحم... قـذر

.... متـرب .. في ظهيره خانقة .. دمنهوريـة . وفـي يـدك زجاجة بها دواء من الصيدلية وفي اليد الأخرى بنطلون مكوى ... وقميص جديد . أقول – وعفوا عن كل هـذه الثرثـرة – كنت اقول إن تلك الصورة .. بكل تفاصيلها .. جاءت تفرض نفسها علي .. على ذاكرتي أقصد.. وترتسم أمامي في عناد .. وإصرار . بعد عودتي من زيارة اليومين والليلتين أعني مـن زيارتك في القاهرة بالطبع حين استصرختني أن أجيء، بحق ا ، قبل أن " تنهى كل شيء ".

(يمكنك أن تشطب الثلاث كلمات الأخيـرة .. بالنيابـة عني) .. القصد من كل هذا الهذيان أن أقول إنني كنت أقول أن تلك الصورة ظلت ترتسم أمامي .. بعد تلك الزيـارة بـلا سبب ولا معني ولا تلميح وتلك ايها العزيز مشـكلتنا أعنـي مشكلتي .. مسألة الحياتين هذه..

لماذا أبدو .. في غالب الأحيايين .. أبله متعثرا مرتبكـا أو سمجا أو غريبا؟ ذلك أنني احاول – في غبـاوة منقطعـة النظير – أن أحيا حياة واحـدة .. رائعـة منسـجمة صـافية محلقة..

يا للغرور ... " أنا " أريد أن أحيا حياة واحدة .. أن هذا ليستلزم شيئا آخر .. غير " أنا " ..

ما الذي – مثلا – يجعل من بعض الناس أفرادا عظماء .. انسانيين ... بكل ما تحوى الكلمة أو الكلمتان من معان؟ هو أنهم نجحوا في أن يحيوا حياة واحدة .. في أن يفرضوا " حياة الروح " على بضع ا لعشرات من السنين التـي عاشـوها .. شخص كسقراط ... لماذا كان عظيما وخالدا.. وجبارا يرتفـع على القرون .. وتنسرح بين قدميه .. مدى الأجيال الطوال .. إنسانية كيسحة زاحفة... تتطلع إلى أعلى.. إلى الوجه الـدميم .. المشوه .. الذي يحمله على كتفيه والـى الـذراع العاريـة المنفلتة من ردائه الاغريقي القديم، مشيرا إلـى عـالم آخـر جديد.؟ لماذا.؟ لسبب واحد.. انه عاش فلسفته ولم يكتبها .. إنه علم بالواجب . وبالفضيلة .. وبالخضوع لحكم العقل.. عـاش يعلم بهذه الأشياء كائنة ما كانت قيمتها – في كل مكان.. في أي وقت وكيفما استطاع في السوق في المنزل .. في الشارع وعلى الرصيف وفي مطبخ بيته، وعلى عتبة الهيكـل، وبـين الحقول، وأمام المحكمة، ففي كل مكان يذهب إليـه سـقراط،

كنت تجد " بضاعة " سقراط .. المحتوية على " الفضـيلة " و "العقل " و " الواجب " محزومة كلها.. في ردائه الاغريقي .. الذي لم تغسله زوجته منذ أمد طويل والذي تنقلت منـه ذراع عارية، عجفاء لوحتها شمس اليونان. ثم لما طالبته الفضـيلة، وأخواتها.. أن يضحى حياته. لم ين،، ولم يتردد، كـان فـي استطاعته أن يفر .. وأن يرشو سجانيه، أو أن يفلت من أيدى القضاة ولكن انني اشك في انه لو فعل ذلك ثم عاد يبحث فـي ردائه الاغريقي عن حزمة الفضيلة والواجب والعقل، أشك في أنه كان يجدها .. ولكنه.. كان مخلصا وكان عظيما.. لقد أسلم الحزمة إلى الإنسانية .. وشرب كأس السم وهو يبتسم، لأنـه كان عبدا امينا مخلصا، أخذ الدينار من سيده، وأعـاده إليـه، ثلاثة دنانير كما يقول المسيح ....

والمسيح ..؟ لماذا استطاع عابر السبيل، بردائه المنسوج المكون من قطعة واحدة، لم تخطها ابرة،، هذا النجار الذي لم يكن يرى إلا برفقة المجـذومين .. والبـرص ., والعميـان وصيادى السمك .. وحثالة اليهودية، لماذا استطاع أن يفرض

نفسه، على إنسانية دامت عشرين مائة عام.. لماذا؟ لأنه عاش فلسفته هذا هو كل شيء.

آه .. على ذكر صيادي السمك..

ألا ترى معي .. أنه من السهل جدا أن يعتنـق المـرء "الاشتراكية " ويعجب " بالاشتراكية " ويتحمس لها. ثم يأتي في صباح قاهري من شتاء بارد على باب منزل ما يأتي " ليشخط " في أحد بائعي السمك التعساء، وليصرخ فيه. " بأنهـا بيعـة وليست خناقة " يصرخ بلهجة بورجوازية، نصف ارستقراطية (أي ارستقراطية كسيحة .. بنصف رجلْ) يصرخ فيه مـرة وأخرى ودون أن يستمع لعذر البائع المسكين علـى رغـم أن الأخير محق.

آه من هؤلاء البورجوازيين ...

نعم.. هذا من السهل جدا اؤكد لك ..

وعلى فكرة هذا الشخص نفسه يقرأ موليير . فيستحسـن أن يقرأ روايته: (Le Bourgeois Gentihomme) فهـا هنا شخص عظيم يفضح بيئة موبوءة، متعفنة، منتنة، تعـيش فيها تلك الطبقة الوسطى.

نعود لمشكلة الحياتين ففي هذه المشكلة قد نجد جوابـا.. حين نتساءل لماذا لم ينبغ في الأدب العربي.. في مصر علـى الأقل شخص عظيم.. يستطيع أن يفرض صوته على أسـماء العالم المتحضر.

نعم... لأن أدباءنا .. أغلبهم يعيشون في " أبراج عالية " ويتكلمون كلاما كثيرا.. عن خلق القادة، ومسئوليات الـزعيم الروحي، وعظمة الكاتب .. وثقل الوقر الذي يحمله الفنـان.. على كاهليه النحيفين .. ثم.. وفجأة.. وبلا وساطات.. ينزلقون من هذه الأبراج.. ليعيشوا بين النـاس.. زائفـين كالنـاس.. يذهبون إلى مقر الوظيفة.. ويلبسـون الطربـوش للـرئيس.. ويتثاءبون في سهرات " الأهـرام ".. ويتشـدقون بأحاديـث النساء.. وأعداء النساء.. وحبائب النساء.... !

لننظر مثلا إلى مخلوق كتولستوى.. يتنازل عن أملاكه.. ولقبه وثروته.. وعائلته.. وحياته القديمة التي درج عليها منـذ نعومته.. يهجر كل ذلك.. في سبيل مبدأ.. ليموت على قارعة الطريق كمتسول.. كمـا يمـوت الشـحاذون.. والعبـاقرة..! لننظر.. إلى مثل هذا الإنسان .. ثـم.. ثـم لنهـز رؤوسـنا

ونتثاءب .. ونغوص في أوحالنا.. أكثر.. فأكثر.. ماذا يهمنـا من كل ذاك؟ هل تعرف يا صديقي.. لماذا نعجـب.. غالبـا.. بالمحبين الصادقين؟

يمكنك أن تعرف هذا.. على الضوء الـذي اجتهـدت أن ألقيه .. في هذه المسألة..

اننا نعجب بهم.. لأنهم يفرضون حياتهم الداخلية.. علـى حياة المجتمع الفاسدة.. لأنهم يسهرون طوال الليل.. ويبكـون طوال النهار .. و " يسـرحون " ويحملقـون إلـى النـاس.. ويلبسون طربوشين أحدهما فوق الآخر .. ويلبسون فردة مـن حذاء أ سود .. وفردة أخرى من حذاء أصفر فاقع زاه ..

لأنهم يحيون حبهم.. لهذا هم عظماء .. ولهذا هم يحققون قمة الحياة الإنسانية ..لأنهم – في هذا الطور – يصبحون انداد الفنان . والمتصوف والفيلسوف.

ولكن ... هل تعرف أي ضعف إنسـاني فينـا جميعـا؟ نعم؟. انك تعرفه.

وأوضح مثال لذلك.. هو تلك المأساة الصـغيرة.. التـي تحدث كثيرا في حياتنا المصرية الاجتماعية.. فالفتاة – مثلا –

التي تكون قد درست في مـدارس.. راقيـة – فرنسـية فـي الغالب- تلك الفتاة الأنيقة.. الجميلة.. الهيفاء.. التـي تحـب الفن.. و " الجمال " والتي تعجب بالشعر. وتقـرأ كـل كتـب توفيق الحكيم.. على سبيل المثال.. تلك الفتاة التي تتذوق تلـك الحلاوات الرائعة.. على قمم الحياة.. وهناك عينـات كثيـرة جدا في المجتمع المصري الحالي.. لهذه الفتاة التي تكون فـي الواقع.. لا تفعل شيئا.. أكثر مـن أداء وظيفـة " الحيـاة ".. الوظيفة القديمة القديمة.. انظر إلى تلك الفتاة - بعينها – بعـد أن تكون قد زوجت ... لفتى أنيق راق.. تجدها قـد مالـت.. قليلا.. قليلا.. إلى السمنة.. وتجد عنايتها، قد أخذت شيئا فشيئا تنقص وتضمحل بالأناقة، وبالجمال، وتجد قصـائد الشـعر.. ورسائل الحـب.. قـد ربطـت بشـريط أزرق سـماوى أو أرجواني.. ودفعت إلى آخر الدرج.. وتجد أشعار على محمود طه وإبراهيم ناجى.. قد علتها طبقة خفيفة من الغبار.. وتجدها رويدا رويدا .. تضيق بأحاديث الفلسفة.. والفن.. وسحر الحب والحياة.. وتميل أكثـر فـأكثر إلـى أحاديـث المجتمعـات

والمراقص.. والخطوبـات.. وأخبـار التيـزات والأبلـوات والتانتات.

ثم.. بعد عشر سنوات.. تعال نبحث عن فتاتنا.. عاشـقة الفن.. والحب.. والجمال.. تجدها قد أصبحت سيدة " عظيمة " ضخمة. إما متأنقة أناقة التكلف و الكبريـاء.. تضـع علـى وجهها.. غالبا.. نصف دكان " الجمال " وتتحدث كثيرا.. عن أشياء تافهة.. عن حلى فـي الغالـب.. وأصـناف الـدهانات الجديدة.. وإما " ست بيت ".. تلد.. وتحلب لصغارها.. وتعنى ببيتها.. وسمنها.. وزيتها...

نعم هذه هي المأساة الصغيرة.. التي تحدث كثيـرا بـل ودائما.. مأساة تغلب المجتمع بزيفه.. وريائه.. ونقماته.. على الحياة الروحية.. الضئيلة.. المحتاجة إلى الكثير من الغـذاء، والوقود.. ذلك الوقود الذي قد لا يقل عن كومة كبيرة هائلـة من الهشيم.. تجد فيها أعواد كتب عليهـا أشـياء كالآتيـة: " المجتمع".. " الأسرة ".. " صداقات الناس ".. " الكبريـاء ".. "الراحة ".. " اللذة " .. كلها تقدم للنار.. وتحترق لينبـت مـن ألسنة اللهب نبات شيطاني ممتع الجمال .. !

من السهل جدا يا صديقي .. أن يعيش المرء كالنـاس.. يعمل .. ويبحث عن اللذة.. والتسـلية.. ويحـب.. ويكـره.. وينافق.. ويشرب الخمر.. ويحضر دور اللهو الرخيص.. ثـم يأتي آخر النهار ليقرأ كتابا .. ويسـمع موسـيقى.. ويكتـب رسالة.. انها تكون حياة سهلة.. لذيـذة.. ولكـن.. لكنهاحيـاة ميتة.. حياة ستموت.. لأنها ليست أكثر من مركب تفاهـات.. أما الحياة الأخرى.. الحياة التي نحترق لكى نحياها.. الحيـاة الحقيقة.. أين هي؟.. إنها تحتاج لشيء أكثر مما فينـا.. إنهـا تحتاج لتضحيات هائلة.. إنها تصرخ بنا.. لكي نحمـل ثقـل صليب.. مهبظ.. مخيف.. ساحق.

هل تصدق.. إنني أشعر بندم مر.. وبأسف لاذع.. حينما أحدث زميلا.. أو اقرأ جريدة.. أو أجلس في مجلـس عـائلي عادي.. أو أذهب إلى دار سينما.. أو أكتـب محاضـرة.. أو أخرج لأمشى في الشمس قليلا؟ وأنني أشعر بيأس.. وبخيبـة مريرة.. حينما أنام.. وحينما أستيقظ.. وحينما آكل.. وحينمـا أحيا.. باختصار..؟ انني أحس في عمق مخيـف قاتـل.. أن هناك شيئا آخر، غير كل هذا يطلب مني، في صوت مميـت،

أن أحيا فنى..أو أن اموت.. شيئا.. عميقا.. قويـا.. جبـارا.. حقيقيا.

نعم أن العلاقات بيني.. وبين الحياة ليست على ما يرام.. هناك سوء تفاهم كبير، ولذلك فأنا لست مسرورا من نفسـي - وأصدقك القول – على الإطلاق..!

عزيزي..

أشكرك.. فقد كنت أشعر بسأم تافه، وبضجر راكد تنمـو عليه الطحالب.. ولكني قضيت وقتا مسليا..لا بأس به في كتابة هذه التفاهات.. ولذلك فأنا أشكرك.. كما تقضى قواعد اللياقـة والذوق السليم..

أما الكتب التي تطلبها مني .. فلن أبعث لك منها سـوى كتاب برناردشو، لأنك في حاجة إليه.. هو وحده.. ولكن ليس الآن.. وإنما.. في وقت آخر.. قريبا بالطبع.

مسألة أخرى... أن العنوان الذي أعطيته لك تغير الآن.. وأصبح عنواني:

٩ شارع ابن زهر، المتفرع من شارع راغـب باشـا – الاسكندرية – ابن زهر أو زهر أو زهر أو زهر.. أو سمه ما تشاء...!

في الختام.. أحظر عليك حظرا باتا أن تكتـب لـي.. أو تتصل بي بأي شكل كان.. وفي أية صورة كانت.. لست أريد أن أسمع عنك خبرا.. أفاهم؟.. نعم.. لعل هذا الكـلام يفلـح.. لعلك تحس..

لقد حفى قلمي من التوسل إليك أن تكتب لي.. على جناح السـرعة.. ومـن التضـرع.. والالحـاف.. والإصـرار.. والإلحاح.. والرجاء الحار.. الباكي.. الـدامع.. المحـزون.. الملهوف..! وذلك كله بدون فائدة.

فلعـل الحظـر.. والمنـع.. والتحـريج.. والتحـريم.. والاعراض.. وإظهار الملـل المتثائـب الهـادئ الخامـد.. اللامبالي.. المتحجر.. الميت.. لعله ينفـع.. بحـق الأوليـاء الصالحين..!

تحياتي إلى جانيت.. وصداقتي..

باريس في ١٤ مارس ١٩٨٤..

عزيزي الأستاذ ..

تحياتي وأطيب تمنياتي لك وللأخ العزيز الأستاذ شـفيق خله وللأخ الأديب المصقع الدكتور عبد الستار عكاوي.

وشكرى وتقديري لتحيتك الرقيقـة فـي رأس السـنة، واعتذاري عن سوء أدبي لتأخرى في الرد، لكنني أرجـو أن تسامحني بمجرد تخمين الحوسة الكبيرة التي تنوشـني يمينـا ويسارا، حتى قررت أن أعتزل بالمعاش المبكر خلال عـامين على الأكثر، لكي أخرج من اليونسكو على قدمي – لا علـى ظهري.

طبعا أبلغت رسالتك للأخ العزيز وفيق راقم، فسال منـه ما نعرفه جميعا من شـهد طيـب مصـحوب بالصـياح و " الانشراح " أعني ما تعرفه عنه من ذلاقة لسان وتدفق بما يحلو ويروق من القاموس المنتقي، وبلغ من ضـجيجه أن تـآمرت على إيفاده إلى نيويورك في نهاية العام الماضي، ويبدو أنـه انبسط هناك جدا، لأنني تلقيت منه خطابا واحدا مـن العسـل المصفي، وبعده الصمت العميق.

أرجو أن تكون بخير وبصحة جيدة، وغير متـأثر بمـا يجتاح آسيا وأفريقيا من مخاضات طالت واستطالت وأينعـت وأورقت وأزهرت حتى أدارت رؤوسنا.

وأمل أن نلتقي قريبا بإذن ا

ودمت للمخاص

محمد حسن عبيد

كنت قد التقيت بمحمد حسن عبيد في مكتبه باليونيسـكو في باريس، وعندما زارني في ليلة عيد الميلاد سنة ١٩٨٣ في بيتي بالقاهرة عرفت انه اصبح رئيس قسم الترجمة العربية في اليونيسكو، وشربنا كأسين أو ثلاثة، وضحكنا كثيرا، مزاج عيد الميلاد، والشجرة السامقة في الأنتريه تلفها عقـود المصـابيح الصغيرة الملونة تومض وتنطفئ، وتومض وتنطفئ، وعلـى أغصان الشجرة شرائط الزينة الفضية المتهدلة، وندف القطـن الثلجي، ودمى بابا نويل الصغيرة، والكريات الهشة المجوفـة المصنوعة من زجاج رقيق، فضية وذهبية وحمراء، والجرس الفضي، والنجوم الزاهرة يعلوها جميعا نجم المجوس الهادي،

وقد صفت ربطات الهدايا، وتكومت، ملفوفة بـالورق اللامـع الملون.

وكان معنا الدكتور عبد الستار عكاوي، مدملجا، مدورا، مدموكا، وقد فرغ من شكاته الأبدية من عقوق الجامعة، ونهز الأساتذة، وتفاهة المناهج، وعزوف القراء عن الفلسفة، وتأخر الحقوق المستحقة، وتعثر أوراق الإعارة لجامعة الكويت، وما لا نهاية له من المظالم والمواجع، فضلا عن صعوبة سلم الفن المراوغ الجميل.

وجاءت سيرة وفيق راقم فقلت لعبيد إنـه يسـتحق منـا التأييد والمساندة بعد أن عاد من سوريا، وهو يبحث عن مورد يعينه على الاستقرار هو وعائلته الكبيرة في لندن وإنـه كمـا نعرف جميعا مترجم حاذق عتيد، ومضت الشهور حتى جاءني خطاب عبيد.

وكما يحدث كثيرا، لم ألتق به بعد ذلك، فيما أظن.

أما وفيق فقد تواتر عمله في الأمم المتحدة، ثلاثة شهور كل سنة، على الأقل، فيمـا عـدا الاسـتدعاءات الاسـتثنائية للجلسات غير العادية.

الاسكندرية في ٣١ / ٣ / ١٩٤١ .

بني النجيب

أحييك تحية المقدر لوفائك، المعجب بنبوغك ونيلك قصب السبق في مضمار العلم والأدب والأخلاق، واهنئ بك المستقبل الزاهر الذي ينتظرك، حقق ا   يا بني لك الآمال.

ولا يسعني إلا أن أسجل إعجابي بأدبك بهذه الأبيات:

بنثر ساحر الألباب قلتـه	سحرت الناس يا بالأزهار زنتـــــــــــه
مضى عبد الحميد وقـد نشـــــــــــدنا	فتى يحيى كتابته فكنتـه
شفانا ما بطرسـك مـن ريـــــــــــاض	بها ورد الربيع لنا نثرته
يكاد النحل يسـبقنا إليـه	ليرشف منـه معنـا مـا غرســــــــــته
أهنئ يا بني بك المعالي	وديوان الكتابة إذ رفعتـه
وشكرا يا بني على وفاء	لمن لم ينس عهـدك قـد رعيتــــــــــه

عبد الحميد بدر

هأنا قد نسيت تقريبا عبد الحميد افندي، مـدرس اللغـة العربية في مدرسة النيل الابتدائية بغيط العنب، لا أكاد أذكـر إلا وجها سمحا ودمثا وإنسانا حلو الشمائل كما يقال، وكان بلا شك يحنو على محاولاتي الأولى في الإنشاء وطبعا كنت تلميذه المفضل، في النحو والإملاء لا أكاد أخرم حرفا.فهل كنت قـد أرسلت له " أشعاري " المتعثرة الأولى بعد أن تركت فصـله بسنتين أو ثلاثة؟ لماذا؟ هل كنت أحب فيه بـديلا لأب كـان غريبا عن كل ما اكتب من حماقات واندفاعات وتفيقهات؟

قصيدته لي ختام وختم وتصريح لي بالنسيان، أو يكاد.

وليست هذه سيرة ذاتية، بمعني ما، وإنما أريدها أن تكون رواية، يعني.

فلماذا اقتحام هذه القصيدة العتيقة؟ ولماذا ظهـور عبـد الحميد افندى بدر، فجأة، وأنا أحكى حكايات لا صلة لها به؟

قلت: ما من حسرة هنا، ولا تفجع، ولا أسى.

قال: ألم يكن هذا الزمن جميلا؟ خاصة الآن وقد مضى، وأنت تسترجعه.

قلت: لم يكن هذا الزمن جميلا، بل هو جميل الآن، ما زال، وسيظل، إنه ماثل، لم ينفض، أنا لا أسترجع شيئا، كيف استرجع ما هو حاضر راهن؟ كم من مرة خرجت لكم قائلا: يا ناس. هذا كله ليس الماضي، بل الآن. لكنكم تظلون أسرى التواريخ.

قال: التاريخ لا يدحض.

قلت: بل مخادع، لا أعرف التاريخ، وأنا أقول ١٩٤١، ١٩٨٤، ١٩٤٥، ليست هذه إلا منارات تضيء بحرا بلا شاطئ ولا مرسى، تيه الموج بلا نهاية، ليس فيه مسار، مراكبي تمخره بلا توقف وهي رابضة بلا حركة، فأين التاريخ؟ وأين الحزن الموهوم؟

قلت: التوجع سمة الصبا والمراهقة التي لا تحول.

قال: يا شيخ؟

فقلت: ليس ثم شيخ يتذكر، أو يتحسر، وليس ثم فتى انحسر ظله، بل هما واحد وهما كثير.

قال: هذه، ربما، مجرد طريقة، في الكلام، لعلها توشية، أو استعارة.

قلت: لا طنطنة، لا أقنعة.

قلت أيضا: أبعد هذا مكاشفة؟

قال: لا بأس بهذا كله دفاعا.

قلت: هل تسللت إلى نغمة اعتذار، أو تفسير، أو تبرير؟

قلت أيضا: لا دفاع، ولا اعتذار، ولا تبرير.

أقول: هذا دمي.

ليس لي معبد ألوذ به.

كان وفيق في غرفة الاستقبال الضيقة في بيته، في آخر كينتيش تاون، الضوء شحيح نوعا ما، وهناك عدة كتب مجلدة مذهبة الحواف، تزين الصالون وتشغل حيزا من خزانة بلورية الزجاج، أعداد متناثرة من الانسكلوبيديا بريتانيكا ومختـارات تقليدية من الشعر ورويات أمريكية من قبيل " ذهـب مـع الريح ".

وكانت شيرويت صغرى بنات وفيق مخطوبـة أيامهـا لسارجنت في الجيش الإنجليزي، يـأتي ليـزورهم ويتعشـى عندهم ليلة السبت، ويقضى مع البنت يوم الاحد.

والبنت جالسة على الصوفا، تحت ساعة كبيرة، وقد ثنت ساقيها تحتها، ولبدت في حضـن خطيبهـا، علـى الطريقـة الأوروبية، تداعبه ويملس عليها ويقبلها فـي فمهـا، خطفـا، وأبوها ينظر اليهما بشيء من الرضى، والغيظ المكتوم ربمـا، والغيرة ربما، ولا ينبس بحركة ولا نأمة، يا عم نحن الآن في لندن، في الربع الأخير من القرن العشرين، فماذا في ذلك كله؟

وسألني وفيق عن الحال في مصـر ! ومـن غيـر أن ينتظر إجابة انطلق يعدد سيئات مصر وسوءات الحياة فيهـا، ولم يكن قد وضع قدمه على أرضها منذ أن غادرها قبل خمسة عشرة عاما أو نحوها، وتكلم عن القمامة، والإهمال، والذباب، والرشوة، لم يذكر حمى القتل، والقتل المضاد إذ لم تكن موجة العنف، والتعصب الأعمى، والظلامية، والسعي اعتسافا إلـى الاستئثار بالسلطة، تحت زي الدين وتسترا بقناعه، قد اندلعت بعد على أرض الوطن، بكل شراستها ووحشيتها، وإن كانت قد تطايرت لها شرارات، هنا أو هناك، لكنه تحدث عن الرثاثـة، والديكتاتورية، والفساد، وتكميم الأفواه، وقمع الحريات وخبث الناس، إلى آخره، ورددت عليه وأنا أحاول التحكم فـي نبـرة

صوتي، وفي منطقي، بما معناه أن الناس فـي مصـر أكـرم وأكثر أصالة ودفئا منهم في أي مكان آخر، أو على الأقل في أوروبا، وأنهم في البيئـة المناسـبة يبـدعون، ويلتزمـون، ويتفوقون، وأن الوطن أكبر وأبقـى مـن أي نظـام للحكـم، واستدعيت ثورة ١٩١٩ وانتفاضات الطلاب في ٣٥ و ٤٦ و ٦٨، وتكلمت عن ١٨ و ١٩ يناير، وقلت إن العساكر سـرقوا منا ثورة ١٩٥٢، وإن كان جمال عبد الناصر قد غيـر وجـه المجتمع وله رغم كل شيء أمجاد كثيرة، إلى آخر مـا يقـال عادة في مثل هذا المجال، لكنه قاطعني باحتداد واحتدام صارخ عالي النبرة جدا، وكانت يده ترتجف بكأس الويسكى فتترجرج قطع الثلج فيه وترتطم بزجاج الكأس، وفجأة قالت شـيرويت، بالإنجليزي طبعا: دادي، لماذا تتحدث الآن عن ذلـك البلـد؟ تركته أنت من زمان، لا شأن لك بهؤلاء الناس، لا تهتم بهـم. وربت السارجنت على كتفها بسرور وتحبيذ.

وطبعا حز في نفسي كلامها عن " ذلك البلد " الذي كانت قد ولدت فيه، والذي دفن فيه جدها الصعيدي نـاظر محطـة صنط الملوك العتيد، وجدتها المرهفة التي قطعت سـاقها فـي

بيت كوبري القبة، ولد ومات فيه أجدادها واسـلافها، ألهـذه الحجة العاطفية التقليدية قيمة؟ لماذا يحز في كلامها؟ فكرت انه كان على وفيق أن يبث فيها وفي أولاده الآخرين حب " ذاـك البلد " أو على الأصح " البلد القديم " كما يقول غيرنا من الذين نزحوا إلى الغرب، بما تحمل تسمية " البلد القديم " من اعتزاز وما توحى به من آصرة الانتماء. أما " ذاك البلد " بما تـوحى به تلك اللهجة المتعالية..

استأذنت بعدها مباشرة، وتركت بيت كينتيش تاون، أظن أنه قد تصادف مجرد صدفة أنني لم أعد إليه بعد ذلك.

عرفت بعد ذلك بكثير أن البنت لم تسعد فـي زواجهـا بالسارجنت وأن المشاكل والمتاعب من جراء ذلك كنت تنـوء بكتفى عم وفيق العجوز، حزنت قليلا على الـرغم مـن كـل شيء، كانت شيرويت في مقام بنتـي – وإن كانـت لا تكـاد تذكرني – وكانت سمراء مسمسمة عذبة التقاطيع وإن كان فيها شيء من غرور أبيها وصلابة مظهره، ولم اقل: تستاهل، خلها تشوف ما يجرى لها في " هذا البلد .. " (كأنما كانت متاعـب الزواج لا يمكن أن تحدث – يعني – في أي بلد).

في نيويورك كان وفيق يلتقى بي – على سبيل الصدفة – في ردهة مبنى الأمم المتحدة، كنت للمرة الأولى والأخيرة قـد قبلت التعاقد معهم لفترة ثلاثة شهور في أ ثناء انعقاد الجمعيـة العامة، وكان هو ربما في سنته السابعة أو الثامنة أو نحوهـا من تواتر هذا العقد، من أواخر سبتمبر إلى نهاية ديسمبر مـن كل عام. كان يسلم على ببرود، بالإنجليزي، ويمضى دون أن يتوقف معي لحظة، حتى. أو تقريبا. لم يقل لـي مـرة تعـال نشرب قهوة، دعك من أن يدعوني إلى بيته هناك أو للخـروج في المساء، أو حتى للغداء في فترة الظهر في مطعـم قريبـا مثلا. وعرفت من صديق مشترك استغرب هذا كلـه وسـأله، صراحة، أن حجته كانت أنني غادرت لندن، ذلك العام العتيد، بعد حكاية سبت السارجنت الذي لم أتعش معهم فيـه، دون أن أتصل به حتى. بينما كان قد أعد لاقامتي هناك شقة ابنه الذي كان أيامها خارج لندن. وبدت تلك الحجة عندى لا قوام لهـا. فدعوته إلى فنجان قهوة في كافيتريا الأمم المتحـدة، وجلسـنا هناك في الدفء المريح، وفي هدوء بعد الظهر، نطـل علـى مياه الهدسون التي تجرى باردة من وراء الزجـاج، والريـاح

تهب بالشجرة الوحيدة البعيدة على الجزيرة الصـغيرة غيـر المأهولة، والصنادل تسرى بلا صوت تحمل بضاعة مغطـاة بالمشمع المندى اللامع، وطائرات الهليكـوبتر تنطلـق فـي مساراتها تعلو وتنزل في قوس بعيد، قلت له إنني لا أريـد أن أقول كلاما عاطفيا حتى لو كان هذا الكلام يصدر فعـلا عـن عاطفة حقيقة، هل احتاج أن أذكرك كيف كنا قـريبين جـدا؟ وأيام الاسكندرية؟ قلت إنني لن أكرر مثل هذا الكـلام مـرة أخرى. كنت أنتظر منه شيئا آخر غير هذا الذي يحدث، إلـى آخره إلى آخره.

فقال: وماهذا الذي يحدث؟ لا شيء هناك غير منتظـر. كل شيء عادي وطبيعي. فقلت في نفسي: لا أيأس من صداقة عريقة أحسها في نفسي غير زائلة، ها هي ذي تزول أمـامي. لماذا؟

قلت: أليس ذلك كله محزنا قليلا؟

يوميات:

٢٠ يونيو ١٩٤٥.

نحن غرباء، غرباء تربطنا لحظة ويضرب بيننا أبد من الزمان. هذه هي النغمة الكبيرة التي تـدوى وتصـرخ فـي أيامي.. وعندما أذكر كيف كنا نقضى معـا تلـك السـاعات الطويلة، بإزاء البحر، في الظهر وفي الغروب، عندما أذكـر ذاك الإيمان الذي كان يملأ حيـاتي إذ ذاك. الإيمـان بالحـب والفهم.. ترتفع تلك النغمة القديمة. المسيطرة. تدوى في عتمة الوحشة. خارج الأسوار. تدوى وتملأ ليلى بالشـكاة العميقـة الجريحة. كعواء حيوان تتركه القافلة.. ثـم تمضـى وتتـرك الصمت. الصمت. انزواء الاستسلام. كحيوان يرتمي على باب الكهف القديم – وقد هجرته القافلة – يضع رأسه على الأرض وينظر إلى السماء ..

كلمات. كلمات. جنون الأغاني العتيقة. جنـون الـدموع التي تهلهلت. وتلك القسوة. قسوة الغرابة. قسوة الحائل الصلد الذي بنته الأيام طبقة بعد طبقة – فارتفع بين الـروحين – لا يلين – ولا يهتز. بل يرتفع بقسوة. ذلك الشيء الغريب الجامد بين الغرباء.

وكنت في غباوة محبة قديمة انظر إلى الصـيف وفـي نفسي أمنية رقي.. أن يأتي الغروب المشمس وأن نرى أحـدنا الآخر كل يوم – أو على الأقل كل يوم والآخر نخـرج فـي الغروب نمشى في طريقنا معا – في رقـة الشـمس الذاهبـة ونتحدث. ونفهم أحدنا الآخر.. ونبنى أحدنا الآخر .. حلم تكنه في أحشائها محبة قديمة.

ولكن الشيء الغريب.. الشيء الغريـب .. فـي قسـوة جامدة.. يقف حائلا بين غرباء.

عندما ذهبت أول أمس، قلت لوفيـق ذات مـرة: علـى فكرة، ألم تقرأ بعض القصص؟ كنت قد كتبتهـا مـن زمـن، وبيضتها، ولم يكن عندى نسخة أخرى منها. قصصي المباركة في السماء والأرض.. وفي لهجة حادة جارحة أجـابني: أنـه ادعاها لنفسه يا سيدي، وباعها في مصر للجرانيل.

وفُجِئْت.

كنت متعبا ولم أستطع في أول لحظة أن أفهم ثم ذهبـت الكلمة بعيدا في النفس.. اللهجة التي قيلت بها ذهبت تحز فـي الأغوار.. وترسخ هناك. ثقل آخر في العتمة.

إذن فهو يعتقد أنني احتفظ عنه بتلك الافكار: إنه ادعاهـا لنفسه وباعها في مصر – كما لو كان هذا يهمنـي – ولكـن الشيء الغريب.. تلك القسوة الجامدة العمياء.

وفي المحطة قال في غمرة الحديث: يا لها مـن حيـاة حزينة!.. وأجبت في ثقل أبدا يا أخي دي حياة جميلة جـدا.. وامتدت ظلال الشيء الغريب مرة أخرى وأحسسـت بجمـود اللعنة.. عندما رد قائلا: أيوه ما هو أنا بتظاهر أن الحيـاة دي حزينة..باستدر " العطف " وأشياء أخرى من هذا القبيل. ولـم يعرف. لم يحس. لم يخطر بباله قط أنني عندما قلت إن الحياة جميلة كان في الكلمة ثقل في الإحساس بالوحشة لا يحتمل. أن الكلمة كانت تأييدا لكلمته هو أنني لم يخطر في بالي قط إلا أن أؤمن على كلمته.. بطريقة خاصة.

ولكننا غرباء .. نحن في هذا الركن من الوجود. غرباء لا نفهم بعضنا بعضا ولا نعرف بعضنا بعضا.. منفيـين فـي أنفسنا.. مدفونين في تراب البؤس الـذي بلـى ... والـدموع المهلهلة.

وفي المساء، كان يحدث أحمد صبري يأخذ منه ميعـادا للغد. ولكنه لم يشر إلى بكلمة، وذهب ذلك الصمت الذي تـلا أتفاقهما على الميعاد، ذهب كطعنة أخرى، وانقطع الحيوان في نفسي عن عوائه لأن كل شيء قد نساه وارتمى على الأرض، ونظر بعينين جافيتين إلى ظلمة الغسق.

وانزويت.. انزويت في الظلمة.. كأنني لم أرد أن أنفجر. لأن الدموع أشياء رثة لا معني لها. ولكنه أعطى ميعادا هـو بنفسه.. ميعاد اضطر أن يعطيه من اجـل خـاطر المعرفـة القديمة..بعد ثلاثة أيام.

غرابة الأيام.

وفيق... لو كنت تعرف أي عمق من الحاجة في نفسي.. أي عمق من الحاجة إلى رفيق.. الحاجة إلى إنسان اعرفـه .. لكي يعرفني. لكي أهمس له بأغاني القديمة. أعاني أي عمـق من الوحشة. مع الشعور بالانزواء. بالانسحاق في الظلام.

هأنذا تتمزق نفسي بحثا عن رفيق. لأنني لست أطيق هذه الوحشة. لست أطيق أن أموت في شقائي العتيق..

لست أقوى أن أرتمي على الأرض أخيرا بجانب جدار كهفي. وأنظر وحيدا إلى ظلمة السماء. والى القافلة الغريبة. بينما أنا قد نستني قافلتي. وتركتني للجروح التي جفت دماؤهـا. ومـا زالت تنزف بعد.

لو كنت تعرف يا صديقي لما ارتفع ذلك الشيء الغريب فإن لك في النهاية النفس التي تستطيع أن تفهم وأن تعـرف.. أن تحب.. لأنك الرفيق. الذي عرفته عندما كنت اتفتح للحياة. ولن تنسى الحياة الفجر الذي تفتحت فيه. لن تنساه. لن تنساه.

ذلك الشعور عندما أنظر حولي في كل هذا العالم.. فـلا أجد أحدا يذكر أنني ما زلت موجودا... أنني مـا زلـت فـي حاجة للإنسان الذي بليت أقدامي في البحث عنه .. والذي لـم أجده ..لأنني أنا نفسي قاس وشقي. لأنني أجعل نفسي كريها.. لأن المحبة في – كما يبدو – هشة لا تقوى على شيء.

هشة ؟ كلا.. كلا إنها مبثقة من غور الحاجة إلى الحيـاة نفسها. لست أستطيع أن أعيش. لست أستطيع على الإطلاق.. إذا لم تكن في نفسي محبة للإنسان. محبة للرفيـق. ولكنهـا

محبة منكمشة في ذاتها منزوية في ظلمة الكهف لأنها منسية.. لأنها تحترق في صمتها.. لأن أحدا لا يهتم.

لست جديرا بشيء... هذا هو التفسير الوحيـد .. لسـت جديرا بشيء...

هذا المرض القديم.. ولست أستطيع أن أعوى في المساء قليلا.. ذلك العواء عواء الحيوان في البرية..لا أحد يحسـه لا أحد يسمع.. ولكنه يرتفع متمزقا من الروح تنزعه من العمـق الجروح النابضة القديمة. التي تجف.. ولكنها تحز في الـنفس وتدمى مرة أخرى هذا الإنسحاق. هذه الدموع الرثة.. أمـا آن لها أن تمضى الآن؟ أما كفاها؟ والبرية موحشـة... فارغـة.. وأنا خارج الأسوار في الظلمة.. (كم يبدو ذلك كله الآن زائف النبرة، مع كل صدقة وحرارته، ومع إحساسه – حتى في ذلك الحين – بإسراف العاطفية ونواحها المنفر) .

في ١٩٤٦ تخرج كامل الصاوى، معنا، وبينما ظلت سنة تقريبا بلا عمل، غرقت خلالها في النشاط الثوري حتى اسـتبد بكل لحظة من يومي وبشطر كبير من الليل أيضا، وأنـا مـع ذلك لا أني أواصل ارسال خطابات طلبـات العمـل وأتلقـى

جوابات الاعتذار المهذب، عرفت انه عين معاون نيابـة فـي الجمرك، فور تخرجه بترتيب " جيد " فقط .

أصبح إذن جزءا من السلطة، من أجهزة القمع القـانوني أو المقنن، هل نسى هيجل، وتروتسكي، والفلسفة الثورية؟ كان هذا هو المنتظر، طبعا. وتم الانقطاع.

وبعد سنة أخرى فقط، قبيل أن أعتقل مباشرة، قرأت في " الأهرام " أن الأستاذ كامل الصاوي، معاون نيابة الجمـرك بالاسكندرية، قد لقى ربه إثر حادث إليم، فقد غلبته سنة مـن النوم وهو يدخن سيجارة، واتضح من التحقيقات أن السـيجارة المشتعلة سقطت على السرير، وتوفى سيادته محترقا في شرخ الشباب بينما المستقبل الزاهر ينتظره، رحمه ا رحمة واسعة.

صدمني الخبر، وهزني، رغم كل شيء.

راودتني أفكار شاردة عن احتمـالات مـوت متعمـد، مقصود عن وعي أو غير وعي. أهي فضيحة جنسـية؟ هـل كانت بطلتها الأم الأرملة المتحررة، أم الخادمة التي تضـخم بطنها؟ أم هو شق عميق لم يبرأ بين الثورى القديم وبين رجل السلطة، وخطر لي أن حسه الخلقي الكامن ربما يتيقظ فجـأة،

تغلب على " موضوعيته " العلمية، ودفعه إلى حافـة النـار، فتردى، أم لعله قد علا؟ هل كان النوم (أو الموت) قد غافله فعلا؟

ظل سريره المشتعل يؤرقني شيئا ما، ويحيرني.

قربان الموت، الأخيـر علـى شـاطئ " الجـانج " أو "الستايكس " سواء، هل لقيته نمِفْيةٌ.. النهر العـارم الـذي لا غلاب له والذي يصب في غيابات الظلمـة، قاطنـة الغـرب النائي، على حواف الليل في مأواها المظلـل بجبـال معتمـة شامخة، سريرة المرتفع وأحطاب الوقـود عطـري الرائحـة وأعواد البخور وترانيم التعبد والتذكر بأصوات رتيبة النغم في الحر الذي يسحق الحس ويعطل الفكر.

ألسنة اللهب متطايرة تصعد إلى العنان والدخان والعبـق الأبيض به شرائح دسمة سوداء يفلت من بين النيران صـوت أجيج الاشتعال وفحيح اللظي لا يكاد يخفى طقطقـة العظـام المهيضة التي تتقوض في الحريق ولا لزوجة الأوصال التـي تذوب في حنوطها تحت هرم الكومة المتقدة.

سرير كامل الصاوى في غرفـة نومـه البورجوازيـة الضيقة في محرم بيه قد احترق به بصمت، دون نجـدة، دون ترانيم، وانطفأ من تلقاء نفسه، وترك البقايـا وسـط الرمـاد وجذجذات متفحمة من القطن والقماش والأسـلاك المتلويـة، تحت المصباح الكهربائي الذي ظل مضيئا في نـور النهـار، تدحرجت نظارته الذهبية الإطار وسقطت على الأرض وبقيت سليمة وصافية، مات وحده، دون حب، دون مجد.

قالت لي: لو كنا في الهند فلن أكون أنا الذي أحترق معك على سرير موتك. ليس مكاني على سريرك الأخير المشتعل.

قلت: مكانك اشتعال آخر، حتى أبدا، ليس له انطفاء.

٢ – وسوسة الهواجس الراسخة

" أقسم جسمى في جسوم كثيرة "

وأزداد غنى بالقسمة. في التشتت كمال. البـدد يضـمني إلى ذاتي.

أما شهوات الروح فهي غير مقسومة.

شهوات الروح تفح وتتلوى. ثعابين بين أنقاضها.

لا ضربات السنين تقـوى عليهـا، ولا قـبلات الحـب البغضاء الدامية.

ولا حريق الأخيلة.

للروح أيضا مخالبها.

ناشبة في لحمي.

ناشبة.

والصليب الداخلي ثقيل على كتفى الداخليتين المرهقتين.

الطريق إلى جلجثتي زلق وعر الانحدار.

قدماي العاريتان مجرحتان، قطرات الدم تتحجر بمجـرد أن تنز من الجروح الدفينة، وتتدحرج تحتي، لا تصل إلى قاع.

قلت أليست هذه استعارات، وأماكن، ومجازات، قديمـة بالية؟ لماذا تحملها حتى الآن؟ قلت.

قلت في العالم ألم لا يطاق حمله.

هل خطر ببالك لحظة أن تحمله؟

وأنسى وجع أسناني، وأنسى مسرات بائدة، بينما الساعة تدق العاشرة.

أحاول أن أنسى كذلك نشوات غير معترف بها أصـلا، وحسرات أخرى، الحذاء ضيق عند مقدمـة قـدمي،فتاة منـذ أربعين سنة، لم تقل لي " أحبك " .

أنفاس الحلم قريبة من وجهي، حارة، أشم بخار أحشائي.

أتخبط – ولا أتوه – في أروقة العلاقات القديمة المتشابكة الحنايا، في ممرات النفس الداخلية، شباكها الملتوية صـخور، حية، تنبض، بينما القمر يسقط أمـامي، أنقاضـا، والنجـوم الهالكة.

أوهام سامقة مبنية صروحا من الخيال العتيق، تحترق.

مسوخا جافة العظام، شاهقة، تحترق، تحترق.

على الورق الأبيض المسطر (اثنين وثلاثـين سـطرا للصفحة).

وبقلم رفيع السن، أسود، غير طبع.

امرأة رينوار عارية تنظر إلى بعينين مفتوحتين.

موسيقى الجاز من الستينيات

وأذان الظهر، ورائحة الأرز المسلوق، على النار، مـن يميني أقول لنفسي: لست محاصرا. لا. لا..

هل أنا في قلب حصار من نوع ما؟

هل كان بيتهم آخر بيت في شارع سد، هادئ، قصـير؟ وهل كان رملي التربة، غير مسفلت؟ ويتفـرع مـن شـارع الرصافة الأرستقراطي المظلل بشجر وارف عريق؟

وهل كانت غرفته لها شرفة فيها زروع صبار؟ (لم أكن أعرفها، كانت تسحرني) هل كانت هذه الشرفة في تاني كات مباشرة، تطل عبر الشارع الرملي الخاوي، نقي الهواء، علـى حديقة لها سور حجرى (أحجاره بيضـاء، رماديـة غيـر مستوية الحـواف) ووراء السـور غيطـان مزروعـة ذرة، وبقدونس، وجرجير، وملوخية، وأشجار توت ومنجة وكافور؟

ومع وثقافة القربي لم يكن أحد منا يعرف – أو يسـتطيع – أن يسأل عن جوانب شخصية من حياة سـامى . (وحتـى الآن لا أحد يسأل، كأن السؤال اقتحام لا مبرر له، لمنطقة غير مسموح بالدخول إليها، أصلا، هل هذا صحيح؟).

لم نعرف – مثلا – أن له أخوات، وليس له أخـوة، إلا بعد ذلك، وكنا نتناقل همسا وفي غير يقين (هل كان قدال هو الذي قال لي؟) أن والده كان ناظر محطة في سـكك حديـد السودان، وأن سامى ولد في الخرطـوم، وإن والدتـه كانـت فرنسية، وأنها ماتت عند ولادته أو في طفولته المبكرة، ولـم يتزوج أبوه بعدها، فهل هذا صحيح؟

كان سامى – وربما لا يـزال – يحـوط علـى حياتـه الخاصة، كأنه ينفينا عنها، يتحصن وراء سور مـن الـتحفظ والسر، لا أحد يتخطاه إلى الحقول الداخلية، لا أحد.

جغرافيا الروح لا خريطة لها.

وكان والده – وما زال، بعد أن بارحنا كل هذه السنين – مهيب الحضور ودمث اللقاء معا، طويلا، جسيما في غير تكتل ولا ترهل، داكن السمرة، خطـوط وجهـه أمينـة صـارمة

الاستقامة، هكذا أذكره، بعد كل هذه السنين، كان يلـوح لـي برجا حانيا وآمنا ولكنه منيع.

أما سامى فقد كان – وما زال – رقيق الجسـم، أشـقر، شفاف الوجه تقريبا ولكنه دقيق التقاطيع، أنيقا في غاية الأناقة والبساطة، منذ أن عرفته، ويبدو كما لو أن كل شـيء فيـه – قسمات وجهه وخطرات حديثه، ونسق ملابسه، سواء – مختار بعناية، كلها، بحساب وذوق، وكلها مأخوذة بأطراف أصـابع مرهفة الحس، وقوية التملك، في آن، وكـان، منـذ الصـبا، يستطيع أن يكون صادا، قاطعا، ويستطيع أن يكـون مرحبـا، مضياف الروح.

ومنذ الصباح كان يملك أداة عقلية حادة النفـاذ وعميقـة الوقع، ترفدها مقدرة تكاد تكون خارقة على متابعـة الأمـور حتى غايتها، ودأب في الدرس، وصبر على مشقته، حصـافة في النظر وقدرة على الإحاطة.

لذلك كان يرهبنا قليلا.

وكان يبدو – ولعله ما زال – بالفطرة أو بدرية للـنفس أوشكت أن تكون سجينة ثانية؟ - مترفعا عن صغارنا اليومي

وعبثنا المجاني وتخبطنا الصبياني – حتى الآن؟ - بين الحماقة واليأس والصخب.

فأي يأس داخلي أكثر عمقا، وأنضج لوعة منـا جميعـا، كان يسكن روحه؟

الاسكندرية ٣ أغسطس ١٩٤٢

عزيزي...

لماذا تأبي أن نلتقي أحرارا كبيرى القلوب في أفق الفكر الصامت؟

ولماذا ترى الحقيقة من خلال الغضب الإنسـاني الـذي ارتجف له؟

ولم تجعل من إيمانك الإنساني درعا لقلبك؟

هناك مسئولية تحيا وحيدا معها فـلا تجعلهـا تشـعرك بانفصاوحدتك .. لأن من تراهم ينبذونك، أنت تحيا لهم، فاجعل من آلامك عيدا لكل إنسان وهو يتردد الألم في آفاق كل نفـس ما لم يكن إنسانيا؟

أنني أريد أن أكشف لكم جميعا عن ذلك الجـلال الـذي يتردد بين العدم واللانهاية. وأرغب – لو استطعت – أن أجعل من نفسي أرغفة المسيح.

لنرتفع بإيماننا إذن فوق الغضب والشهوة ولنشبع فينا هذا النزوع الإنساني الحار كالصلاة الذي يدفعنا إلى وضع عدالـة بعد الموت يطمئن إليها النزوع الفاني.

إنني إذ أحدثك أحدث فيك فضيلة الحرية التـي حـدثتك عنها.

ومن يدري؟ لعل الفناء كامن وراء كل عاطفة كلية ولعل الفناء هو الذي يدفعني إلى تماس الجانب الخالد في كل إنسان.

أجل ... كثيرا ما يكون الفناء لنا بصيرة.

أريد – بحبي – كل إنسان أن يكون كالمعبد، نشعر أمامه بجلال الصراع بين الحياة وذاتها، وبنوع من الإلزام الخلقي.

سامي

هل أقول الآن – لماذا؟ - أن هذه الرسالة، على أكثر من مستوى، عاشت، ومازالت تعيش فـي قلبـي، كأنهـا أتتنـى بالأمس، كأنها الآن.

كنا نقرأ في شرفة بيت شارع أبو المجد ترجمات لشـعر بودلير، هل كان سامى هو الذي ترجمها مـن الفرنسـية، أم كانت منشورة، أم كانت من عمل ناصف وصفي؟

في تلك الأيام كان ناصف وصفي، ومصطفى الحجـار، يكادان يشارفان الكائنات الأسطورية، في حسنا، على تـراوح بل وتناقض بينهما. كانا اكبر منا جميعا بسنوات قلائـل، فـي تلك السن كانت حاسمة، وكانا في أواخر سنى الجامعة، قسـم الفلسفة، ويتقنان الفرنسية، ويعرفان الألمانيـة، وقـد درسـنا اليونانية واللاتينية على أيدي أسـاتذة لا يضـارعون، وفـي الفلسفة، يوسف كرم ونجيب بلدي وأبو العلا عفيفي، وعلـيهم درس سامي أيضا، بعد ذلك، وكان فـي الاسـكندرية عندئـذ جامعة حقيقية، أما كازانييف الفيلسوف الشاب بطل المقاومـة الفرنسية ضد النازي، وجرينييه أستاذ ألبير كـامي، وليـدل، وانرايت (صاحب " السنة الأكاديمية ") فلعلهم جـاءوا فيمـا بعد، أم أنني أخلط بين التواريخ؟ ما هم، وهو أنا عقلي دفتـر. كما لا أني أقول؟ ولعلني أيضا أخلط بين الأشخاص، منـابعهم ونوازعهم سواء.

وعندما التقيت بمصطفى الحجار، أول مـرة، راعتنـي المقاربة بينه وبين سامي، صدمني التشابه، بل التطابق أحيانا، بين طرائق كلامهما بل وبعض العبارات المتكـررة ولـوازم الحركة والإشارة والتلويح بالذراع والصمت عن إكمال الجملة في موقع حيوى منها والإغراق فجأة في سـهوم " فلسـفي" لا يجرؤ أحد على اختراقه، وهكذا، مع تراوح بين حيوية الحجار وامتلائه فيزيقيا وتدفقه وحسيته الصاخبة وضحكته المجلجلة – كان ابن بلد من بحري – وبين رهافت سامي وتحفظه وترفعه شيئا ما.

أما ناصف وصفي فقد كان شيئا آخر بالمرة، ولعله كان آفاقا قليلا أو كثيرا، ولعله بعد ذلك قد شارك – أو تورط – في عمليات مريبة، أو على الأقل غريبة، وعلى مسـتوي دولـي، هل كانت عمليات تجارة أم تهريب سلاح؟ أم تدلس أو تسريب وثائق؟ أو – ربما – مخدرات، وهل تزوج ناصـف وصـفي يهودية عاش معها في باريس سنوات طويلة، أم فقـط عـاش معها دون زواج؟ أم أن ذلك كله من محض خيـالي والتبـاس ذكرياتي وتخليط أوهامي؟ جلست معه مرة على قهوة ريـش

بعد ذلك بسنين – بصدفة بحتة – وحدثني طـويلا وبحـرارة وذلاقة لسان عهدتها من الصبا، وقوة اقناع لولا أنني أعرفهـا وأحذرها لرحت ضحية لها، عن سفره إلى المحـيط الهـادى لتصوير فيلم عن الحياة البحرية في الأعماق، وعن المعـدات التكنولوجية التي أعدها لهذه المهمة – كأنها مهمة جاسوسية – وبدا لأول وهلة انه سـيطرح علـى فكـرة مشـاركته فـي "المشروع" لولا أنه حدس أنني أولاً غير مقتنع، بل منكر مع أنني صامت، وثانيا أنني مفلس أعيش أنا وعائلتي مـن اليـد للفم، كما يقال.

وربما كان ذلك كله من وهمي.

كان سامي، ونحن في الثانوي، يحب أن يقف على " قمة" المبنى الأول في المدرسـة، علـى حافـة حـوض الزهـور المخضوضر اليانع، وحده، شعره الأشقر يتوهج في الشـمس، مغمورا في تأمل ينفى عنه كل شيء خارجي.

وكان أبرز رسامي " الجمعية الفنية " وأوضحهم موهبـة ومقدرة، رسومه عندئذ – والآن – مشرقة، مضيئة من الداخل ولها منطق حساسية خاصة لا شأن له بمنطق الخارج، بينمـا

كنت في حصة الرسم أكوم الألوان الكثيفة المضـطربة علـى ورقتي البيضاء، وأخلط الخطوط، وأضيع نسب المنظور وغير المنظور.

لليوميات بقية.

الثانية عشرة ليلة ٣ ابريل ١٩٤١

كتبت قطعة أخرى.. أو صورة أدبية..أسميتها " حلم ليلة" ..... فإلى أين سوف تسوقني الأحلام.. إلى أيـن؟.. إن لـي حنينا، طاغيا، إلى.. عينين ساحرتين.. ألا ويح القلب، إن بـي حنينا.. إنني أحلم..

الحادية عشرة مساء يوم ٤ ابريل ١٩٤١

قضيت الصباح في المدرسة متنقلا بين أنحاء المعرض، وبعد الظهر في الخارج متنقلا بين أنحاء الشوارع والطرقات، ولقد أخلف جورج، لعنه ا ، ميعادا ضربه لي وتركني أحرق الأرم (يعني إيه؟) حوالي ساعة على جمر الانتظار العقيم... ولكني لست في قابلية للاكثار من الكتابة فقـد كتبـت أربـع صفحات خطابا لسمير، تعس أيها القلم.

الحادية عشرة مساء ٥ ابريل ١٩٤١

أذكر بالأمس .. فقد ضـلت طريقـي بـين آلاف مـن المخلوقات البشرية تنصب انصبابا من أبواب ملعب البلدية .. دارت عيناي بين هذه السيول الإنسانية الهادرة المتدفقة.. التي تطن وتصخب.. همسات.. ضحكات.. أحاديث.. كلها تتجمـع لكي تتصاعد في لجة واحدة من الضوضاء.. التي تترك المرء حيرانا بل مرتاعا.. ثم عدت إلى المنزل وفي رأسي حطام من شتى الأفكار وفي عيني بقية من نظرة ساهمة محملقة .. وفي قلبي.. ثقل وحزن وشبه انقباض.. هذه هـي الحيـاة.. تلفـظ الملايين من أبواب القدر.. لتتركهم في سحب من الضوضـاء والضجيج.. والسخف والحيرة والضلال.. قد نجد هنا أو هناك في وسط هذا الغمار.. شيئا يتمثل فيـه الجمـال.. زهـرة.. لمحة.. عبيرا متصاعدا.. ولكن سرعان ما يطغي عليه الموج الهادر.. ثم يتفرق هنا وهناك زبدا متطـايرا تـذروه الريـاح وقطرات متساقطة.. تبتلعها الرمال قضيت الصباح أيضا بـين رحاب المعرض.. وقد قابلت وفيـق.. فمرحنـا.. وعبثنـا.. وضحكنا.. حقا أنني لأحاول بذلك أن أخفى رغبة في البكاء.. تماما كما قال وفيق.. وضاع منا جورج ..بعد أن نالته نظـرة

مسمومة من.. ولكنه اختفى فجأة.. كما يفعل الفلاسفة " اللـي بصحيح..!! " .

حقا كم هناك فالحياة شوائب كدرة تعكر بعض صـفوها، وتلقى ظلها الأسود المعتم المقبض على أشعة نورهـا.. فـي المعرض صورة رسمها سامي تمثل الربيع، وهي حقا بديعة.. فتاة تتأمل باقة أزهار، على وجهها مسحة من " روح الربيع " خفة، سمو، جمال نقى صاف، نضارة، شباب متجدد يكاد يعبق عطره، أليس هذا هو الربيع؟ وفي عينيها نضرة عميقة عمـق الحياة، متأملة، راضية، ساهمة، فيها عجب وفيهـا طرافـة، وفيها سحر آخذ بالألباب.

لست أدرى، من وضع أمام هذه الصـورة.. مخلوقـا لا يستحق هذا اللقب.. يدعي أنه فنان.. ولست أدرى أيضا بـأى حق تحت السماوات كان يشرح فكرة الصـور المعروضـة.. أقسم لو أن راسميها سمعوه لمزقوا شعورهم وملابسهم.. بعـد أن يمزقوا صورهم..!! وهكذا عكر هذا السمج تلـك الهالـة القدسية التي تنبعث من الفن..

أن بي ظمأ شديدا.. يلهب شفتي.. ويرمي بـالجمر فـي عيني.. ظمأ قاتل.. إلى كل شـيء.. إلـى الجمـال.. إلـى العلم..إلى المعرفة.. إلى .. إلى ... إلى كل شيء.. أنني أريد أن ألتهم.. أنني كالنار.. أريد وقودا دائمـا.. وإلا احترقـت.. وهأنذا احترق شيئا فشيئا.. أنني استمد من أعماق نفسي صورا وأحلاما وأخيلة.. أستخرج من ظلامها.. ووحشتها.. أنسـا.. وأتعيض بما أخلقه عما حولي.. إنني أخلو إلى نفسي.. وفيهـا عوالم بأكملها.. مليئـة بـالأنوار.. والظـلال.. والعطـور.. والأغنيـات.. واللمسـات والصـيحات.. والكائنـات الحيـة العجيبة..والاشياء الخفية الرائعة.. والأشباح.. والشـياطين.. والملائكة.. والاشواك والزهور.. أنني أحب الصمت دائمـا.. لأخلو إلى هذه العوالم الخفية.. بعيدا.. بعيدا.. عـن النـاس.. ولكن عندما أضيق بها.. على سعتها أنصرف إلى العبث والى الجنون.. أن ا وضع في كل نفس جنانا وفراديس غنـاء.. و وضع بجانبها جحيما وجهنما حمـراء !.. وهأنـذا أتخـبط بينهما.. حائرا ضالا.. أريد أن أنطلق إلى الوجـود الأكبـر

الفسيح.. وفي نفسي وجود آخر واسع غريب مظلم.. من لـي بيد رحيمة منيرة.. تقودني في غمار ظلامه.

الحادية عشرة مساء ٦ ابريل ١٩٤١

قرأت اليوم " جان دارك " لجورج برناردشو، مسـرحية من الأسس التي وطدت عليها شهرته ودعم خلوده، فهو مـن غير شك في صف العباقرة الذين يفرضـون علـى الزمـان وجودهم فرضا.. وما أظنه كان يغلو حين قـال متهكمـا، أو جادا، حينما دعى إلى الإذاعة عن شكسبير إنه وحده الثاني بعد شكسبير..

قرأت كتابا .. وشممت وردة.. ورأيت أناسـا.. وأكلـت جبنا ! ! ! ها ها ها !!.

(و للرسائل، فيما أظن، دور في هذه الكتابة أيضا)

" حضرة الفاضل.. افندي ..

منزل الحاج بدوى أبو الخير، الرحباية، شبرا، دمنهور، والظرف عليه طابع فاروق شابا مونقا بـالطربوش، بـاللون الأخضر الفاتح، ستة مليمات.

عزيزي...

انقطعت أخبارك عني مدة طويلة فتراني لا أعرف لـك مستقرا بالذات ولكني أرجو ألا أكون قد حدت عن الصـواب وأنا أكتب لك الآن.

لقد كان بالأمس (السبت) الكشف الطبي لطلبة كليتـك وطلبة الطب، ولم يشاهدك أحد هناك، فقلقت للأمر وخشـيت جهلك للأمر.

باكر (الاثنين) يأتي دورنا في الكشف الطبي فأرجو أن أعرف منك ما أنت فاعل وعسى أن تحضر بنفسك حتى تتمكن من دخول ملحق الكشف الطبي.

أرجو أن تهتم بالمسألة جدا وأني لمنتظرك.

سامي

٤ – حارة أبو المجد – محرم بك

(من غير تأريخ ولكنه في ١٩٤٢ بالتأكيد)

(فهل كان هذا الخطاب قبل، أم بعد خطاب والده)

الاسكندرية – حارة أبو المجد ٤ (الرصافة)

محرم بك

٢٣ / ٧ / ١٩٤٢

ولدي العزيز

بعد التحية والاحترام رجاني ولدي سامي أن أكتب إليـك هذا ردا على كتابك إليه – وبالطبع يسـوءك معنـا أن تعلـم بمرضه فقد أصيب بالتيفود من أوائل الشهر الحـالي فعـولج بالبيت نحو عشرة أيام وعندما بدأ دور النقاهة وهـو أخطـر الأدوار أرسلته إلى هناك وهو الآن نزيل مستشفي الأمـراض المعدية من نحو عشرين يوما على أن هذا الدور الأخير قد مر على ما نحب جميعا وهو الآن تحت الرقابة الشديدة خوفا مـن المضاعفات وهي خطيرة – على أن العاديين يظنون انه شفى وقد يكون ذلك حقا من بعض النواحي.

هذا مجمل الحالة شرحتها لك كأخ يهمه الاستفسار عـن حال أخيه

وأرجو أن اكون بهذا قد قمت بالواجب

أني يا ولدي ختاما أقدم لك تحياتنا وشكرنا ودمت لوالدك

محمود محمد علي

والظرف، هذه المرة، لحضرة الشاب الأديب.. افنـدي.. المحترم، وعليه طابعان لونهما الآن وردي باهت، كل منهمـا

بثلاثة مليمات، وبنفس صورة فاروق الفتي، وأختـام البريـد المستديرة الكبيرة واضحة التاريخ، بالحروف الإنجليزية jL p 730 42 23JL أما خطابي إلى وفيق فقد كان مؤرخـا، من الداخل، ١٦ / ٧ / ١٩٤٢.

عزيزي وفيق

كنت قد وعدت سامي أن أقابله في يوم الخميس الـذي يتلو الخميس الذي يتلو " خميس العهد " (و خميس العهد هنـا هو الخميس الأخير الذي قضيته معك).

ولعلك تذكر أنك قلت لي " حتى ميعاده ميعاد فلسفي ".

وأخيرا جاء الخميس الموعود .. وعلى رغم انه لم يكن لدي ما يشغلني فإنني لم أرد أو لـم أسـتطع أن أذهـب ... لماذا؟.. ليست أدري .. كل ما أعرف أنني لـم أسـتطع أن أجعـل قـدمي تطيعـاني فأذهـب إليـه.. وهكـذا اخلفـت الميعاد..وأشعر بشيء من الحزن.. والكآبة.. وفي يوم السبت التالي.. ذهبت أروح عن نفسي بالمشـي علـى الكـورنيش.. تعرف المثل القديم " الي يخاف من عفريت يطلع له " وهكـذا

"طلع لي ".. مع الفرق طبعا، فليس سامي عفريتا، ولست خائفا منه بل كما تعرف أحبه..

ووجدته يمشى مع عبده افندى ميخائيل حوالي الساعة السابعة والنصف... وقد قضينا ساعة في حديث عادي.. واعتذرت له اعتذارا له نصيب من الصحة قلت إنني كنت مشغولا بإعداد المعدات للسفر إلى دمنهور ...

وبعد نصف ساعة.. اعتذر عبده افندي بالتعب.. ثم انسحب. ومن الساعة الثامنة.. إلى الساعة الحادية عشرة والنصف.. كنا نتكلم.. أو على الأصح كان هو يتكلم .. وكنت أصغي.. لم أدر ماذا حدث له ولي.. فقط كان يتكلم بحماس واخلاص وبراعة وروعة.. والواقع أنني كنت أصغى إلى حديث رائع نادر مشوق.. وأخذنا نسير تحت ضوء القمر الطاغي.. وجلسنا على العشب الأخضر أمام بناء محطة مصر.. وصمتنا قليلا..

وفي السكون... سكون الساعة الحادية عشرة، جاء صوت كروان ساحر.. وانطلق سامي بعد ذلك يتكلم، ويتكلم، في انشودة ساحرة..

فيما كنا نتكلم؟ أنت تعرف.. فلسفة وأدب .. وفن.. إلخ، كان يتكلم عن الفن.. والفنان.. بالنسبة للحياة.. وعن " الفكـرة الإنسانية " وعن " السبب الكافي " وعن فكـرة اللامتنـاهي، وعن غائية الفن، وتصوف الفلسـفة، والانتشـاء الصـوفي، والصمت الروحي، وعن اعتدال أرسطو .. والأدب الروسي، والسيريالزم والاجتماع، وعن إدراك الغايـة، وعـن فلسـفة الحقيقة.

وقد أجد الوقت الكافي للكلام عن كل ذلك في خطاب قادم لك، إلى هنا كان الأمر عاديا، فكثيرا ما كان يكلمني عن مثـل ذاك..

أما أن يتركني في الساعة الثانية عشرة، لكـي يعـدني باللقاء في الساعة الثامنة صباحا.. ففي ذلك بعـض الغرابـة، أليس كذلك؟

قابلته فعلا في الساعة التاسعة صـباح الأحـد، وكنـت معتزما السفر إلى دمنهور في الساعة الواحدة..

وبين التاسعة والثانية عشرة، حدث الشيء الغريب.

أخذ يتم بعض حديث الليلة الماضية، فتكلم عن خصائص الفن.. وعن مزيفي الفن، وعن فن طاغور، وعن فكرة أرسطو عن المقولات، وعن كتاب لإسماعيل أدهم " لماذا أنا ملحد؟ ".

ثم أخذ يتكلم عن الأدب المصري، وعن التعبيـر عـن الروح المصري وأخذت بعض الكلمات تتجمـع وتنيـر فـي ذهني.

شرع يتحدث عن امانية في الأدب المصري، ورجائه أن يظهر أدب مصري حق، يعبر ببساطة وصراحة وصدق عـن الروح المصري الذي لم يجد أديبا واحداً يعبر عنه، كما عبـر طاغور عن الروح الهندي، وكما عبر أدب الفراعنة عن روح الفراعنة.

قال إنه يأمل أن أكتب شيئا عن الروح المصري.. أدبـا إنسانيا وعالميا.

وقال لي " هل تعرف انني أتصور أن فيك كل العناصر، وكل الخصائص التي تتيح لك ذلك؟ لك أيضا تـذوق عظـيم لنشيد الانشاد، وهو الأدب البسيط الصريح " .

هكذا قال.

كنت أتصور أنني لم أجد في حيـاتي كلهـا إلا صـفير الرياح بين السحب المتهجمة ثم ها هـو ذا صـديقي يقارنني بطاغور، ولو على سبيل التمني.

الإنسان الوحيد الذي قال لي هذا، هو الإنسـان الوحيـد الذي لم أكن انتظر منه شيئا من مثل هذا، على الإطلاق.

بهت بالطبع .. ودهشت .. بل – بكل بساطة – صعقت.. وصمت صمت القبور.. بينما أخذ هو يشرح ويتكلم، ويـتكلم ويشرح.

وأنا صامت ساكن، أمشى بجواره، مشيا آليا.

ضاق صدره اخيرا فصاح بي: ايه ... ما رأيك؟

قلت: بديع.

قلتها مكورة مختلطة متحشرجة، اختلطـت فيهـا البـاء بالعين..، ولم يستغرق نطقها ربع ثانية، ولم أثن بكلمة واحـدة بعد ذلك، لكنه قال، كأنه لم يلحظ شيئا: " أليس كـذلك بـديع جدا".. قالها بحرارة و إخلاص، دهشت لهما، وعـاد يـتكلم ويشرح، ويتكلم، وعدت أصمت.

لم يكتف ... بل قال لي إنه يهمه أن أكتب له، وأعطاني عنوانه، وأعطاني كتاب " جمهورية أفلاطون " .

وفعلا سافرت.. مثقل القلب، لست أدرى لماذا.. وكتبـت له منذ أيام ... ولم يرد على بعد.

الآن ما رأيك في هذا.. ألست تجدها صـدمة.. حسـنا، هكذا حدث، وإن كنت لا أعرف لماذا حدث، أحقا يجد في، في أنا، بعض أو كل الخصائص التي تكفي لكتابة أدب مصـري حقا، إنساني حقا، أيجد في مثل هذا الجوهر؟

لست أدري.. لقد كنت معتزما قبل أن يحـدث هـذا، أن أكتب رواية " ضخمة " أجعل الريف مسرحها، ولسـت أدرى كيف علم بهذا، على رغم أنني لم أحدثه بحرف عنهـا، ولـم أحدث أحدا بحرف، عنها لكنه لـم يـتكلم إلا علـى الريـف المصري، وعن " نفسية " الريف المصري، فهو يعتبـر أدب تيمور، أدبا صناعيا، وأدب محمود كامل أدبا بورجوازيـا أي انه أدب العامة أو الطبقات الوسطى العادية، وتوفيق الحكيم له أدب لا شخصية له.. أدب لا نكهة له..أدب يستطيع أن يغيـر من أسماء أبطاله فيصبح أدبا فرنسـيا مـثلا أو انجليزيـا أو

ألمانيا، لأنه ليس هناك الروح المصري.. ومـذكرات نائـب "رواية مائعة " .. أما عودة الروح فهو لم يقرأها.

ولكن أنا – أنا – في كل العناصر الكافيـة لانتـاج أدب مصري إنساني.. يا للسخرية.... !!

لست أدري – ولا أهتم – إن كانت الأيام ستحقق أمنيـة الفيلسوف إلا أنني سأقضي حياتي عنكبوتا ينسج في الظـلام، نعم لست أدري، ولا أهتم، لأنني سـأحيا ... وسـاموت، ثـم أذهب زبدا باطلا....

(وبعد خمسين عاما – أكثر – كتبت " حجارة بوبيللو "، هل حدث ما تمناه سامي؟)

عزيزي المحبوب

لقد طال حديثي وطال جدا.. كما طال تأخري.. فـأرجو المعذرة عن الحالين.. نحن الأدباء المساكين مسرفون في كـل شيء.. متطرفون في كل شيء..

فقط أرجو أن تتطرف وتتطرف.. في الإسراع بخطابك.. وفي إطالة الخطاب إلى الحد الأقصـى .. ومـا وراء الحـد الأقصى.. نعم أنا في حاجة شـديدة ملحـة إلـى مثـل هـذا

الخطاب.. لأنني منذ أن نزلت دمنهور يوم الأحد الماضى إلى الآن.. لم أجد إنسانا واحدا أكلمه.. بل قل.. لـم أتكلـم علـى الإطلاق.. اللهم إلا الألفاظ الباردة العادية التي تسقط من الفـم سقوطا كلما جاءت الظروف..

فقط.. قرأت.. وقرأت.. حتى سئمت حتى القراءة..

عزيزي وفيق

أرجو أن تكون في خير حال يمكـن أن تكـون فيـه.. وأرجو أن تكون قد رجعت إلى صوابك.. وأن تتكلم كما يتكلم العقلاء إذا شاء " الرب القدير "، وهأنذا منتظر مـن الآن ردك الحافل الطويل السريع.. وأرجو فقـط أن تنـتقم منـي لهـذا الخطاب الذي طال، وطال جدا.

والعجيب أنه لدي الكثير جدا مما أود أن أفضى لك به.. ولكن اطمئن فإنني لست مستغنيا عنك.. أو مفرطا فيك حتـى افعل شيئا من هذا القبيل.

وأخيرا.. تحيات وأشواق المخلص

١٦ / ٧ / ١٩٤٢

" العنوان كما هو .. واحترس من علامة التعجب اياهـا .... "

تجيء الرسائل تترى، تنهمر على من الزمن، ألها زمن؟

بعد ثلاثة أيام فقط، كان هذا الخطاب يكتب الي:

عزيزي... افندي تحية وبعد،

يؤسفني وقد كلفت الرد على خطابك، أن أتأخر كل هـذا الزمن، الأمر الذي لم أكن أريد، ولكن أرادني عليه الكسل، اما لماذا تتسلم خطابا من قدال وقد كنت تنتظره من سامي، فهـذه مفاجأة، أتركها لآخر الخطاب، والآن وقد كلفني سامي الـرد عليك فإنني أجد من حقي القانوني أن أرد بما يعن لي، لا بمـا قد يعن له، ولكما أن تعتقدا ما تريدان اعتقاده، بل وأن تفعـلا بعد ذلك ما تريدان فعله.

عزيزي...

كلمتان على خطابك، لك أن تقرأهما أولا، ولكني متـيقن انك لا بد ستقرؤهما، وإن كنت قد زعمـت نفسـك صـموتا صموتا فلست يا عزيزي عيي اللسان، ولعله خطأ أو صواب، لست أدرى، من المقادير، أن تقع خطابك بين يدي، بـل وأن

تمنحني حق الرد عليك، أنا الذي عرفتني مجادلا منافحا طويل اللسان كثير الصياح محبا للكلام والجدال، أنا الذي عرفتني معارضا أينما كنت، وحيثما اتجهت، ولأي فرد أردت، وأن تضعني أمامك يا من تصف نفسك بالصمت والعى والبعد عن الكلام، وتزعم نفسك مريضا بشلل اللسان، فيا لها من فرصة أتيحت لبرجين مختلفين مفترقين متباعدين في السماء، كي يضيئا كل بطريقته فتتقابل الأشعة، فينطمس كلاهما أو يقوى أحدهما فيأسر الآخر أو يتعاونا معا فيضيئا العالمين.

ولعل أول ما يلاحظ طول خطابك الممل، لا إلى فرد عرف بالنضال كشخصى الضعيف بل إلى فرد كسامي، وأن تلجأ، وهذه زلة أخرى، إلى سعة صدره، بعد أن أوسعته حديثا، وكلات كلاما طويلا غثا، فسامي كما قد فاتك أن تدرك لم نعرفه في اية لحظة من لحظات الحياة التي عشناها معا، واسع الصدر رحبه بل ضيقه متبرما، ولم نعرفه صبورا ضابطا لنفسه بل عرفناه ثائرا ضجرا، هذا إلى أن جل حديثك كان عن آلامك الشخصية، والمحن التي تمر بها في قبرك بدمنهور، ذلك الذي يؤكد أنانيتك التي اعترفت ببعضها في

الخطاب، إن الفرد منا، ليطوى جناحيه على مـا هـو فيـه، وليتحمل آلامه ومشاقه، وليظهر البسمة والسرور اللذين خـلا منهما قلبه، إذا ما قابل فردا مثله وصديقا له، حتـى لا ينتقـل الألم إليه، ولعل الألم ليس شقاء وظلاما، ولعله محـك الـنفس واختبارها، ولعله يا صديقي سعادة عابرة، انحدرت إليك مـن روح قديسة، فطوبى لذلك القلب الذي يتألم، وطوبى لـه فقـد حلت به قبسة من الطهر والنبل والقداسة، فإن كنت الذي يتألم يا صديقي ولا أظنك، فعض على الألم بناجذيك.. أنه سـعادة مشرقة، لا تمر بكل من حولك إلا في لحظات طـاهرة نبيلـة معطرة.

نقطة أخرى، يا صديقي، فإن تلك الجثث الحية الملطوعة على مقاهى قبر دمنهور، تريد منا أن ننفرد لها عجالـة مـن خطابنا، فإنها لفردية أو بالأحرى أنانية منك، لا يرضاها لـك صديق مثلي، فإنهم عبيد ظروف جعلتهم كذلك، تماما كظروفك التي جعلتك عي اللسان صموتا كما تزعم، فـدع عنـك هـذه النظرة الفردية، والفكرة الذاتية، وكن إنسانا يبحث عن مشقات الغير فيواسيها، وعن أمراضهم فيداويها، وكـن إنسـانا مـن

الأناسى قبل أن تكون نفسك، ولا تحدث مثـل سـامي بمثـل حديثك، فمثلي يتغاضي عن كلامك، ولكـن سـامي صـاحب النظرة الكلية الإنسانية، لا يغفر لك ذلك، واعمل على سـعادة الإنسانية، فإن ذلك طريق الكمال الوجودي، وسـبيل تحقيـق إنسانيك، ولن تكون إذا لم تعمل كذلك كاملا.

ولم أر في عيوب الناس عيبا

كنقص القادرين على التمام

عزيزي ....

لقد طلبت من سامي أن يتفنن في أملالك، هل هو قد اتبع أحسن طريق لذلك، فرزقك بي، لكي أملك مللا لا هروب منه، وأن أفتح دماغك لا أن أغلقه كما تقول.

ولعله من الذوق أن أتمنى لك الخير والعافية فـي آخـر خطابي، قبل أن أفاجئك بالمفاجأة التي حدثتك عنها، فقد ذكرت ألمك لمرض أختك شفاها ا ، فما بالك إذا كنت أنت مريضا، أو إذا كان من تطلب مواساته من أصدقائك مريضا، فإن سامي يا صديقي مريض، ولهذا كلفني بالرد عليك، وأنا آسـف جـد الأسف لذلك، ولأن خطابي جاء شديد اللهجة فظيعـا، ولكـن

افرض انك تقرأ خطابا من زكي عبد السلام مبارك، وليس من صديقك المخاص

محمد عبد المتعال قدال

٥٠ شارع القنطرة المتفرع من شارع مسجد حجاج

بالاسكندرية

١٩ /١٩٤٢/٧

زرت قدال، مرات قليلة، في شقتهم تلك، بشارع القنطرة، على بعد خطوات من المدرسة بالقرب من كنيسة العذراء، هل كنا في الثانوي، نعم، بالتأكيد يعني، على الأرجح.

هل كانت غرفته – مثلنا جميعا – ضيقة ورثة، يتـزاحم فيها السرير المغطي بغطاء كثيف من الصوف بألوان زرقـاء وحمراء وبنية، ألوان نوبية مأثورة، ومائدة خشنة، مـن قبيـل المكتب، ودولاب الملابس الخشبي بضلفته الرمادية تقريبا من القدم والاستعمال؟ وهل كنت تدخل إلى غرفتـه مـن طرقـة مبلطة، طويلة ومعتمة، فيها نفثات متلبثة كسول مـن رائحـة طبيخ خاص (هل هو الأكل النوبي الخاص؟ حريـف، عطـن قليلا على، وراكد ؟).

وهل كانت غرفته تطل على منور مربع يعطيهـا، مـن النافذة، قليلا من الاتساع، ونوافذ الجيران الداخلية المطلة على المنور نفسه، منافذ على عوالم مجهولة لي – هل كان هو على معرفة بها؟ - ومشوقة، لأنها خفية؟ وهل كانت، فيما أتصور، لا تختلف كثيرا عن بيوتنا، متراكبة، متشابكة، ناصلة النسـيج وكثيفة الحشو معا؟

كان قدال أحيانا يصمت فجأة، يقطع سيل حديثه المنهمر الفصيح (بالعامية المصرية المثقفة طبعا)، ويرفع رأسه، بشعره القصير، الأجعد، المفلفل، القـوى اللفلفـة، وصـفحة وجهـه الداكنة، وعليها الندبات العريضة المتوازية – علامات قبيلته – لون الجلد فيها أفتح قليلا، وفكه المصمم العنيد.

عمود الأخلاق المكين، كما كنت أقول عنه، بحب، وقليل من الغيرة.

وينصت.

الصوت النسائي، صوت بنـت بلـد مجريـة ومحنكـة النبرات، صوت ملئ بجسمانية تامة، يسقط من المنور:

- يا عزيزة.. يا عزيـ يـ... زة..! يا بت يا عزيـزة إنت فين يا بت؟ ما تقبي بره بقى.. ادى حنا نازلين أهوه.. ! !

الصوت يحمل إلينا كل نسوية الجسم الفتي المغوي.

يقول لي قدال، بسرعة: يا ا بينا، ننزلوا نشموا الهـواء شوية..

وفي لحظة نحن في الشارع، والملاية اللف المطوية بلا عناية حول جسمها تحكم ضمة ردفيها فقـط، وهمـا يهتـزان بموسيقية على الشكربينة المفتوحة واطئة الكعب تـدق أرض الشارع النظيف، شبه الخاوي، في آخر نور العصر، وربـوة العباسية الثانوية بنباتها الأخضر " العسول " شامخة وأنيسة.

كنت أحسده قليلا على هذا النوع من الغـزل المتسـتر المفضوح معا، لأنني لم أكن أعرف – عندئذ، وربما حتى الآن – كيف تكون مثل هذه المراودة الملاغاة التشابك المفتوح دون ارتطام.

وانقطعت بيننا الوسائل بعد ذلك سنين عددا، حتى عرفت بموته الفاجع إذ صدمه ترام الرمل، وهو يعبر الشريط كان قد

أصيب بالصمم، ولم يكن يضع سماعة ولم يعرف – فيما أظن – كيف أتاه الموت.

كان الظرف الـذي جـاءني، بعـدها بأيـام، مختومـا بالإنجليزية24 JL 42 830A ياه..! هل أرسـله هكـذا فـي الصباح الباكر، لحضرة الأخ الأديب.. افندي..

عزيزي..

تحية وبعد،،

إن كان خطابي صدمة بشعة لك فإن خطابك كـان لـي صدمة مشلة مضحكة، فإنه لم يكن منك إلى قدال بل من توفيق الحكيم إلى العقاد (وأظنك قرأت مهاترات الاثنين).

فقد أتيت بملخص فني جميل لخطابي، ثـم بـدأت ردك "بعزيزي "، ولم يفتك أن تعرض بي، فأنا أبلغ درجات الظلام، سعيت فيه يا عزيزي، وأرجو أن تظل علـى اعتقـادك هـذا "بانك شخص ضال ينتظر الفجر بعد ليلة طويلة مروعة، وإذا به يفاجأ بأن يجد نفسه في منتصف الليل "، وأنني لأوافقك على أن أكون ليلك المروع الطويل، وكابوسك المريع، الذي يأخـذ

بخناقك حتى يأتيك الفجر، إن إذن به " من خلق الدنيا في ستة أيام ثم استراح على العرش ".

يا صديقي... إن البرجين بدآ يتناطحان ويتلاكمان، فـإن تخيلك أنني " أهدر بهذري الطويل على منبر المدرسة " قد أعد إلى مخيلتي حقبة جميلة، مليئة بالنضال، فانني يا سيدي لم أكن أعمل لنفسي، فبعض زملائك وأظنك تعرف من أعني، كـان في طريق أقل ما يقال فيها أنها طريق خاطئة ضارة، أراد أن يقضى على نظام مدرسة، وأن يملأ بالأفكار الثورية الشـريرة عقولا فتية، وقلوبا طاهرة، وأظنكم جميعا، وأنت يا صـديقي الأول المبرز، كنت تعادونه ولكن لا يجـرؤ علـى مقابلتـه بالعدوان احد إلا قدال، كبش الفداء، بهذرة الطويل، ومهاترتـه السمجة في رأيك، وأظنك سمعت المدرسة تمتلـئ بصـيحات السخرية، ومسرحها يطفح بهتافات الهزء، إذا ما تقدم للخطابة قدال، وأظنك – واسأل قلبي لا ذكاءك الإ بليسـى كمـا قـال المغفور له الشيخ عبد الرؤوف – أظنك توافقني على أن مـا اجتمعت تلك القلوب الشريرة الثائرة على السخرية به لا بد أن يكون خيرا، وأن من يقف أمام ذلك التيار الفظيـع لا بـد أن

يكون شجاعا، وأظنني تحملت، حتى في الفصل، عداء الطلبـة دونك ودون زمرتك، وماذاك إلا لأنك وهم تخفـون الغضـب وتحرقون أنفسكم دون ما أحساس مـن أحـد، ولكننـي أبـي "شكلي" لا أرضى بذلك، لست أرضى بالتواضع، ما دام الحق فيما أقول، ولست أرضى بوصف ما كنت أقول بالهـذر الآن، وقد كنت توافقني عليه إذا ما أطل عليك وجه " مجدي نبيل "، وليس الذنب ذنبي فيما قلت ولكنك ألجـأتني لـذلك فأسـفا إن أردت على ما قلتَ وقلتُ.

يا صديقي.. من أقوال علماء البلاغة، إن لكل مقام مقالا، لذلك كنت أهدر على منبر المدرسة، ولهذا كتبـت لـك ذلـك الخطاب، لأنكم جميعا لا تفهمون سوى الشدة، ولهـذا أيضـا عارضتك يا صديقي في خطابك الأول، فإنك كتبت تقص على سامي آلامك، فما كان قوله؟ أمـيط عنـه اللثـام، مضـطرا، اضطرني إلى ذلك لجاجك فلا علي.

قال " هذه مقالة صحفية، ليس لديهم أبدا ناحية إنسانية ".

هذا رأيه في خطابك، فلا تحدثني يا صديقي مرة أخرى عن الفرق بين صداقة الاجتماع، صداقة الضرورة، وأحس أنك

تلوح إلى بها، وبين النوع الآخر من الصداقة الروحية، وبـين أن تبوح بآلامك لشخص معين من أصـدقاء المجتمـع... أو لشخص آخر، إذ يجب عليك أن ترى ميـول ذلـك الصـديق الروحي، فليس لمجرد أنك قد أحسست بصداقة خالصة نحوه، تغمره بآلامك، وتصب عليه كل شجونك، لربما كانت طبيعتـه مغايرة لهذا، ولربما كان مسعاك يسيء إليه، أفتقدم على ذلك، وقد عرفت، أم تظل على جدالك يا صديقي؟

تظن يا صديقي أن المشاركة في الألم تنطوى على نوع رفيع من السعادة، أوافقك مبدئيا، ولذلك حثثتك على أن تغيـر أفكارك من ناحية الجثث الدمنهورية، على أن لـي اعتراضـا يسيرا على ذلك، وهو... هل ظنك.. أو ظني يحتم على غيرنا أن يوافقنا على رأينا؟ أو هل لإعتقادنا بذلك نصدم بآلامنا كـل من يقابلنا حتى نشركه في ذلك النوع الرفيع من السعادة الذي لا يؤمن به؟ ثم إذا عرفت أن رأيه مغاير لرأينا أفنظـل علـى اعتقادنا ونتحفه رغم ذلك بالسعادة التي لا يعتقدها؟ إن كنـت مجيبا بنعم فأنا مجيب بلا. ولقد أعجبني تهريبك البديع " أن كل أديب إنما يرى الإنسانية مركزة أو ممثلة فـي شخصـه يـا

صديقي.. لذلك فهو إنما يؤدي وظيفته الإنسانية، تامة كاملة... حين يتكلم عن نفسه.. واقصد الكلام الجدير بالأدب ".

ذلك حسن، ولكن هل تظن خطابك الأول قطعـة أدبيـة، صدرت عن قلب أديب؟ إن كانت فأنت واهم، إن خطابك مقالة صحفية، كما يقول سامي، وقطعة من اللغو فارغة يكتبها جاهل لا يدرى مناحي نفسه، كما أقول.

وليس هذا الكلام موجها إليك كما عرفتك، فأنـت أديـب ولكن إلى كاتب ذلك الخطاب، محكوما عليه بما كتب في ذلك الخطاب.

" أتعتبرني إذن مخلوقا لا يمت إلى الإنسـانية بصـلة.. ألست إنسانا؟ ألست أتألم – إذا فرض حقا – كما يتألم الإنسان؟ ألست أفكر كما يفكر البشر.؟ ألست أعبر – ولـو بضـعف – عما يحس به الشر؟ " لم أقل أبدا أنك لست بإنسان، وأظنني في هذا الخطاب نفسه، اعترفت بأنني أعتقد من زمن طويل بأنـك أديب، ولكن اسمح لي أن أطبق أسئلتك على قوم قد حكمـت أنت عليهم بأنهم جثث حية، أليسوا مخلوقات تمت إلى الإنسانية

بصلة؟ أليسوا أناسا؟ أليسوا يتألمون ويفكرون ويعبرون – ولو بضعف – كما يفعل البشر؟

عزيزي...

أراك تتخيل الألم قطعة من اللحـم الشـائخ.... ولسـت أدري، أهو أدب البطون امتد أثره إلى خيالك، أم هـو غـلاء الحاجات اليوم له أثره في ذلك؟ أم أنك تسـخر مـن قـولي "فعض على الألم بناجذيك " فإن كنت تسخر كما أظـن، فـدع عنك هذا، إن خطابك الأول في يد سامي، اقرؤه عندما أريـد، وقد لاحظت عليك غلطات لغوية، ولكن لم أحدثك عنها، لكـي لا ينصرف أهتمامنا عن الفكرة والمعني إلى اللفظ والوسـيلة، فدع عنك هذا و إلا....

ولعل من مظاهر سخريتك الكامنة في " أعاميق " فؤادك، تساؤلك عن كيف تكون إنسانيا " في عرفي ".

إذا كنت لا تريد أن تكون طبيبا يربت على الأكتاف فـي الطرق، فكن إذن كدون كيشوت تهاجم كل مـن تقابـل فـي الطرق.

أما سامى فقد شفى تماما وعاد إلى حالته الطبيعية، ولو أنه مازال في المستشفي، طبقا لقوانين المستشفي التي تقضي عليه بأن يظل فيه بعد الشفاء مدة طويلة تحت المراقبة. وهو يتحرق شوقا إلى الخروج، فاطمئن يا صديقي، واكتب إليه إذا أردت، على أن يكون خطابا إنسانيا يستدعى رده، و إلا، وهذا تحذيري، أهمله، والذنب حينئذ ذنبك.

وأسفي على تأخير الرد، فقد عرفت كسلي، وعرفت أيضا أنني لم أتغير من عهد أن عرفتني صديقك المخلص الوفي.

محمد عبد المتعال قدال

في حدة انفعالي الصبياني بتلقي الخطاب، أجد عليه تعليقات، لماذا كتبتها بالإنجليزية Really ? you'd better go to hell …… دخلت ملحق الكشف الطبي، بهت طبيب العيون وهو يكشف علي، كما بهت الممارس العام، قال لي طبيب العيون بعد الكشف: يا بني كيف كنت تسير، وتقرأ وتكتب؟

عندما وضعت النظارة على عيني، وخرجت للشـارع، ومشيت على البحر، تغير وجه العالم الغائم، واكتسـب حـدة وسطوعا لم أكن أعرفها، أم لعلني كنت نسيتها تماما.

(الآن يغيم وجه العالم من جديد)

أما الممارس العام فقد التفت لزميله – كان القوميسـيون الطبي شيئا جادا عندئذ – وقال له:

- لا، ليس عنده شيء، نكتب خطابا لأهله نطمئنهم، هذا النحول والقلة، ليست عن مرض، ربما يحتـاج إلـى تغذيـة أحسن. (لم تكن صناعة – وتجارة – الفيتامينات قد راجت، لم نكن نعرفها).

كنت قد غامرت – وحدى، وبحمق كامل، واندفاع،ودون أدنى استعداد أو دراسة – بان أصبح "نباتياً " خالصـاً ، عـن استبشاع (رومانسي بلا شك)، للقتل وأكل الذبائح، ولمدة سنة تقريبا أوشكت أن أهلك، لم يكن عندي أي نوع من التوازن أو التكامل في نظام الأكل، والمحنة في البيت كانت ضارية، كان أبي وأمي (وبقية الأهل، على الهامش) على وشـك اليـأس والجنون، مني، كنت عنيداً حتى الآخر، وركبت رأسي حتـى

الآخر، وما نفعت عندي ضراعتهم وإغـراءاتهم وحنـانهم أو قسوتهم. عدلت فجأة، في عيد القيامة، عدولا تدريجيا، حتـى نسيت الحكاية كلها.

عندما تخرج سامي في ١٩٤٦، وكان الأول في دفعتـه، ورشح لبعثة في الخارج، وذهب للقوميسيون الطبـي للكشـف الروتيني، اتضح أن عنده درنا في الرئة، وكان الدرن عندئـذ شيئا مرهوبا.

نشرت " الأهرام " في ٢٩ منه، الإسـكندرية لمراسـل "الأهرام الخاص":

" أذاعت إدارة كلية الحقوق في جامعـة فـاروق الأول نتيجة امتحان الليسانس في الحقوق، وهـي تلخـص فـي أن الطلاب الذين تقدموا لهذا الامتحان كانوا ١٠٢ وقد تغيب ستة منهم لأسباب خاصة، ونجح ستون طالبا فكانت نسبة النجـاح ٦٥ في المائة.

وقد فاز الطالب حسن حسن كيره افندي بمرتبة ممتـاز ولذلك نال الجائزة السنوية المقدمة من النائب المحترم محمـد محمود جلال للفائز الأول في امتحان الـدور الأول لليسـانس

وقدرها ١٠ جنيهات. وفاز كل من الطلاب الثلاثة أحمد عبـد ا الديب، وإبراهيم عوض ا احمد، وأنور أحمد عبد الرحيم فراج بمرتبة جيد جدا، ونجح ١٨ طالباً بدرجة جيد و٢٨ طالباً بدرجة مقبول ".

وكان كامل الصاوي ممن تخرجوا بتلك الدرجة في تلـك السنة، معي، وفي تلك السـنة، وفـي ذلـك اليـوم، نشـرت "الاهرام" أن الطالب النجيب محمد سيد أحمد حصـل علـى البكالوريا القسم الفرنساوي وكان الأول على دفعتـه بـالقطر، وتلقى والده سعادة سيد أحمد باشا كثير من التهاني.

" اجتمعت اللجنة الاستشارية لبعثات الحكومـة صـباح أمس، برياسة معالي وزير المعارف، وقررت ترشيح الأساتذة الآتية اسماءهم للبعثات التالية:

جامعة فاروق الأول:

كلية الآداب: (الجغرافيا البشرية): محمد فاتح عقيـل (أصلى) محمد إبراهيم حسن (احتياطي)، الفلسفة: مصـطفى صفوان أبو الفتح (أصلي) محمد فتحي الشـنيطي وزكريـا إبراهيم بقطر (احتياطي).

الاجتماع: مصطفى محمد احمد حسن الخشاب وعلي أحمد عيسى (اصلي)، التاريخ القديم: لطفى محمود عبد الوهاب.

اللغات السامية: حسين محمد توفيق ظاظا (أصلي) السيد يعقوب بكر (احتياطي).

علم النفس التجريبي: مصطفى زيور.

هذا وستستأنف اللجنة عملها في جلستين في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم وفي الساعة السابعة مساء للانتهاء من نظر باقي بعثات جامعة فاروق ومن الترشيح لبعثات جامعة فؤاد الأول.

وتأجلت بعثة سامي سنتين، قضاها في العلاج والاستشفاء، في حلوان، والإسكندرية، وبدلا من أن يذهب إلى إنجلترا لدراسة تاريخ العلوم (سافر الاحتياطي صديقنا عبد الحميد صبره الذي أصبح اليوم علما وثقة لا يضارع في تاريخ العلوم عند ا لعرب) سافر سامي في ١٩٤٨ إلى فرنسا، لدراسة الفلسفة في " الايكول نورمال "، ومنها إلى علم النفس التحليلي.

هل بذلك تغير مصير رحلته العقلية والروحية؟ أم أنهـا في الجوهر لم يكن يمكن أن تتغير...

٥ شارع أحمد دقله – محرم بك

الإسكندرية في ٣٠ اكتوبر ١٩٤٧

عزيزي...

غادرت لتوى المستشفي، وكنت آمل فـي لقيـاك أثنـاء إقامتي بها ولعل لا تعرف اني في حاجة إلى كتب أترجمها كما اتفقنا من قبل. وأحب أن أعرف ما قمت به في هذا الصـدد. ولست ألح عليك، ولكني أحـب أن أراك علـى أيـة حـال. وصحتي لا تسمح لي بمغادرة المنزل، لذلك تجدني فـي أيـة ساعة من ساعات النهار أو الليل (أو ما بعد الليل !) وبهذه المناسبة أنبهك إلى أني غيرت منزلي وأنا الآن أسـكن عنـد أختي وليس يصعب عليك أن تجـد المنـزل إذا عرفـت أن الشارع في مقابل مخزن الترام في بداية (أو نهاية) محـرم بك.

وأني أتوقع أن أراك قريبا... فإلى اللقاء..

سامي

لماذا في ذاكرتي، مع ذلـك، أننـي زرت سـامي فـي مستشفاه بحلوان؟ وأنا أعرف أن ذلك لم يحدث؟ أنني رأيته في حديقة المصحة – رملية، فيها مساحات خضراء قليلة – جفاف هواء حلوان عندئذ ونقاؤه يملأ الروح، هو مستلق على كرسي من القش في الشمس، شمس الربيع، متلف بروب دي شـامبر خفيف، النور يتخلل شعره، وعيناه العميقتان قد غاصتا قلـيلا في محجريه، وأنه كان قليل الكلام، على غير عادته، الكـلام مجهد في مثل حالته، وكان الآخرون متناثرين فـي الحديقـة. كان مبنى المصحة على الطراز الكلاسيكي الجديد، بأحجـاره الكبيرة المتينة، نوافذه طويلة باهتة الزرقـة قويـة، وأبوابـه الخارجية لها عقود نصف دائرية؟

ما زالت في داخلي أثارة حس بالإثم لأنني لم استطيع – أو لم أقرر – أن أزوره في المستشفي في حلوان. هل كان في مصحة، حقا، أم كان في بيت؟ بيت من؟

لكننا كنا قد تخرجنا وكنت عاطلا لم أجد عمـلا وكنـت غارقا إلى أنفي في خضم الحركة الثورية، لا أكاد أفرغ إلـى شيء آخر.

وكلها تعلات، طبعا.

١٣ شارع نوبار باشا – شقة رقم ٢٢

حلوان في ١٩ يناير ١٩٤٨

عزيزي...

علمت أن جريدة الأساس محتاجة إلى من يترجم لها الأنباء الخارجية ففكرت فيك وفاتحت شرف في الموضوع فأبدى استعداده لتقديمك إلى رئيس التحرير. لذلك ساءني ألا أجدك في الساعة والمكان اللذين حددناهما من قبل. فلعلنا كنا فرغنا من هذه المهمة أمس. ولكن ما علينا؟ فلعل أمرا عاقك عن المجيء أم تراك نسيت؟ يحسن أن تفكر في الحضور في أقرب فرصة تعرض لك وأحطني علما بما يستقر عليه رأيك وكيف نلتقي. ولست أقول أن المسألة مضمونة (ومن يستطيع قولها؟) ولكن لا مفر من المحاولة والمركز يفتح أمامك طرقا طالما فكرت في طرقها. والمرتب ١٥ جنيها وهو كما ترى ليس فخما. ثم هناك صعوبة إقامتك بالقاهرة. ولكني أعتقد أنها كلها صعوبات سرعان ما تزول. فأرجو أن تتدبر الأمر وتكتب إلى بما تعتزم.

أما أنا فأقضى النهار مغمورا في شمس الربيع، غير أن الربيع قد زال على الأرجح وها نحن نصطلى بلهيب الصيف، وأذرع النهار الضيق وأنا اقرأ أو أرسم، ومـن حـين لآخـر أتحدث إلى صديق، وصحتي أحسن حالا، غير أنـي أرجـئ التفكير في المستقل إلى حينه، ولك مني خالص تحيتي وودي.

سامي

أما منزل شارع احمد دقله في آخر محرم بك فقد كنت – على رغم الحركة الثورية وما فيها من غمار الاضطرابات – أتردد عليه، وخاصة بالليل، اذكـر الأبـاجورة ذات الضـوء الرقيق، ودفء الغرفة وحميمتها، وهدوءها الليلي، سامي هنـا علىفوتي منجد، والروب دي شامبر في الشتاء ليس من النوع الخفيف، والحديث متصل وصاف عـن الأدب المصـري – والعالمي – وعن محنة أهل الريف وعن الروح المصري الذي لا يسحق ولا يموت، وتفصيلات طويلة وحماسية منـي عـن دقائق تاريخ الثورة البلشفية، والخلافات بين ستالين وبخـارين وتروتسكي وانتحار مايكوفسكي ومحاكمات موسـكو ١٩٣٦،

وكان يصغى إلى بذوق، وأدب، وصداقة، ومن غيـر أدنـي اقتناع أو تورط.

ها قد طوفت في الأرض وفي الزمن، وكتبت قليلا، ولم أضع قط روايتي " الضخمة " عن الريف المصري، وإن كنت قد تلمست أحجار أبوللو، ولم ينطفئ ظمأي قط إلى تلك البلـدة - ذاك الموقع كأنه في داخلي – وليس في الزمن، هـل هـو جرن من الطين نشعت فيه البركة أيام الفيضـان وترقرقـت مياهه الخصيبة، منبثق من الأرض، وحولها بيوت الفلاحـين، بالليل لا ينيرها إلا القمر وأنوار مهتزة مخايلة مـن مصـابيح الجاز التي كنا نسميها " الشيخ علي "، والجامع غيـر بعيـد، والكنيسة العتيقة غير بعيدة ، وجسر النيل عال والجنية لم تطلع لي قط على الرأس الحجري الداخل في المياه؟ أم هو ميـدان دائري – أمام كركون غيط العنـب؟- محطـة تـرام ملونـة مرسومة على علبة الخياطة القديمة التي كانـت عنـد أمـي؟ البيوت تطاولها وتظللها أشجار التـوت والكـافور والجميـز الوارفة مبسوطة الأكنان، وكثيفـة الـورق، أو هـي بـوابير الطحين، ومخازن القطن، مكسوة سقوفها بالقرميـد الأحمـر،

وكأن البحر يضرب سور الكورنيش بأمواجه الشتوية، ويغمر أحجاره البيضاء، يطس أرض الرصيف على المينا الشـرقية؟ أم هي بوابات ضخمة في حيطان سامقة في الصـعيد، عاليـة ومبنية بالطوب النيء الرمادي المتين، كأنها قائمة مـن غيـر زمن، ليس فيها نوافذ، العيش " الشمسي " يصوح تحت الشمس الموقدة على السطوح، ولكن في المنضـرة، تحـت، طـراوة منعشة، وأصداء ترانيم خفية، وعبق بخور قديم؟

في هذا الموقع ما زال حيا أوزير سيدنا الحسين حتحور مار جرجس والسيدة زينت ستنا دميانة، لـم يمسـهم عنـف الظلام ولا دوى قنابل الديناميت والكلام، ليسوا أطيافا بل هـم معي، الآن، هنا، أهل البيت، ما أبعدهم فيما يبدو، أيضـا، لا، ليسوا بعيدين.

في ذلك الموقع الذي لا نوافذ له سعة لا حدود لها.

كيف أصل إليه؟لا أعرف.

فكيف لي أن أعرف؟

لماذا ينبغي لي – ينبغي بحرقة – أن يكون فـي مـلء المعرفة؟

٣ – مراسي الأوهام

السلالم معتمة في الشتاء
والمعني اللا محدود إبريقُ زجاجه مشروخ
هل هو مملوء بالماء أم ينز بدمي؟
ايروس انظر إلي.
هل ضربني الفساد؟
العناقيد الحجرية مدلاة من حديد الشرفة، والرخام دفئ
الساقية الخشبية مغروزة في الطين، لا أستطيع تسلقها
البنت التي أحبها لا تساعدني.
ثديها ساقط في حجري، نهمة.
ولم تقل لي: أحبك.
أسقط في منتصف الطريق،
فخورا.
شارع الإسكندراني موحش وخاو بالليل.
مجنون مجنون مجنون،هكذا قال :
ودوت طلقة رصاص واحدة.
رسم شبكة عنكبوت مقطوعة.

هل صدقت النبوءة؟

عزيزي...

لعلك قد عرفت أين أنا الآن.. وإن لم تكن قد عرفت بعد.. فأعلم أنني في مكان قد لا يخطر لك على بال.. مرسى مطروح.. ذلك المكان الذي اكتسب في الحرب الأخيرة شهرة تكاد تكون خرافية.. أجل.. أنني في مرسى مطروح حيث لم أكن أحلم يوما بأنني سأذهب.. وأرى.. وألمس مكانا وآثارا تاريخية.. يتمنى عدد كبير من الناس لو رأى ولمس...

والواقع أنني أنعم في هذا المكان بما لم أنعم به مطلقا... من سعادة ومتعة.. البلاج هنا رائع... والبحر فريد.. والبلدة من أصلح أمكنة العالم لأن تكون مصيفا.. ومصيفا وحيدا في نوعه.. الهدوء شامل.. والهواء لا مثيل له.. والبلد على حال لم أكن أتصوره من قبل رغم كل ما سمعت وقرأت عنها.. كنت أتصور أنني سأرى صحراء واسعة.. وبعض الخيام المبعثرة بها.. وشاطئا صخريا أشبه بما نرى في السينما من الصخور التي تدور عندها رحى الحرب..

اجل كنت أتصور أنني لن أرى سوى بعـض الوجـوه العربية... وبمعني آخر كن أتصورها واحة... وإذا بـي أرى مدينة.. ولو أن ثلاثة أرباع مبانيها أنقاض وخرائب من أثـر الحرب اللعينة إلا أن الربع الباقي لا يقل عن عدد كبيـر مـن المدن الصغيرة التي نراها في الوجه البحري..

مبان.. وبعض المقاهي، وسينمات أي وا سينمات، إلا أن أفلامها عربية وقديمة تكاد لا ترى ولا تسمع فيها شـيئا.. ولكنها على كل حال أكثر مما كنت أتوقع.. والبلاج.. سـأدع ذكره حتى ألقاك.. فما هناك من وسيلة تكفى للتعبير عما يبعثه في من المتعة..

ولعل أبدع وسائل التسلية هنا هى التجديف.. والملاحة.. فالأمسيات جميعها أقضيها على سطح المـاء.. فـي قـارب شراعي لثلاثة أفراد.. طلب مني صاحبه أن أدشنه.. فأسـميته "Red Shadow" (الطيف الأحمـر) أو فـي قـارب ذي مجدافين لشخصين اسمه " هدى " والحق أني أصبحت ملاحـا بارعا.. في كلا الفنين.. فن الشراع.. وفن التجـديف.. أمـا الصباح فغالبا ما أقضيه في التحـدث مـع بعـض الأسـرى

الألمان.. الذين يملأون البلدة.. متمتعين بكامل حريتهم.. وقـد حصلت من كثير منهم على معلومات لها قيمتها عـن أمـور كثيرة كنت أود معرفتها.. وهم على العمـوم شـباب ظرفـاء مثقفون ثقافة عالية.. يشتركون جميعا في السخط على هتلـر ويكادون يـرددون عبـارة واحـدة وهـي: I wish he is dead.....

اقرأ هنا بعض الشيء.. ولكن ليس كثيرا.. فإني أخشـى أن آخذ من وقتي هنا ما قد احتاج إليه في هذا الظـرف غيـر العادي بالنسبة إلي... ولعل للقراءة متسعا مـن الوقـت فـي الأحوال العادية.. وكذلك الكتابة،.. حاولت أن أكتب ما يشـبه اليوميات.. أو المذكرات عن هذه الرحلة.. ولكني أجلت ذلـك لحين أجد فراغا من الوقت يكفي لذلك.. أما عـن الطبيعـة.. فلعل هذه البلدة تتمتع ببعض المناظر LandscapeS التـي لا توجد في مكان آخر.

ونسيت أن أحدثك عن الرحلة نفسها.. تسع ساعات كاملة قضيتها في الطريق.. ولكنها مرت سريعا فيما عـد السـاعة الأخيرة التي تكون في العادة ساعة الترقب والانتظار.. يسـير

بك القطار في صحراء واسعة.. هضبة عن يمينك.. وغيرهـا عن يسارك.. وفي كل مكان آثار معركة.. وفي كل مكان آثار انسحاب.. وتراجع.. وفي كـل مكـان أنقـاض وخرائـب.. وحطامات.

وعلى العموم المكان يستحق المشاهدة ويستحق الزيارة.. وأنا أعتقد أنني قد اكتسبت الشيء الكثير من هـذه الزيـارة.. ولعلك تعجب حين تعلم.. أنني استيقظت في العاشرة صباحا.. وفكرت في السفر.. ثم رجعت عن الفكرة.. وعـدت إليهـا.. وترددت.. ولبثت حوالي ساعة في تـرددي.. ثـم عزمـت.. واستعددت للسفر وسافرت في الساعة الثانية عشرة إلا الثلـث من نفس الصباح.. وقد كان لهذه الرحلـة.. وهـذا المفاجـأة طرافتها...

لعل الإسكندرية بخير.. ولعل الصحاب في نشاط.. ولي كلمة هي أنني أشعر بشـيء مـن الحـرج لمـوقفي هـذا.. ولمغادرتي الإسكندرية وحالنا كذلك.. ولكنها كانـت فرصـة وكنت أعلم أنها لن تعوض فانتهزتها..

والسلام

طبق الأصل، بدون تاريخ.

وهل يهم التاريخ، حقا؟

هل كان ذلك قبل قصة غرامه بسمية، وقبـل أن يهـيم حسن في طرقات حبه وطرقات إسكندرية، وقبل تعلق سـمية بصبحي غريمه، وقبل أن يقتل منير نفسه، وتـدخل الفاجعـة حياتنا؟

إسكندرية، إسكندرية التي أوشكت أن تصبح وهمـا قـد ولى، لكنه وهم رأس راسخ، وصخري، في قلب أمواج السنين قاتمة الزرقة، ها نحن نتركك، وهل نستطيع حقا أن نتركك؟

نقترب من المرسى، ولكن لا رسو هناك ولا قرار.

المراسى هفهافة تلعب بها رياح الخماسين تارة، ونـوات الشتاء المعتم أحيانا.

على هضبة قلوبنا قليلة الارتفاع تخففت دقات الأتـوبيس المكتظ المنهك السعيد بالوصول، وتصمت، نبضات داخلية لها طريق آخر، أما هذا الطريق فيتحدر إلى لا نهائية غير مرئية، ولكنها في متناول أيدينا، كأنها أعمدة النور والتلغراف الخشبية

متعاقبة بلا نهاية، وأسلاك تربط بينها، تتراخي وتتوتر، فـي وحشة، تراكمات استغاثة من رعب جمال لا يحتمل.

قطعان مفككة من البقر المقدس تجوس بين رمال السماء القاحلة وخضرة ذابلة، تجتر، ببطء، خطايانا.

وبعد سنين، ستنوح هنا وردة الجزائرية، مرثيـة حـب مهدر على طعم الكركديه البارد ودقات زهر الطاولة وخشونة كلمات بدوية معلهش يا زهر.

بيوت بدائية غيامات حجرية جحور أظنها دفيئة، قليلـة ومتناثرة بين فجوات الوحشة، على جانبي هذا الطريق.

حتى تتفتح (كزهرة نائمة) زرقة لا زورديـة صـامتة الموج، زبدها الأبيض ناعم.

وروح نسمات نقية نقاء فقدان كامل.

على طرف الخليج البعيد تهاويم صخور متوهمة لها قوام غير متحقق.

مئذنة الجامع وحيدة، سامقة وواثقة، شيء يا سـيدي العوام.

وبعد سنين، ستأتي هنا أفواج التتـار فـي أتوبيسـاتهم المكيفة، وسيأوون، على نفقة نقاباتهم وجمعياتهم ومؤسساتهم، إلى فنادقهم الجديدة الرثة المتفشية كأورام مهندسـة مسـتقيمة الحيطان.

محجبات، من سن الخامسة فصاعدا، ملففات في ثيـاب ضافية، لأن الوجه عورة والجسم عورة والحياة عورة. وباعة الكوكاكولا والذرة المشوية على الفحم تطقطق وحباتها تنفجـر بفرقعات خافتة، وقفف الجريد وقبعات الخوص العريضة التي لا تباع، والآيس كريم الملفوف في ورق لامع ملون، وملتحون بكروش ناتئة وجلاليب بيضاء قصـيرة، وواجهـات المحـال المضاءة بقوة تضج بموسيقى مملة الإيقـاع مرتفعـة جـدا، وسوف تعتم الزرقة ويغيم صفاء الحلم الـلازوردي، وطيـور المراكب المجنحة – على الرغم – ما زالت تحلق وتسف على شطوط الروح المختلجة بالغضب والرغبة.

البحر يغمر غرفة الفندق ويغرق شـكواها الخافتـة ولا يطامن سقم المعدة ولا تطلعات عقيمة إلى المستحيل المستحيل. تدخل المياه من على النافذة بين ملاءات السرير (غير النظيفة

تماما) وتتموج فوق المصباح الصغير المشتعل. أشباح قديمة غير مستريحة، قتيلات لم يذهبن بعد، ترود الغرفة المطمـورة بالبحر والكوابيس، وتئن بالليل.

قرص الشمس قرص العجين الحـار جـاكلين متموجـة وشامخة قلعة منسابة الأبراج مرتجة ومتناسقة التلاطم، عارية الصدر تلقي بالجيشان في جسومنا وأرواحنا، باهرة.

دون جوان الشلة الأربعيني، فتى المظهر، أنيـق حتـى أطراف الأنامل ومحكم اللبس على وسط صانه لعـب التـنس بانتظام من التضخم أو الترهل، حذاؤه لامع ضيق البوز عالي الكعب قليلا عن حصى الشارع العريض غير المسفلت الـذي يفضى إلى البحر، يتحدث إلى جاكلين بما يبدو أنه همس حار يقرب وجهه الذي بدأت تغزوه تجاعيد خفيفة تظهر الآن فـي شمس فاضحة، دون حاجز، وليس هناك إلا صخب الوصـول ونداءات البنات على أحداهن الأخرى والبحث عـن الحقائـب ومساومة العربجية الصغار على متن الكاريتات التي تجرهـا حمير فارهة حينا وقميئة مقروحة أحيانا.

لكن ماريز، كلها حيوية في هذا الظهر اللاسع الذي تهدئ من حرقته نسمات البحر القريب، تغني، ممشوقة تبدو نحيلـة، ولكنه نحول خداع، فاللدونة تنعم كل حنايـا الجسـيم القليـل، والصوت الخفيض – إذا ارتفع – فيه بحة فتاة توشك أن تكون امرأة، أو لعلها خجلة من معرفة حديثة العهد بالجنس وشـطح نشواته لكنها تأخذ هذه المعرفة في طيات حضن مستسر خفي.

روبير يصاحبها في الغناء، ويرتجـل موسـيقاه، مـرح دائما، ضحوك، عنده النكتة جاهزة والقفشة جاهزة، اصله ابن بلد من كرموز وتعلم في دون بوسكو، جائع دائما نهـم إلـى السندوتشات والمشويات والمخللات والأكل المسبك بلا تفريق، ونهم أيضا إلى الحمام بالأرز في الطواجن، معمول في الفرن، والى الدجاجات الرشيقات المتخطـرات الآن فـي الشـورت الملون القافز إلى أعلى الفخذين، غلمته إلى الأكـل والشـرب والنسوان لا رى لها، مع انه يبدو ضامر العـود، هـل لأنـه محترق من الداخل؟

كان فيليب، وعلى رأسه كاسكتة سوداء صغيرة تعطـى عظام وجهه المحددة في الشمس نتوءا وحدة، يحمـل حقيبـة

جانين، يرفع ثقلها بالكاد إلى الكاريتة بينما كانت قد جلست – وهى تضم فستانها الحريري الواسع إلى ساقيها – على الدكة الصغيرة المنجدة المكسوة بقماش صوف غير مريح الشكل، كانت جانين يوغسلافية الأصل، وسلوكها فيه نفحة ريفية محافظة، أما نادية السمراء الصغيرة فقد وثبت إلى الكاريته بحرية، دون حرج، في بنطلونها الضيق الأحمر الصارخ بلونه وبما يحويه من تدويرات جسمها مضبوط النسب.

وشلبي، ساكن الطير، واسع العينين، داكن البشرة، يراقب عملية الوصول، باعتباره مسئولا، يتحقق من وصول الحقائب كلها، ويوجه العربجية الصغار إلى الفندق، وراء مبنى التليفون، في الشارع الذي بعد الجامع مباشرة، على اليمين، والبنات يزقزقن ويضحكن ويتصايحن بأصواتهن الثاقبة أو الناعمة في فرحة الوصول وبدء الرحلة، وإحساسهن بعناية الرجال الكبار في المجموعة، ومداعبات الشباب الصغار، وتحرر الأجسام من حبسة الأتوبيس الطويلة ومقدرتها على الحركة وتشوقها للانطلاق.

الفندق بالليل - كأنما جوهر الحياة لا يصفو ولا يستقر إلا في الفنادق، وفي الليالي – والشرفة العريضة الواسعة التي لا ترتفع كثيرا عن أرض الحديقة مبلطة ببلاط أسود وأبـيض متناوب عليه رمل خفيف. لها سور منخفض، وقد تناثرنا، بعد العشاء، على كراسي القش وعلى حجر السور وعلى مخـدات أحضرناها من الغرف وجلسنا عليها، والكوكاكولا والسـينالكو على حساب الرحلة. كل واحد أخذ واحـدة ؟ فتحـى يسـأل بالعربية والفرنسية، وشجر الكازورينا الفارع يصد رياح البحر المتقلب، غير بعيد، ولكن الفراغ الرملى الفسيح بينـه وبـين الفندق ، من غير عوائق ، عبر شارعين غير مخططين وعبر مساحات مسورة غير مبنية، يؤكد حضورا قويا غيـر مرئـي للبحر الذي يأخذ من النفس حسا بالرهبة.

الحديقة الواسعة أرضها مكسوة بأوراق إبرية دقيقة ملتفة على بعضها بعضا، جافة، لها خشخشة تحت أقـدامنا، لمـاذا نتحدث الآن بصوت خفيض، وهبات هواء البحر الملح تفاجئنا ثم تنحسر؟

عتمة الليل مشعة بضوء النجوم وحده، فتات متسرب من نور مصابيح الشارع التي تغلفها كثافة الشجر.

حلمى العنيد لم يتفتح، راقدا بين ذراعيهـا، لا تعـرف، هي، أنه في حضنها.

ظلال الشجر، بعد كم سنة، تلعب على السور الاصـفر في ليلة صيفية أخرى، ونحن نأكل الزبادي بالعسل الأبيض في الهواء الطلق، وموسيقى رخو متهالكة تأتينا من القهوة الأخرى المضيئة بلعلعة بذيئة من الكريات الكهربائية.

التشوقات، اللهفات، أطيـاف النشـوة تطؤهـا حـوافر حتحور البقرة الذهبية الصدئة المتسكعة على مهل أمام القهوة، تخلت من زمان عن عرش ألوهتها.

عندما سقط الكوب الطويل الذي أشرب منه، تكسر على الرصيف، لم أجمع شظاياه، لأنني وجدتها منذورة، كانت تلمع في النور المهتز، زجاج الجسد المصلوب الممزق غير ملتـئم وإن بدا محكم التعشيق، لحم حاد الحواف ولكنه محطم السنان.

الأربعاء ١٢ سبتمبر ١٩٥٥:

" اليوم بعد الظهر لم تحيني، نظرت إلى نظرة غريبـة، بعيدة، وللمرة الأولى لم تحيني، لا بابتسامة، ولا بهـزة رأس، كأنني لست هناك.

ها هي ذي بداية النهاية إذن.

ما كنت انتظره منذ أبد طويل؟

القطيعة النهائية؟

لا أعرف.

بل لا أعرف ما إذا كنت أحبها حقا. أعرف فقـط أنهـا وثيقة الارتباط بي، بحياتي نفسها، هذا أعرفه، قريبـة بشـكل ليس بعده حميمية ولا قربي، بلا انتزاع، بلا فرقة.

كم أحبك، بيأس...

وبعد كل هذه السنين، أما زال اليأس قائما؟

هل عرفنا أحدنا الآخر حقا، بينما كان جسـمانا واحـداً، وروحانا غائبين؟

أهي غيبة النشوة، أم غيبة التوحد، أم هي، فقط، مجـرد غياب؟

في " القبر الجميل " في شـهر الحصـاد، فـي شـارع العاشقة، بين جسمينا آباد، بينهمـا ميـادين مكتظـة بالنـاس والسيارات، مسدودة باختناقات المرور، صـحارى خاويـة لا عبور لها، فهل روحانا متآلفان أو – حتى – متعارفان؟

كنت اطل، عند اكتمال العقد، على منور فيـه براميـل القمامة الحديدية السوداء.

زجاج النافذة مغبش، والستارة لا تغطيه تمامـا. وكـان التليفون صامتا لا يجيب، ودموعها قريبة، وعنـدما جرحـت ذقني أثناء الحلاقة، قالت لي: " يا عيني ".

جسمى كله صرخة شوق إليك. لا تجد – بالطبع – ردا. لأن الصراخ، كما هو معروف، لا يجدي ولا معني له.

فما معني هذه الدموع الآن؟ أليست متأخرة قليلا ؟

الإسكندرية في ٢٣ يوليو ١٩٤٢

عزيزي وفيق..

إننا نجرى وراء الأوهام، نجرى حتى تنقطـع أنفاسـنا، وندمى أقدامنا ثم نسقط في النهاية، وعلى شفاهنا بسمة، وفـي عيوننا دمعة.

إننا نرمى المتع الرخيصة، وننفر من الحيـاة التافهـة.. المتع التي يعتبرها كل شخص هي الحقائق، نرمى كـل ذاك.. لنجرى وراء الأوهام.

ولكن.. من يدرينا أن هذه الأوهام ما هـي إلا جـوهر الحقائق الثابتة الخالدة، ألم يقل الكثيرون إن الحياة حلم؟

والإنسانية نفسها ألا تنقاد لأوهام غريبـة مغرقـة فـي الغرابة.. ألم يعش الإغريق خمسة قـرون.. وهـم يتغنـون بالأولمب وآلهته وصراعاتها وغرامياتها على انها حقائق ثابتة لا تتزعزع.

ألم ينقد البشر آلاف السنين للأساطير الجميلة أو الرهيبة عن الآلهـة والمسـوخ والشـياطين والنيمفيـات والهـولات والايرينيات، وتجسداتهم واستحالاتهم ومؤامراتهم ومكايـدهم، ذكورا واناثا وأنصاف ذكور وإناث، وكيف ساروا في الأرض وسيروا الصواعق وعذبوا وضربت النسور أكبـادهم وطعـن الجنود جنوبهم بالرماح وسقوا السم والخل والعسل...

أتلك أوهام أم حقائق؟ أم أنها شيء فوق الـوهم وفـوق الحقيقة؟ شيء لا أعرف كيف أصفه ولا أعرف له كنها؟ تلـك التي يصدقها ملايين البشر؟

وهذه أحقائق أم أوهام. تلك التي لا يدين بهـا إلا النفـر الغريب، أوهامنا نحن الذين نقول عن أنفسنا اننا نذرنا أنفسـنا للفن؟

من يدري؟.. ولماذا ندري؟.. أو نحاول أن ندري؟.. ليت شعري لماذا لا نضرب بكل ذلك عـرض الحـائط.. وننثنـي لنعيش كما ينبغي.. أصحاء.. نأكل ونشرب ونستمتع بالحيـاة الموفورة؟.

لأننا خلقنا زبدا، زبدا في موج البشـرية، زبـدا سـوف يذهب جفاء، لأن كل شيء باطل، وقبض الريح..

في " المقتطف " أنهم صنعوا منظارا عاكسا مـن مـرآة لست أدرى على التحقيق مدى قطرها، وأن هذا المنظار الهائل الرائع سوف يتيح لأعيننا البشرية أن ترى من الكون إلى مدى ٩٠٠ مليون سنة ضوئية (والسنة الضوئية كما لا أحتـاج أن

أذكرك هي السنة التي يقضيها النور سائرا بسرعة ألف ميـل في الثانية الواحدة).

هل لك أن تتصور هذا المقدار الذي نراه مـن الكـون، ليجمد عقلك أو ليتحطم ولتضرب رأسك في الجدار ما شـئت، لكي تتصور هذا القدر الضئيل الذي يمكن لعيوننا الضـئيلة أن تراه من الكون. حكيت هذه القصة لأحـد أقربـائي، شـخص "عادي " اسمه بقطر، أنت تعرف طبعا هذا النوع، ولما انتهيت من روايتي، حدق في بعيون واسعة فيها بريق شك وعجب، ثم قال بلهجة مضحكة قليلا: " إيه؟... هم عايزين يشوفوا ربنا؟ ".

صديقي.. ألسنا بعد كل شيء.. نصنع ضـجة كبيـر لا مبرر لها.. ماذا نكون؟ وماذا تكون البشرية كلهـا؟.. وعلـى الأكثر ماذا يكون شخص مثل وفيق بسطوروس أو مثلي فـي كون نرى نحن منه فقط ٩٠٠ مليـون سـنة ضـوئية؟.. ولا نعرف كم من ملايين أو مليارات السنوات الضوائية لا نراه.

هل تعرف رأي أينشتين: أن الكون، الكون كلـه، أشـبه شيء بكرة محدبة، يقع فيها مالا عداد له من الأجـرام، مـن الداخل، أما في خارجها فلا شيء إلا الفراغ، بل الفراغ كلمـة

لا تفي بوصف ما يقع خارج هذه الكرة المحدبة، والكون دائما يتسع، يتسع ويكبر. كيف؟ لا أحد يدري أنـت لا تسـتطيع أن تنفخ كرة مثلا إلا إذا كان خارج الكرة حيزاً فارغـاً لا جسـم فيه، فكيف إذن يتسع الكون، دون أن يكون فـي الخـارج لا فراغ ولا شيء، لا أثير، ولا فراغ، ولا عدم مطلق؟.. يقـول أينشتين إذ ذاك أن الكون أشبه بقوة عقلية ذهنية.. فهل للقـوى العقلية حدود؟ هل يمكن أن تتسع، وتتسع، على حساب ماذا؟ لا شيء.. فليس هناك بالطبع شيء خارج القوى العقلية، لا فراغ ولا عدم.. وهذا لا يمنع اتساعها وتمددها. هكذا الكون كلـه.. يتسع دائما وباستمرار.

هذا ما يقول عقل فذ أنتجته البشرية وروجت له الصحف السيارة.. ويؤيده العلماء، والفلكيون.. فهل لك أن تستنجد يـا صديقي بالأبالسة، وبالجحيم، لكي تدرك تماما ما معنـي هـذه الحروف التي كتبتها لك، معني " الكون " الذي هو يشبه قـوة عقلية والذي يشبه كرة محدبة، الكون الذي يتسع على حسـاب لا شيء، ذلك الذي له حدود، وليس له حدود ! هـل تـذكر الخيام.. انه يقول:

" أتراهم وقد تولت قرون

أعجزتهم كاف وواو ونون ".

أتذكر يا صديقي نوبة عميقة مريرة من نوبـات الشـك عصفت بي؟... أفضيت إليك بخبرها في نزهة لنا على رمـال الساحل.. بالطبع لا تذكر، فهذه الأشياء التافهة كثيرة، يهمنـي أن أذكرك بأن سببها كان هذه المسألة: الكاف والواو والنون.

خفت أن أذكر لك ذلك.. لئلا تعتقد أنني أصـبت أخيـرا بالجنون الحقيقي... وبالأكثر لأنني لم أكن هضـمت المسـألة تماما؟ (وهل يعني أنا هضمتها الآن؟).

ما جدوى كل هذا الهراء؟ لا شك انك تشـعر بالصـداع ولكن هذا إنما هو من بعض مصائب الصداقة وخاصـة مـع شخص مثلي...

على أي الأحوال، معذرة، فكل شيء باطـل... وقـبض الـ ـ... إلخ... إلخ.

مع تحيات

المخلص

(........)

(١٩٤٧)

عزيزي..

بعد التحيات والسلامات...

حضرت اليوم ولم أسعد برؤيتك، وقد أسفت جـدا لهـذا لأني كنت أريد أن أحدثك في هذا الموضوع بنفسي. ولعله من الأفضل أن تتكرم بالحضور إلى الكلية غدا في الساعة الثانيـة عشرة "١٢" إذا لم يكن عندك مانع لكي أزيدك إيضاحا.

والمسألة وما فيها أن في مخازن وزارة المعارف مركز خال وهو سكرتير على ما أظن لإلهـام مردلـى الرسـام أخ إحسان مردلي وصديق أحمد صبري. وهو يعمل مديرا لأحـد أقسام هذه المخازن وقبولك في هذه الوظيفة يتوقف على موافقة اسكندر بك عيسى – أبو مجيدة عيسى.

فأرجو أن تذهب إلى المنطقة (إدارة المنطقـة يعنـي) وتستطيع أن تجد عنوانه في دفتر التليفون وتطلب مقابلتـه – ويجب أن تقابله بأية وسيلة. لأنه لن يردك خصوصا وأن الهام مردلي سيوافق على قبولك فورا. فأرجو أن تضع بعضا مـن

الأمل والحمية في صدرك هذه المرة، وتـذهب لمقابلـة أبـو اسكندر وستكون النتيجة خيرا كما سترى.

وإذا أردت زيادة في التأكيد أمكنك رؤية وجهي الصبوح في الكلية غدا الساعة ١٢ بالتمام والكمال (انظر خلفه).

أنا محتاج لكتاب فرجينيـا ولـف The 2nd common Reader في دراستي فهل يمكن استعارته؟

وألف شكر..

وفيق

فهل كانت هذه آخر الرسائل الوفيقية، في تلك الأيام؟

ذهبت حميا الرومانتيكية، وحمى البوح الحميم، وهـوس التأملات وانثيال العاطفية. ولكن بقى الهم – أو الاهتمام – فهل ذهب هذا أيضا؟

ستكون كل خطاباته القليلة، فيما بعد ذلك مـن السـنين، مشغولة بأمور عملية، محددة، كأننا قد اسـتنفدنا رومانتيكيـة سنوات الأربعينيات المبكرة.

ما كنت أظن أنني سأعيش حتى أبلغ العشرين من العمر، هكذا كان الوهم المستحوذ على صباي، كأنما كان في هذا التوهم المتماك نوع من التوحد بأبطال رومانتيكيتي الأولى:

شيلي، كيتس، بيرون، وأولئك " الرعاة " الذين يموتون حبا وهم يعزفون على قيثاراتهم على هضاب جبال خيالية وتحت أنظار آلهة خيالية.

ما أن بلغنا العشرين من العمر، فعلا، حتى ضربت هذه الرومانتيكية، على الأقل في تجليها المراهق الأول، كما هو المعتاد، والمتوقع، ونضبت الرسائل الحارة بين صبيين تغذوهما وتعذبهما أشباح الموت والحب والفقد والفن.

وضعت في صدري شيئا من الحمية، والعزم، وذهبت، وقابلت إلهام مردلي، بالفعل.

أتخونني الذاكرة أم تصور لي خيالاتي شيئا أكثر واقعية من أي " واقع " فعلي، أم أن هذا " ما حدث " فعلا؟ (ما شأن ما أكتب هنا بما " حدث " فعلا؟ هل " ما حدث " أكتبه؟ وما أكتبه " حدث "؟ ثم ماذا يمكن أن يكون قد " حدث "؟).

ذهبـت إذن إلـى " المنطقـة " (إدارة منطقـة وزارة المعارف العمومية، أليس كذلك؟)، ولقيت إلهام مردلي.

لم أكن قد رأيت شيئا من لوحاته، وإذا كنت مررت بهـا فلعلني لم ألق إليها كبير بال، لم أكن أظن أنه رسام كبيـر، أو حتى مهم.

صعدت سلالم رخامية متهدمة في بيت من البيوت التـي تشغلها الإدارات الحكومية بعد أن كانت سـكن عـز قـديم، حميمة، أخذت حيطانها يتساقط طلاؤهـا الجميـل، وأخـذت أشجارها القليلة تذبل وتجف قليلا، وخشب الشبابيك الطويل قد بهت لونه، وفي البيت أطياف ساكنيه القدامى، أشباح لم تركن إلى راحة بعد. كأن منهم فتاة الروب الأزرق التي لم أعـرف اسمها قط، وكانت تسكن أمام بيتنا في محرم بيه. وكنت أحبها على البعد – عبر شارع لا عبور منه – (شارع بني مـروان المتفرع من شارع عرفان) – من شرفتنا التي تقابـل شـرفة بيتهم. لم تكن تخرج إلا خطفا، تسطع، جسمها ملفـوف فـي الزرقة الناعمة الحريرية، للحظات. أظـل أترقبهـا طـويلا، بالساعات، وما تكاد تشرق ويمتلئ العالم بهـا وهجـا، حتـى

تؤوب إلى الداخل الخفي عني، البيت المكنون على أسـراره، والحديقة بأشجارها الخلفية ونخيلها الذي لا يلوح منه إلا سعف متكاثف علوى. كان عندي أيامها ثلاثة عشر عاما.

كان إلهام مردلي يجلس وراء مكتبه المكـدس بالملفـات والأوراق في غير نظام كما يبدو، وطبعا لها نظام خاص عند صاحبها، فيما أظن. أم أن لها نظاما، حقا؟

وقف من وراء المكتب نصف وقفة، ومد إلى يدا وجدتها طرية من غير قوة شد ولا حرارة لقاء، وجلس بسرعة.

كانت الغرفة معتمة قليلا، هل كان الشباك القديم الطويل مواربا أو مغلقا؟ وهل كان المصباح الكهربائي العاري المدلي من السقف يسكب ضوءه الأصفر الشحيح في النهار؟ تتخايـل لي الآن الملفات الكثيرة، مكومة ومكدسة عليها غبار وأغلفتها رمادية من القدم، هل كانت ملفوفة، كل دستة مثلا بدوبارة؟

كان إلهام داكن اللون مستطيل الوجه قليلا ونحيل العـود – ظننت انه مريض – على خلاف شقيقه إحسان مردلي فـي ذلك كله. ولقيني بترحاب متحفظ – أو بـتحفظ فيـه مسـحة الترحاب – وأظنه قد طلب مني أوراقا وشهادات واسـتمارات

كثيرة. كان " موظفا " حقيقيا الآن، لم يكن " فنانا " – أيا كـان معني ذلك – ألم أكن أنا نفسي بعد ذلك، عند الكثيـرين جـدا "موظفا " (كبير أو غير ذلك) فقـط، لا غيـر؟ أو " موظفـا أيضا" على أية حال؟

كانت تقف أمام خيمة البدو، في مرسى وهمـي، بيـدها بندقية صيد مصوبة للأرض، وكان شعرها غزيـرا وناعمـا مقصوصا الا جارسون، وابتسامتها حييـة وبكـر، صـائدة، وصيدها قد أصيب بطلقة مصمِية.

وكانت الخيمة من جلود الماعز والجمل ضربتها الشمس وبللتها أمطار نادرة ولكنها هتون، فضرب لونها إلى رمـادى مغبر قاتم، والوبر ما زال منتقضا ومستفزا من الخارج، أمـا دفء الداخل فمن يعرفه؟ احتضانات شهوة مسـتنفدة وخشـنة البحة، ووطء أجساد نسوية بكر أو محنكة، واختراقات هواها، وتهلكة أحلامها غير المتشكلة وغير المصاغة أيضـا، علـى أبسطة صوف منسوجة بأيدي النساء و البنات، مبسوطة علـى رمل مسوى منعم ممهد الوحشية.

النسيج القبطي القديم من الصوف العتيق على جدران في شارع رصيف البوربون فى جزيرة القـديس لويس،برعيانـه وعناقيده ورسم "بان" أسود الجسم عارم العزف على نايه الذي يظل يصدح بلا صوت مئات السنوات،فيه اثارة مـن أبسـطة البدو المفروشة على رمل الصحراء،صـلبان أرديـة الكهنـة الأرثوذكسية متكررة بين أغصان العنب المتجمـد المحتشـد بعصارة مدفونة لا تفيض .

"السين" داكن ومظلل وعميق وضيق تحت سموق أبراج نوتردام ،غير بعيد ،أنزل ،من فندق دي لابيه المنـدثر الـذي يطل على الحى الرابع من طرف جزيرة القديس التيد المتنسك المحارب أسير المنصورة ،اجراس الكنائس تدق السادسة تدعو إلى قداس المساء.

نستمع معا ،أنا وسامى وجبريل،إلى ترتيل مـن الشـيخ رفعت بصوته القدسـي الـذي يتماسـك وينهمـر وينسـاب ويصاب،حنينا إلى جنات موعودة مشتهاة وفرقا مـن جحـيم الهالكين .وبيننا،على المائدة الصغيرة الوطئة، تغريبـة بنـى هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزنـاتي خليفـة

وما جرى لهم من الحوادث والحروب المخيفة ،وسـيرة بنـي هلال الكبرى الشامية الاصلية من أصل تناسلهم من الزير سالم إلى أبى ليلى المهلهل.

عشاء حميم وأحاديث شهية، أفى ١٥ شـارع رصـيف البوريون أم فى ٤ شارع تورنفور ،فى البيـت ذي الأعمـدة الخشبية الضخمة ،جذوع ضربها سوس قـديم قـد طهـرت خرومه العتيقة منذ أيام سكنى بروسبير ميريميه، كأن دقـات البيانو تعزف اشعاراً أنيقة عن كارمن التى أغوت فارسها حتى هجر ناسه واعتنق قيما لم تكن له ولن تكون يوما من الأيـام، وانتهى بفاجعة بعد أن نبذته المعشوقة المستباحة المنيعة عليه، المعطاء العصية عليه، أم نحن في شارع الفراعنة في الحـي الإغريقي السكندري العريق، في القاعـة الفسـيحة، وارفـف الكتب الرصيفة غير المثقلة تحيط بنا، والأباجورة ذات النـور الرحيم.

تأتي قافلة الرجال من حافة أفق الدلالات، تشير إلى مـا هو غير معروف على صفحة رمال متقلبة، الجمال تنيخ وهي تزمزم وتخور، و يهبط الرجال في وسط حلقة مـن النسـوة

الجالسات القرفصاء علـى الرمـل العـاري، لهـن غمغمـة غيرمستبينة من وراء براقع قصيرة مثبتـة، بمخـازم ذهبيـة محززة، على الأنف، مربوطة بطرحـة الـرأس. ويـرقص الرجال في داخل الحلقة الأنثوية أهي رقصة الصائد أم طـراد القنيصة المحاصرة ؟

نور مصابيح " السين " الموضوعة بحذق وتوخ حريص ومرهف للجمال، تتخلل أوراق الشجر على الرصيف وتلقـى ظلالها المهتزة على مياه النهـر وأرض الحديقـة المكسـوة بأوراق إبرية ملفوفة مخشخشة تحت هبات الهواء، وقد غابت أصوات السيارات المتلاحقة موجات تعلو وتنخفض وتعلو من جديد من وراء حيطان باريس العتيقة وأبراج قصـر العدالـة المدورة السوداء، ذات القمم المخروطية، ومئذنة الجامع المطل على الخليج الأزرق وبرج الجرس الذي يعلو كأنه خاشع أمام شكاة عاشق لا تخمد بمرور الزمان.

دفء العشاء المعد بعناية وذوق مصـفى مـع سـامي وجيزيل، عبرت إليها بوابة خشبية ثقيلة مصفحة بحديد مشغول قديم الطراز، وفناء واسعا مرصوفا بالبازلت ما زالـت فيـه

أطياف وأصداء مكتومة لعربات بائدة وخيول مطهمة منـدثرة وصلصلة سيوف مغمدة تحت عباءات ثقيلة فضفاضة وقبعات واسعة ذات ريش وخيلاء.

لم تكن إلا نقطة ضئيلة الحجم، ملفوفـة علـى جسـمها الصغير، قدها الضئيل جامد وثابت دون أدني نأمة، ملئ بطاقة عرامة وحشية مكتومة، تخفى وجهها السافر الصـبوح بـين ذراعيها .على إيقاع بطيء كأنه ينبع من تحت سطح الصحراء نفسها يتماوج الجسم القليل الذي يبدو فجأة انه يمـلأ السـماء حتى آخر الأفق، تصطفق القدمان واليدان بدقات ارتطام شبقى مبتل وصلب معا.

وقصة فيروز شاه ابن الملك ضاراب بمجلداتها الأربعة، وسيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذي يزن البطـل الكـرار والفارس المغـوار صـاحب الـبطش والاقتـدار المعـروف بالغزوات المشهورة والفتوح المأثورة، في مجلـداتها المغلفـة بورق كرتون ملصق عليه صفحة الغلاف الخـارجي الباهـت الصفرة أو الشاحب الحمرة أو الأبيض الفاتح الخضرة كعوبها الحمراء الزرقاء القماشية مشبكة مغراة.

امتدادات الرمل تعلو وتنخفض ثم تعلو من جديد ورغاء الجمل الشاهق الذي يحط بخفيه الأماميين أولا ثم يهبط بجرمه الجسيم على خفيه الخلفيين، يخور كأنما يشكو، وينزل من خطمه خيط ابيض من رغوة القهر أو الانصياع أو الرضى، وفي عتمة الخيمة حدقة البطارية الكهربائية واسعة متفتحة بنور محدد مدور يومض ثم ينطفئ على الجسم الأنثوى المستكين تحت ثياب زاهية وثقيلة موشاه بقطع من العملة الذهبية العثمانية تصلصل وقد انفك الحزام الأحمر الساتان العريض عن البطن المدور الهضيم، المحبوك بقوة ربانية، والجسم يحط على البساط الصوف المصبوغ بخطوط حمراء زرقاء متعاقبة، وصمت تحقق الشهوات.

نفتح صدفات المحار المخضرة المضلعة ونلتقط لحمها الدافئ المتبل بمسحة طيارة من الزبد والبهار وعجين أعشاب برية عبقة، ونرشف النبيذ الأبيض ثم نثنى بالعدس الأسود المطبوخ على البط اللادن متماسك اللذة يذكرني بما كانت تصنعه لنا أمي في أيام الإسكندرية الرخية التي لن تعود.

وقصة الأمير حمزة البهلوان المعروف بحمـزة العـرب على حصانه الذي يشب على قائمتيه الأماميتين, وذيله غزيـر الشعر، والأمير مدرع مزود على رأسه خـوذة مدببـة فـي مقدمتها شبه ثعبان الكوبرا الملكي، وفي يديه رمـح مشـرع مرفوع مسدد إلى صفوف أعداء لا نراهم مـن وراء غـلاف الكتاب وعلى جنبه سيفه الصقيل الطويل مخوف الطول. وقـد ضربت طبول الحرب والقتال وخرجت العساكر تتسابق إلـى ساحة النزال فهل كان في يده أم في يد خصمه كاووس شـاه عمود من الفولاذ يبلغ القنطار وسلسلة من الحديد يعلـق بهـا كثير من الكلاليب وحديد الأوتار؟

تلويات القد الدقيق في الثوب البدوي السـابغ .محكمـة ضمته على الردفين ثم ينداح على الساقين العبلتين تحدس ولا ترى حركتهما بنغم سريع لا تكاد تحس انتقالاته مـن الهـدوء إلى العنف ومن النعومة إلى الصخب البدني صـارخ الـدعوة صارخ الاشتهاء فيصرخ الرجال صرخات قصيرة مقطوعـة بصوت أجش يأتي من أحشاء موجعة متطلبة ترد على النـداء البرى بالنداء، حتى يهوى الجسم الذي أسقط الصحراء في هوة

ساطعة النور، وهي تنهج، تناثرت من تحـت قمطـة رأسـها خصلات شعر ناعمة فاحمة السواد مشعثة، وكأنما عادت كل الطاقة المتدفقة فجأة إلى داخل بؤرة عميقة في ذلـك الجسـم الملفوف على نفسه، نقطة ملمومة مطوية من جديد، متحصـنة من وراء حدود مغلقة الآن مهما كانت عذوبة انسـيابها الـذي جمد فجأة، أغلقت الزهرة كل أوراقها، وضمت نفسـها إلـى نفسها، تماما، ونهائيا لم يعد يراها أحد.

جيزيل دقيقة الاصابع دقيقة الملامح دقيقة الكلمات، نحيلة وشقراء جدا، مسننة الوجه، تكاد تحس أنها ستنكسر الآن لـو هبت عصفة ريح أو عصفة من الحديث أم من الأحداث، لكنها من الداخل صلبة قوية السند لسامي، مع حـدة المـرد ورقـة الملامسة معا، رسومها المنمنمة بتركيبة ألوان خفيـة النسـق سوناتات سناها يترقرق ساجيا مـن تحـت السـقف المثلـث والأعمدة الجسيمة التي تبدو كأنها شفت وفقـدت جسـمانيتها نفسها مع أصداء موسيقى تنسحب إلى ماض يومض في سماء باريس.

توت القط الإلهي الحكيم بعينيه الواسعتين وجسمه المرن الكبير ناعم الشعر أسلافه من سـيام أو مـن أيـام سـنوحى المصري تحت صروح أخيتاتون المنقضة، وينزلق بين ذراعي جيزيل رأسه في سحاب باريس المشع بنور ابيض هي نفسـها نوت المرفوعة فوق جب يحملها ابن رع يـده عنـد ملتقـى ذراعها بالصدر المقبب ويده الأخرى عنـد ملتقـى الفخـذين سحرت صباي هذه السماء الشبقية، توت فجأة علـى سـطح البيت جماع الحقب والعصور مرجع الأسلاف والأحفاد أذنـاه منتصبتان كأنما تنصتان إلى حسيس أو وسوسـة لا يسـمعها سواه، أيستعبد هناك سيماء أبيس أم القرد آلـه هرموبـوليس الأشمونين أم الثمانية آلهة وهو التاسع الأخير؟.

لوحات سامي السارية بتلال منسابة ذات أزهار مونقـة وخرائط الإسكندرية التاريخية والقط بست الجـاثم موسـيقى ربضة جسمه المتوازية على شفا أبدية لا تنتهي وصـور آدم حنين كثيفة التخطيط والصوفا التقليدية الكراسي الرقيقة بلونها الكستنائي الذهبي الذي صقلته ونعمته مساعى سنوات من أجل تصالح الناس مع النفس ومع العالم، نشرب القهوة الفرنسية في

الصباح، جافة عميقة الوقع مع قطعة واحدة من السكر البنـى الخام غير المبيض في كأس مستطيلة مـن الخـزف الطيـب الملمس على الشفتين والستائر البيضاء تهفهف ولما تكد علـى شارع بوتاريل الصامت وفي واجهة الباتيسرى تحت إعـلان عن " ماجريت " وأسرار الخيال.

ننزل إلى القبو على السلالم الخشبية التي لأقدامنا عليهـا صدى، طالما شهدت فرحة اللقاء وعناق الشوق وحرارة اللقيا، سامي يفتح الباب بمفتاح كبير، في ليلة شتوية. ننتقي زجاجـة من النبيذ عليها طبقة خفيفة من هبوة غبـار، بطاقـة الاسـم والعنوان بالخط القديم، رسم.

٤ – سطح بيت في شارع الاسكندراني

عندما التقيت بفتوح القفاص سحرني منه، على الفور، أنه بوهمي المظهر والسلوك، نسيج وحده، كما يقال .كـان فريـد الطراز، لا يقيم وزنا لأي من التقاليد أو المواضعات المألوفة.

كان – مثلا – في عز الشتاء يمشـى بجاكتـة سـبور، بقميص مفتوح، من غير بلوفر، شعره أجعد وأشـعث داكـن السواد وغزير. وفي يده – دائما – كتاب عربي أو إنجليـزي، غالي الثمن مما كان يستعصى علينا أن نقتني، نحن الذين فـي الجامعة بينما هو يعمل، بدبلوم التجارة المتوسطة، في شـركة البيضا، بكفرالدوار، يسافر إليها من الإسكندرية، ويعود، كـل يوم.

سرعان ما توثقت بيننا الصداقة.

كان – وما زال – تستطيره الأفكـار (أفكـاره هـو) فيستشيط ويشتعل حماسة ويقذف بنفسه في جدل حام مع نفسه أو مع غيره يعلو فيه صوته، بطيبة قلب أو بشيء من السذاجة حتى، ويتناثر من فمه الكلام والرذاذ. ولم يكن عنده من كلمات السب أو الإدانة غير كلمة واحدة: " يا حيوان! " حتـى لقبنـاه

بها، وكنا نحييه بها، ونرد على مجادلاته ومشاكساته بها: " يا حيوان ! " وهو يبتسم عندئذ، أو يتهانف بضحك خافت متردد إذ يخفض عينيه كأنما هو سعيد بالمداعبة أو على الأقل راض بها.

وكان من مرتبه في " شركة البيضا " يعول أسـرة أبيـه ويعلم أخوته في الثانوي والجامعة ويشترى الكتب الثمينة.

وبينما كان حذاؤه الضخم واضح الترقيع وواضـح انـه أضيف إليه نصف نعل ربما عدة مرات، وتشقق جلده، وعليه آثار طين ومطر قديم لا تزول، كان يشتري كل أسبوع تقريبا نصف دستة كتب إنجليزي غالية من مكتبة فكتوريا في شارع سعد زغلول، وله فيها حساب جار فتحوه عن طيب خاطر لهذا الزبون النادر، وكان لا يفلت من نهم قراءته كتاب فـي الأدب أو الفلسفة أو التاريخ أو الشعر أو الاقتصاد على السواء.

قرأت منه، مثلا " آلة الزمن " لـ هـ. ج. ويلـز، فـي طبعة مجلدة بغلاف بني مذهب الكعب، وترجمات بالإنجليزية لروايات أناتول فرانس، و " دليل المرأة الذكية إلى الاشتراكية"

لجورج برنارد شو، و " سندباد مصري " لحسين فوزي يـوم صدوره، وغيرها كثير.

هل كان ذلك في ١٩٤٢ أو في ١٩٤٤؟ عرفت منه انـه اشترى " العالم الجديد الجرئ " و " بلا عينين في غزة "،"نغمة ونغمة مضادة " لأندلس هكسلي و لما كانت تفتنني – حينئذ – كتابات هكسلي ألمحت له أن أستعيرها منه، فقال ببساطة:"تعال معي خذها من البيت ".

كان بيتهم في شارع الإسكندراني.

وأيامها لم نكن نتحرج من زيارة أصدقائنا في أي وقـت ظهرا أو ليلا لا فرق.

كنا في عز الظهيرة، مدخل البيت القديم العالي نظيـف، رخامي، السلالم، تلمع ناصعة النظافة وهادئة، أبواب الشـقق مغلقة على ساكنيها، روائح طبيخ الغداء: نفث تقلية الملوخيـة أو نفحة تسبيكة البامية تتسلل من سر البيوت المكنونـة علـى اصحابها. كان محرم بيه أيامها فيه هبوة ارستقراطية باقيـة، غير بيتنا في راغب باشا حيث أبواب الشقق ليست ضخمة ولا عالية محكمة، بل رقيقة الخشب ومواربة في الغالب تسمع من

ورائها وأنت طالع السلم الضيق المعتم كل ما يـدور خلفهـا: لعب الأولاد وزعيق الأمهات ودعاءهن على مقاصيف الرقبة المعجونين بمية العفاريت وطشة الباذنجان المقلـي أو نفحـة السمك المشوي بالرضة على وابور الجاز الـذي لا تخطـئ الآذان فحيحه القوي، المنتظم.

وإذ كنا نصعد أنا وفتوح القفـاص سـلالم بيـتهم فـي الإسكندراني، تتعاقب الأدوار ولا نصل. لم يكن قد قال لي في أي دور سكناه، وكنا منهمكين في نقاش – أخذت أنفاسه تتقطع قليلا، على حموة الصبا ونشوة المجادلة – حول عـدد سـكان مصر عند الفتح الإسلامي، تقديرا على الجزية المفروضة على القبط، أي على سكان مصر كلهم، وهل كانوا أربعين ألف ألف أم عشرين ألف ألف، باحتساب قيمة الدينار نسبة إلى الجنيـه المصري الآن، وكانت الحسبة كلها تكنيكية على جـدا، حتـى وصلنا إلى الكات الخامس أو السادس، وإذا بنـا أمـام بـاب السطح، وإذا نحن على سطح البيت، فسـيحا، مبلطـا بـبلاط أبيض ممسوح حديثا، وإذا بيتهم هو بالضبط هذا: غرفة واسعة على السطح، فيها كل شيء.

وفيها قبل كل شيء مكتبة عامرة لم أكن قد رأيت مثلها في أي بيت من بيوتنا، أرفف خشبية مفتوحة متعاقبة محملة بالكتب العربي والإنجليزي منها المجلد النادر المنال، ومنها روايات الجيب، وعلى الأرض رصص المجلات الاسبوعية والشهرية الرسالة والثقافة وأبولو والهلال و المقتطف والاثنين وكل شيء والدنيا.

على الأرض المبلطة كليم وعليه مرتبة عريضة، وكرسى أو اثنان خيرزان ومائدة مثقلة بالكتب، وزجاجات الحبر، والريش الخشبية مختلفة الألوان بعضها مغموس في زجاجات حبر واترمان التي كان يستحيل علينا أن نشتريها – كنا في عز الحر – وبعضها قد جف الحبر على سنها الرفيع، وفي الركن كرسى حمام خشبي منخفض، وطبلية مدورة خشبها مشرب ببقع زيت لا تنجاب، وطشت كبير من نحاس أحمر مصقول، ووابور الجاز المحتوم، وحلل الطبيخ جنب الحائط، وقصرية غير بعيدة، وسائر عدد الحياة البيتية الحميمة مكشوفة عارية، جلاليب، وفساتين، معلقة على تلك المشاجب القائمة ذات الفروع الملتوية المتعددة، كأنها قرون غزلان أو

أغصان مقوسة حسنة التدوير، ودولاب ضخم بمرآة بلجيكـي عريضة تعكس الغرفة كلها، وتكررها في داخلهـا، وتعطيهـا سعة أخرى، في آخرها المكتبة العتيدة وكنوز الكتب البعيدة.

قابلتنا أخته بملابس البيت الكستور الواسـعة، شـعرها ملفوف بمدورة بيضاء مغضنة، وراعتني منها عينيها الواحـدة صفراء خضراء، مثل عيني فتوح نفسه، حادة ونفاذة البريـق، في وجه آسر سمح مع صلابة خطوط عظامه القوية.

وكان واضحا أنها هي التي تقوم بمهمات ربـة البيـت، ومسئولياته الثقيلة كل شيء كان مفاجئا بمعني ما، ومتوقعا في الوقت نفسه.

هذه الغرفة، في مرآتي، ليست تكرارا ولا انعكاسا. ماثلة الآن، وبلا زمن، لها وجود فريد.

هذه الغرفة، وفتوح، والكتب، وأخته، وأدوات الحياة.

عندما زرته بعد ذلك – بسنتين – وبعد زواجـه بتلـك البنت المغربية الأصل رقيقة الجسم حادة الـروح كالسـكين (كان قد هجر أوديت بعد حكاية لقاءات- وغراميات؟ ا أعلـم ! ذائعة الصيت) في شقته الأنيقة البورجوازية الأثاث، تقليدية

عادية، كانت المكتبة الخشبية الأرفف المفتوحة قوية العضل قد حلت محلها خزانة الموجني الغالي ولهـا واجهـات بلوريـة تخطف البصر حوافهـا مشـطوفة تعكـس أضـواء النجفـة الكريستال الكبيرة بومضات زرقاء صفراء وفضـية، وبينمـا جلست في فوتيى الطقم المذهب وغاصت قدماي في السـجاد الكثيف الوبرة، لمحت بعضها من الكتب القديمة، التي أحببتها، هناك، وراء الزجاج السميك، أغلفتها شحبت ألوانها، يمكـن، حوافها تآكلت قليلا من القراءة وعـرق اليـدين والاسـتخدام العنيف، أثناء الأكل ربما وفي الترام وفـي القهـاوى، وفـي التواليت، لم تعد زى زمان جديدة وبكرا ومقروءة أولا بـأول، يمكن، لكنها مازالت تراث الصبا المذخور.

تراث الصبا المذخور؟

الإسكندرية مساء ٢٢ نوفمبر ١٩٤٢

سخرية !.. ماذا تستطيع أن تسميها غير ذلك؟!..

منذ أكثر من شهر كتبـت إليـك ولكنـك لـم تتفضـل بالجواب... رغم رغبتي الصريحة فـي ذلـك... ورغـم أن الخطاب وصلك في ١٣ حبيب جلبي... ولم يضع في البريد..

كما اعتادت الخطابات أن تضيع.. وإذن.. فهي صفحة تريدها أن تطوى، وهي مرحلة تريدها أن تقضى، لا بأس.. أو علـى الأصح.. بديع.. أليست الحياة، بعد كل شيء سخرية كبيرة..؟ على أي الأحوال.. لعلك تذكر أن يونيو سنة ١٩٤٣.. يونيـو الموعود، لم يأت بعد؟ نعم.. يخيل إلى انك تهـرب منـي، أو كنت تهرب مني، وكنت أنا أجرى وراءك.. وهـذا مضـحك قليلا.. وإذن.. فلا بأس من مضايقتك أكثر قليلا.. وعلى ذلك، فسأكتب لك.. وقد أكرر الأمر، على رغم أنه يمكنك أن تثـق أن كل خطاب يرد منك إلى، وهذا غيـر محتمـل، فسـتكون النتيجة أن يرد إليك، مغلقا، وفي الحال....

وفيق...

أي مأساة من مآسـي الصـداقة، والخيانـة، والوفـاء، والكبرياء، والنبل، والحساسية، والحيوانيـة، مأسـاة جـديرة بشخص كالشاعر راسين أو كورني، يصـرخ فيهـا بطـل، ويبكي، ويهتف، ويملؤها الكاتب بعلامات التعجب.. وقطـرات الدموع!!..

نعم.. إنني لا أملك أن أفكر فـي " اللغـة البشـرية ".. بغيظ.. وحقد سافر.. أنها تمدنا بكلمات كثيرة، كثيرة جـدا، لا معني لها، ولا وجود، ولا مبرر على الإطـلاق.. الصـداقة.. والكبرياء.. والوفاء.. والنبل.. ! ! أشياء مضحكة.. لا أكثر.. ولا أقل.. أنني لا أريد أن أنفعل، وأحتد، فقـط.. أحـب أن أتكلم، وأن أكتب.. وأن أعبر عما يجيش في نفسي من مشاعر مظلمة، هادئة، كضباب يخيم على صحراء، وتخترقـه اشـعة النجوم الضئيلة، عند مساء محتضر..

إنها لعنة مكتوبة على طائفة من التعساء.. لعنة فاه بهـا القدر، ترغمهم على أن يكتبوا، أو يتكلمـوا، ويعبـروا عـن أنفسهم، مهما كان الثمن..

كلا.... لست أريد هستيريا من نوع الخطاب السـابق.. ولا سخريات جوفاء ولا مشاعر الكرامة المجروحة... وسائر هذا الهراء...

هو الواقع أريد أن أعبر عنه.. في نوع من الاستسلام.. نوع من عدم المبالاة.. أنني أفكر فيك كثيرا.. ليس عن صداقة أووفاء.. كلا.. فقد تسممت نفسي.. وإنما هو نوع من الحنـو

الأبله.. للذكريات.. نوع من زيارة المقابر.. وذرف دمعـة أو اثنتين.. على أعشاب نمت فوق جدث عزيز....

هل تدري؟.. في مساء ١٥ مايو سنة ١٩٤١ كتبت فـي مذكراتي ما يلي بالحرف الواحد:

" نعم.. لقد تسلل " أنت " إلى دنياي الخاصـة.. وهنـاك عاش بين المجانين الذين يملأونهـا.. لقـد أحببتـه كثيـرا.. واقتربت روحي من روحـه كثيـرا.. وتعانقـت مشـاعري بمشاعره كثيرا.. ولكن من يدري؟..قد يجترف الـزمن هـذه العاطفة.. فتمر تحت عجلاته التي تدور علـى كـل شـيء.. وتحطم كل شيء.. ولكن.. هذا الزمن لـن يقـوى أن يلمـس ذكراها في قلبي.. لن يرفع يده لكي يحطم تمثالها المرفوع في داخل نفسي.. فنفسي معبد خالد.. يستعصى علـى الـزمن.. مقدس .. لا يجرؤ أن يضع قدمه على عتبته ".

عجيب... أن يحس المرء بأشـياء هـذه.. منـذ سـنة ونصف.. ثم يذكرها الآن حين يأتي الزمن.. يطـل برأسـه.. ويتردد.. ويزمجر!!.. أليس كذلك؟...

(عجيـب، أن تتـردد أصـداء هـذه الكلمـات، هـذه النوستالجيا، طول العمر).

نعم.. إنني أزور المقابر، وأبكي على الأعشاب الناميـة فوق الأجداث، عند الأصيل المحترق.. وأحدث في لا نهايـة السماء، وأنا أذكر " قبلة يهوذا "، هل تعرفها؟.. أذكـر مسـاء "خميس العهد ".. والمصباح وهو يرمي بأشعته الممتقعة، على المصلوب وعلى الخائن، وأذكر الدموع المذروفة فـي ظـلام ركن بعيد، دموع ملتهبة مرة، ثم أذكر جثة يهوذا التعس، فـي شحوب الفجر، تتأرجح تحت النسيم، بعد أن شنق نفسه، بـين شبحي الندم والمعرفة....

كلا... كلا.... لست أريد أن أتمادي، أن أطياف الرموز تتقاتل في ضباب نفسي.. بروق تلتمع، وعواصف تثور، فـي صمت، وتختنق في صمت، وتدفن إلى الأبد، في سكون..

إنها لعنة.. لعنة أبدية.. وصمت بها شرذمة من الأشقياء التاعسين.. لماذا اريد أن أكتب أشياء بلهاء سخيفة، فارغـة ؟ لماذا أريد أن أقتنص هذه المشـاعر المتموجـة التـي تمـر بأعصابي، كما يمر النسيم على بحيرة ضحلة، ملآته بالطحلب

والحصى والرمال؟... لماذا لا أنام... كما يفعل الناس، وفـي مثل هذا الوقت ثم استيقظ وألتهم طعـامي.. وأحيـا حيـاتي، وأموت، كأي حيوان عادي؟..

ما دام ليس هناك ثم فائدة، ولا سـعادة..؟ إنـه الجـرح القديم، القديم يدمي باستمرار، ويقذف صديده، في ظلام نفسي، باستمرار...

أنني أعيش كمجنون.. حبس في جسد.. وحكم عليه أن لا يرى النور.. الجسد هادئ عادي يسير ويمتزج بالناس، والجني في قمقمه ينفث لهبا ودخانا يحترق ويختنق، ويناضل لالتقـاط أنفاسه، ويحيا، في جحيم ساحق، في قمقم مسـدود، مملـوء بالأبالسة، والملائكة، والزهور، والجمرات، هناك شبح يعـيش معي باستمرار، ويسير إلى جنبي باستمرار، شـبح مخيـف، لكنى أحبه، وأحدق في عينيه الغائرتين المملوءتين ظلاما، لكي أبحث فيهما عن الأحلام التي تعيش في نفسي، نعم إنها فكـرة الانتحار، دائما معي... دائما معي... عندما أتعلق بالسـحب، وأرهف أذني لنغمات الملائكة، عندئذ فجأة تقهقه في سخرية.. هذه الفكرة المخيفة المحبوبة.. فأسقط إلى الأرض.. وأنا أحدق

في عينيها المملوءتين بالظلمة، ثم أمزق أحلامي.. في لـذة لا يشعر بها إلا مجنون يمزق بأظافره، وأسنانه، جثة أحب الناس إليه.. لذة طاغية تقطر منها الدماء وتندلع منها النيران.. فتلف الروح في دخان خانق عطر..كما يحس المرء.. وهو يـرزح تحت كابوس مخيف الجمال..

نعم... الانتحار، إنه صديقي.. أهمـس إليـه.. فيبتسـم ابتسامته الرائعة.. ثم نشق طريقنا في الحياة.. جنبا إلى جنب.. ويدا في يد..

في المساء.. عندما تسود الظلمة.. أدعوه.. في صـيحة الطفل المذعر.. وفي الصباح أستند إليه.. عندما انقل قـدمي الثقيلتين.. المتعبتين من ملامسة الأرض.. وفي الليل ..أنـام.. وأنا أحلم به.. وفي كل وقت.. وفي كل مكان.. أشعر بأنفاسه الهادئة تهب إلى جانبي.. فيغمرني شـعور راحـة وهـدوء، واطمئنان مرهف جميل..

(هذا الشبح القديم ما زال ملازمي، شاخ الآن، ووهنـت بنيته، ولكنني ما زلت أستند إليه، ولعله الآن يتكئ علي أنـا، يلتمس السند).

" أسفي، ليس لي ثمة أمل...
إن قلبي لا يعرف السلام.. ولا الهدوء...
ولا تلك القناعة التـي يجـدها الحكـيم، فـي تأملاتـه الساكنة...
والتي تتوج نفسه بتاج من المجد رائع
تلك القناعة التي تكبر جميع الكنوز قيمة
ليس لي ثمة قوة. ولا شهوة.
لست أجد قلبا يحبني وأحبه
وحتى الفراغ الهادئ لست أعرفه.
أنني أرى من حولي يتمتعون بكل هذا.. ويدعون الحيـاة مسرة.. ولكنني تجرعت كأس الحياة.
كم أحس الآن.. بيـأس هـادئ وادع وداعـة الـريح.. والمياه.. الساكنة.
أنني استطيع الآن أن أضطجع كطفل متعب وأبكي حياة المتاعب والكلال
تلك الحياة التي تحملتها ويجب أن أتحملها
حتى يقبل إلى الموت كالنوم، يسترق خطاه..

وعندئذ أحس برد العدم يسرى في وجنتي، اللتين يهـب عليهما الهواء الدافئ..

وتترامي إلى مسمعي الواهن.. نغمات الموج الأخيرة.

تتردد فوق قلبي الذي يحتضر... في سكون ..

هذه الأنات.. تساقطت من قلب تعرفه.. أو قـد تكـون نسيته.. لست أدري.. نعم.. إنها صيحات الإنسانية الممزقـة.. في روح سماوية.. فان كان هذا ما يهتف بـه شـيلي.. فكـم بالحرى مخلوق مثلي.. له من شيلي أعصاب مريضة ممزقة.. وحساسية مرهفة.. ولا شيء غير ذلك؟.

(وهل بقى هذا الشبح الآخر ملازما لي أو جاثما فـي؟ هذا الشاعر القديم المنسى الذي أكرهه الآن؟).

إلى متى؟ إلى متي؟ ليس يدري أحد...

إنها لعنة..لعنة أبدية.. يا آله الرحمة..لو أن هناك.. لـو أن هناك رحمة.

هه.. من المحال أن يستمر المرء في كتابة مثـل هـذا الهذيان الفذ.. وإلا انفجر في مخي شريان..أو شيء من هـذا القبيل.

فهي تعرف.. أنني ذهبت إلى مسقط الملوك.. لأسأل عنك خصيصا..؟ ..

وأنني علمت انك تدرس الصحافة في الجامعة الأمريكية، وأن مدير الجامعة عندما علم أن سنك لا تعدو السابعة عشـرة أخذ يرقص من الفرح والعجب وكاد يحتضنك أمـام والـدك ويلثمك في وجنتيك لولا ..وقار العلم؟

هكذا فهمت على الأقل من والدك عندما أخذ يقص علـى في فخر الأبوة العجيب كيف ذهبت إلى الجامعـة الامريكيـة وكيف قبلت هناك. آمل – لست أدرى لماذا – على كل حال.. أن تجد الحياة شيئا لا بأس به في الجامعـة المـذكورة... وأن تجد مخلوقات بلهاء مثلي.. تحتال عليهم نفس الاحتيال غيـر الشريف الذي كنت بارعا فيه.. وإن كان هذا غير محتمـل.. كما أظن..

الواقع أنني أهنئك لأنك صادقت مخلوقا ابلـه معتوهـا مثلي... أهنئك من كل قلبي.. وأبدي لـك إعجـابي الشـديد بعبقريتك غير المنكورة.. ماذا؟ نعم أنني أبله معتوه سخيف لا ريب في ذلك، وإلا فلماذا مثلا أتكلف مصاريف السـفر مـن

الإسكندرية إلى صفط الملوك ذهابا وإيابا.. لأحادث والـدك المحترم دقيقتين اثنتين لا غير.. أعلم فيهما أنك ذهبـت إلـى الجامعة الأمريكية وأن المدير رقص أمامك؟!! لماذا؟!!

بلاهة.. لا شك فيها..

ثم.. هل يخطر في ذهن شخص عاقل أن يفكر بمثل هذه الطريقة؟ .. أن يفكر انه قد يكون أبله وهو لا يدري وكل هذا الهذيان؟ .. كلا إن العاقل لا يفكر هكذا مطلقا.. المجنون هـو الذي يشك في أنه مجنون.. أما العاقـل فـلا يعقـل إلا انـه عاقل..شيء مسل.. على أي الأحوال.

ولماذا أكتب إليك... رغم أنك لم تتنازل بـالرد.. فآخـذ مظهر من يترامي تحت أقدام سيادتكم.. ويرفع إلـى عرشـكم عينين مخضلتين بالدمع..ويتضرع في صوت مبحوح.. يطلب الرحمة والعطف؟ لماذا أكتب أشياء مثـل رسـائل العشـاق المهجورين, لا مؤاخذة، كما سوف – لا شك – تقول؟

لماذا أفعل هذا.. إذا لم أكن أبله.. لا أسـتطيع أن أقـدر النتائج.. روأضع الأمور في وضعها الصحيح.. وأن أحتـرم نفسي.. ولا أضايق غيري؟

ولماذا أظل مستيقظا حتى الآن.. الساعة الثانية صباحا.. أسود الصفحات الطوال بالهراء والهذيان.. الذي قد يضيع.. أو هو ضائع هباء..

ولماذا أقلب في خطاباتك.. ثم اتمتم بعدة لعنات بصـوت منخفض كمن يخشى أن يسمعه أحد.. رغم السكون السائد.. ثم أضحك بعد ذلك ضحكة خافتة تماما كبعض المجانين؟

ولماذا مثلا تطن في رأسي نحلة شريرة.. فأجمع كميـة من الأوراق التي قضيت فيها الليالي الطـوال.. أضـع فيهـا روحي وقلبي وفكري.. ثـم أضـع هـذه الأوراق.. أشـعار وقصص والسخافات التي تعرفها.. أضعها في علبة صـفيح.. ثم اطفئ النور.. وأوقد في الورق النار.. فترمى بضوء مشـع عجيب.. في الغرفة المغلقة المظلمـة.. ثـم تتطـاول ألسـنة اللهب.. وتأخذ ألوانا متمازجة عجيبة.. وتخفت لتأخـذ لونـا أزرق شاحبا.. وتموت.. كل ذلك وأنا أحدق فيهـا.. وأبتسـم لها.. تماما كالبلهاء.. ثم أقوم لأرمي بقايا الرماد الأسود مـن النافذة.. وأنا لا أحس بأي شيء.. إلا بجمود غريب متحجر.. نحو هذه الأشياء العزيزة المحبوبة؟

والآن... هل اقتنعت تماما بأنني أبله.. أم تريد أن أمضى في الاقناع؟ طبعا اقتنعت.. اقتنعت.. لا شك انك تصرخ انك اقتنعت لكي أخلصك أخيرا من كل هذا العناء...

كل ذلك... رغم أنك لا شأن لك بالموضوع كله.. إنما هو أبله يكتب إلى نفسه.. لكي يقنع نفسه – لا أنت – أنه حقيقة أبله... !!

(طبعا لم تكن " علبة صفيح " بل كانت كروانة طبيخ، لكن ماذا تفعل في حواذ التوشية الرومانتيكية؟)

أنت الآن تقطن ١٣ حبيب جلبي.. وأمامكم الفتاتان الشاميتان.. إميلي وايفيت، كما أعتقد، أم لعلهما انتقلتا وتركتا الوحشة والظلام في الشارع...؟ .. هه.. ليس لي أن أعرف جواب هذا السؤال قط..

لأنني لن أتسلم منك خطابا بعد الآن

أليس هذا شيئا دراماتيكيا مؤثرا؟

"... إن بعض الدموع تجول في عيني.. ولكني أسرع بتجفيفها في وحشية غريبة... "

كان هذا كلامك، في وقت من الأوقات..

وأخيرا إذا كنت قد عبرت هـذا الخطـاب بسـلام.. و وصلت إلى هنا.. فإنني أحب أن أشـكرك.. شـكرا عميقـا.. جزيلا..

نعم شكرا عميقا.. جزيلا...

هل تعرف أن بعض الكلمات تئن.. وتصرخ.. تحت ثقل ما تحمل من المعاني؟

في النهاية تقبل تحياتي.. وإخلاصي الأبدي.. وشـوقي البالغ الحار.. وآه.. على فكرة.. تحياتي إلى جانيـت وأسـفى لتهدف أحلامها في " غرفتي الهادئة التي تقع في ركن وكركما الجميل ".. نعم، أليست الحياة، كلها تقريبا أحلاما كوازيمودية مبعثرة؟

(........)

(لماذا – وما معني – هذه الدموع النزرة التـي تمـلأ عيني، بعد أكثر من نصف قرن؟ ياه! لا أصدق طبعا، لكن هذا الطفل الصبي النزق الغارق في الرومانتيكية، ما زال هنا، يـا سلام !)

" الجامعة الأمريكية بالقاهرة "

قسم الصحافة

عزيزي..

أو لم يعد لي الحق في أن أدعوك بعزيـزي... بعـد أن صرت أنا لا عزيزا ولا صـديقا!؟ مـاذا حـدث لعقلـك يـا صديقي.. هل أصبت بخبل من جـراء مصـاحبتك الطويلـة لسامي وجورج وأمثالهما؟

لقد بدأت خطابك الأخير بكلمة " سـخرية!"... نعـم... سخرية! ولكني لست أدري أمنك أم مني أنا؟ .. اية سخرية يا صديقي! أية سخرية في أن أموت سريعا هكذا. وأدفن. ويركع صديقي – أو من كان صديقي – الوحيد.. على العشب يبكيني فيدعوني خادعا. نصابا زائفا. محتالا !

يا إلهي !... ماذا تقول جانيت إذا عرفت كل هذا عنـي وتبين لها أنها مخدوعة، تحب شخصا يتحلي بهذا العقـد مـن الصفات.. لا تخالني غاضبا يا صديقي.. أو حتى متألما.. فأنا أعلم أي شيطان دفعك إلى كتابة هذه الكلمات، وأعلم بأي روح كتبتها.. ولكنك تظلمني يا صديقي.. تظلمني ظلمـا غريبـا..

كنت آخر من يتوقع أن يصدر عن شخص هو أنت.. اسمع يا صديقي.. وصدق أو لا تصدق...

عندما خرجت أنت في ذاك الأصيل المشئوم.. وتركتني بتلك الصورة الغريبة التي لم أعتدها منـك.. غضـبت أنـا.. وشعرت بسخط عنيف عليك.. وعلى نفسي.

قد أكون أنا المخطئ.. والمسيء.. في ذلك اليوم.. نعم.. قد تكون هذه هي الحقيقة.. ولكنك تعلم أن الحقيقـة لا تعنـي شيئا في مثل هذه الأحوال.. فقد شعرت أنا حينذاك بأنك أنـت المخطئ.. وتسطير هذا الشعور على.. حتى خلت حقا بأنـك أنت المسيء وحدك.. وأنا الضحية البريئة لإساءتك.. فرحـت انتظر يوما بعد يوم. بأمل أن يصلني منك خطاب ينهـي كـل هذه السخافة أو قل الدراما المضحكة! ولكنك لم تكتب. ويظهر أنك رحت تنتظر مني خطابا كما كنت انتظر منك.

وانتقلت من صفط الملوك إلى مصر – وظهرت النتيجة. ونجحت. فتوقعت أن يأتني منك خطاب بهذه المناسبة التافهة. ولكن. لا شي. وتألمت أنا وعددت الأمر كله indifference منك....

وبعد أسابيع.. أو شهور.. وصلني خطاب منك.. محولا من صفط الملوك.. ولست أحاول هنا أن أقول لك بأي شـعور تلقيت هذا الخطاب، في شيء يشبه الكبرياء، أو الغيظ، يمنعني من ذلك، ولكن الذي حدث هو أنني كتبت لـك الـرد – بعـد بضعة أيام – على الآلة الكاتبة، وكان خطابا سخيفا على مـا اذكر.. وستفهم معني هذه الكلمة إذا وصلت إلى نهاية خطابي هذا.

ورحت انتظر ردك على الجامعة، لأني أخبرتـك فـي الخطاب (أنه يستحسن أن تكتب الـرد عليهـا، وأن يكـون العنوان بالإنجليزية لأنني في ذلك الوقت كنت أفكر في ترك (١٣ شارع حبيب جلبي) والإقامة بالجامعة ذاتها.

ومرت أيام طويلة وأنا انتظر ردك فلم يصلني، ورحـت أفكر في كتابة خطاب آخر لك، ولكن حدث عندئذ ما منعنـي من ذلك، إذ جاءت جانيت إلى الزقازيق، وأنت تعلم ما حـدث طبعا، فقد طرت إلى هناك حيث بقيت أكثر من ١٣ يوما عدت بعدها إلى مصر – (أعني إلى الجامعة لأنني منذ ذلك الوقت تركت منزل خالتي بحبيب جلبي)....

وحدث أن ذهبت أول أمس إلى منزل خالتي.... فقـالوا لي أنه جاء خطاب منك، وتلهفـت كـالمجنون إلـى قـراءة الخطاب، ولكن من استلمه منهم كان قد وضعه في مكان نسى موضعه فيما بعد، فأخذ يبحث عنه أكثر من عشر دقائق إلـى أن وجده، وكنت أنا في خلال هذه المدة على حال من القلـق والتلهف كادت تسبب عراكا بيني وبينه.

وأخذت الخطاب وأسرعت بالنزول كي اقرأه في الترام.. لعلك تذكر حالتي يوم أن وصلني أول خطاب من جانيت، لقـد كنت ساعة مجيء خطابك الأخير، في حالة تقرب مـن هـذه لهفة وسعادة وفتحت الخطاب فطالعتني، " سحرية " !!

لست بحاجة إلى أن أشرح لك أكثر من ذلك يا صـديقي أو قل أنا لا أستطيع، لأنني أشعر بضيق شديد عندما أطيل في كتابة مثل هذه الأشياء...

هذه هي القصة برمتا..

لست أدري إذا كنت ستصدقها أم لا ولكن هي الحقيقة يا صديقي، وكثيرا ما تكون الحقيقة في مثل هذه الأحوال أبسـط مما يتصور الإنسان.. أو قل أبسط من أن تخطر على باله.

ولكن ! العجيب الذي يضحكني في هذه المأساة كلها، أو قل السبب الذي جعلني أتقبل معاملتك بهدوء دون ألم أو غضب كثير.

وهو أنني كثيرا ما عاملت جاني مثل هذه المعاملة، لأتفه الأسباب لأسباب كنت أذهل فيما بعد عندما أكتشف كم كنـت مخطئا في تصورها، بعيدا عن الحقيقة بعدا شاسعا.

نعم.. كثيرا ما كنت أظلمها – وأقول كنت لأنني تخليـت أخيرا عن هذه العادة المقيتة - كما ظلمتني أنت، وكنت أقسو عليها قسوة كانت تقابلها بالدموع والاستسلام، وهأنـت الآن، كأنما تنتقم لها – تعاملني المعاملة ذاتها... فأحس تمامـا كـم كنت مجنونا.. سخيفا.. مخدوعا.. في كل ما سببته لها من آلام ! ولننته الآن من كل هذا.. إذا شئت أنت أن تنهي هذه المسألة السخيفة.

... والآن يا صديقي.. هناك بعض أشياء في خطابك أود أن أنبهك إليها، كتابـك الفرنسـاوي – la Maison de la mort certaine مع جاني، وقد طلبت إليها بنفسك أن تكتـب

لك فيه الكلمات الصعبة، وقد قاربت الانتهاء من قراءته كمـا أظن وفعلت كما طلبت أنت منها وسترسله لك قريبا.

أما عن الشيء الآخر، الذي تزيح عنه كلمـة " Simply Dev " الستار في ضحكة مستهترة، وتلقى عليه ضوءا غادرا فاجرا فلست أدرى ما هو.

وإذا كنت تعني ولعي بالكذب، فهذا الشيء لا أنكره، بل أنا دائم التفاخر به، ولعلك تذكر أن صداقتنا كلها قامت علـى أساس ذلك اليوم الذي أخبرتك فيه " أنني مـن العبـاقرة فـي الكذب والأختلاق ".

لقد أحببتني حينذاك لأني أخبرتك بأنني كـذاب، ولسـت أفهم لماذا تحتقرني اليوم لا لشيء إلا لأنني، كذاب.. هذا هـو كل شيء يا صديقي..

ويخيل إلى الآن أنني خلصت كتفي من حمل ثقيل، هـو تلك الأشياء العجيبة التي صببتها على دون حساب !.. إننـي برئ من كل ما تنسبه إلي، وهذا يشعرني بأنني أفضـل منـك كثيرا، من هذه الناحية على الأقل.

نعم... أنني برئ يا صديقي – أما إذا شـئت أن تعتقـد وتؤمن بغير ذلك فهذا شأنك وحدك، ولك أن تعيد إلى خطـابي هذا، دون أن تكلف نفسك عناء كتابة خطاب آخر مـن عينـة خطابك الأخير.

انك قاس يا صديقي. قاس إلي حد عجيب علـي وعلـي نفسك انني تعس يا صديقي لا أستحق إلا عطفك.. وحبك، بدلا من احتقارك وكراهيتك.

آه لو تعرف أية حياة أحياها الآن يا صـديقي القاسـي؟ ولكن لا... إن الكبرياء اللعينة تمنعني من أن أقول شيئاً أو قل هو احترامي لهذه الآلام هو الذي يمنعني من ذكرها لئلا تظنها وسيلة وضيعة، أستدر بها عطفك وأستعيد بها حبـك، أو قـل صداقتك التي شئت أن تميتها وتدفنها في قبرى الـذي زرتـه مبكرا !

.. هل تذكر " أوسوالد الفينج " ذلك الفنان الـذي خلقـه إبسن في مسرحيته " الأشباح " وشاء أن يصيبه (بدويان العقل) هل تذكر حال ذلك الفنان التعس؟ إنها حالى تماما يا صديقي، مع فرق واحد بسيط، هو أن عقلى باق كما هـو – والعجيـب

أنني لم أجن إلى اليوم ! ولكن (روحي) هي التي ذابت يـا صديقي، نفسي، احساساتي، مشاعري أحلامي، كل هذا يخيـل إلى انه ذاب ومات وتركني متثلجا باردا لا أستطيع أن أحـس شيئا.

تصور أي هول يكمن في هذه الكلمات يا صـديقي !.. إنسان لا يستطيع أن يحس لا يستطيع.. أن يكون ما كان يوما ما كتلة متقدة من العواطف والأحلام والأحاسيس.

إن الجو المخيف الذي أعيش فيه قد قتلني، وسأجن يوما، أو أنتحر إذا وجدت الشجاعة لذلك.

ولكن لا، مالك وهذا يا صديقي.. مالك وهراء نصـاب، محتال قضى عامين طويلين يكذب عليك ويحتال عليك احتيالا غير شريف.

يا إلهي... ! ما أقساك على نفسك ونفسي معا.

أتعد كل ما مضى بيننا خداعا، ونصبا؟؟ انك جننت يـا صديقي! أكانت تلك الأيام التي قضيناها معا خداعا؟ أكانت تلك الساعات الالهية التي تعانقت فيها روحي بروحك نصبا؟ أكانت تلك الساعات التي قضيتها معك أنت وجانيت كلها زيفا ورياء؟

أكان كل ما مر بيننا خداعا متصلا دائما؟

رباه إنني مجنون إذن! لقد كانت حياتي خـلال العـامين الماضيين تنصب في شخص واحد هو أنت، لقد كنت أنت كل حياتي خلال هـذين العـامين، أفكانـت هـذه الحيـاة كلهـا نصبا؟وخداعا مستورا أزيح عنه الستار أخيرا فـي ضـحكة غادرة فاجرة؟

إن شهرا أو شهرين قضيتهما بعيدا عنك، قـد صـيراني إلى ما أنا فيه الان من موت واختناق وهول دائم... ومع ذلك فكل هذا خداع ورياء.

ولم لا؟ أليست الحياة ذاتها خدعة كبيرة، رنانة، جوفاء؟

معذرة يا صديقي إذا كنت لا أستطيع أن أكتب اك أكثـر من ذلك فلم يعد لي أقل صبر على الكتابـة، والملـل يقتلنـي لمجرد إمساك القلم، أو قراءة كتاب.

أكتب إلى إذا شئت.. أنني انتظر.

وفيق

يا صديقي، هأنذا أكتب إليك، بعد مرور أكثر من خمسين عاما، فهل ما زلت تنتظر؟

أم أن كل شيء قد فات أوانه؟

غريب أنني أذكر ذلك كله في مساء ١٦ نوفمبر ١٩٩٣، فقط بفارق إحدى وخمسين سنة وستة أيام، إذا صحت الحسبة.

أذكر.. أهذه مما يدخل في باب الـذكرى؟ أم أنهـا بـلا زمن، كما أهوى أن أقول.

هل أعترف لنفسي إنني كأنما كتبت هذا الخطاب بالأمس فقط، أنني أكتبه الآن، أنني سأكتبه ربما بعد ستة أيام؟ ربما مع تعديل طفيف في النبرة، لا غير، ربما بتخفيـف قليـل مـن الصرخة، يمكن، لكن الصرخة هي هي.

هل أسخر من نفسي – قليلا – لأنني كتبت، أو سـأكتب هذا الخطاب أم أنني اشفق على نفسي قليلا؟

لا أرثى لنفسي ولا أنكرها.

" الفؤاد صعبان عليه.. " فقط.

صخور الأشياء – وما في داخلها – حادة السنان، ماثلـة الآن بقوة. ليست ذكريات – كما لا أني أعيد وأزيد – بل هي بكر، حارة الحضور، لم تتثلم فيها حافة واحدة لم يخفـت لهـا وقيد.

أقول لنفسي " بهدوء " – و " بصراحة " أيضا: يا سـلام يا أخي.. ! لا ينقصك إلا عزف كمان حزين وأشجان القمـر الطري المسكوب.

وأقول لنفسي: لا.. لا.. حرام.. ليس ذلك بصحيح.

كيف كنت أحمل ذلك كلـه – كأنمـا نسـيته – إلـى اجتماعات الحلقة التروتسكية، في شقة عبد القـادر نصـر ا وعبد الرؤوف نصر ا ، شارع عباس، محرم بيه, بعد ذلـك بثلاث سنوات فقط.

كان فتوح القفاص، بطبيعة الحال، يـأتي متـأخرا عـن الميعاد، يضرب بكل " قواعد الأمان " عرض الحائط – كمـا يقال – ويدخل وهو يحمل الكتب والصحف الثورية الماركسية والفوضوية، بالإنجليزي، جهارا نهارا، ثم يقتحم النقـاش – أو مجرد استعراض الأحـوال وتقـارير التطـورات، المحايـدة الإخبارية – بجدل عال وسرف في الحماسة، مـن غيـر داع إطلاقا، يقاطع ويشتم " يا حيوان ! " ويعلن، من غير مناسـبة، ثورته على ماركس المستبد برأيه الدوجماطيقي القـاطع فـي حتميته، ويدين لينين، ويؤيد تروتسكي، ثـم يؤكـد انحيـازه

لباكونين وكربوتكين وللفوضوية التي تنتفي فيها كـل قطعيـة وكل سلطة فوقية، هكذا، كله على بعضه، وبينما نحـن نـتكلم ببساطة عن تنظيم مظاهرة أو كتابة بيان نطالب فيه بتأميم قناة السويس أو نؤيد فيه اضرابا لعمال مصنع بولفارا، كان يشطح بنا نحو سماوات النظريات العلى، ويهيم في كل واد مع أفكار مجردة ومغوية، والرذاذ من فمه الواسع يتناثر دون تورع ولا حرج.

ومع ذلك لم يعتقل فتوح القفاص قط، مع أننا جميعـا – تقريبا – قد اعتقلنا أو حبسنا فترات تطول أو تقصر، باستثناء كامل الصاوى أيضا الذي احترق بـه سـريره وهـو يـدخن سيجارة، بعد ذلك بسنة أو سنتين.

عندما خرجت من معتقل أبو قير كانت الحلقة التروتسكية قد انفضت وبادت وأمست أضغاث ذكريات، وكان فتوح رفيقا دائما أو شبه دائم على طول فترة صـعلكة ويـأس وتخـبط، وبحث مستميت عن لقمة عيش، فتوح يعهـد إلـي بترجمـة براءات الاختراع – ميكانيكية وكيماويـة وهندسـية معقـدة وتكنيكية جدا – للمكتب الذي كان يعمـل بـه الآن، ويملكـه

ماجري أوفرند اليهودي المالطي الاسكندراني، أكرش، أجـش الصوت، طيب القلب الذي هاجر إلى استراليا بعد الثورة.

وعندما كان اليأس والسأم وعنف الضيق يطفح بى، فـي اية ساعة من النهار أو الليل تقريبا، لم أكن أعدم أن أجد فتوح في مكتب براءات الاختـراع فـي محطـة الرمـل، أو فـي الفريسكادور – قهوتنا المأثورة التي حل محلهـا الآن " عمـر أفندي " في شارع سعد زغلول – أو حتى في قهوة الأشباح في الخندق – الممر الضيق المعتم تحت سـفح عمـارة أوريكـو الشاهقة. ومنه عرفت كيف أدخن السجاير الإنجليزية الفاخرة: كرافن ايه، بول مول، أو بلايرز في علب معدنية رقيقة أنيقـة مسطحة. كل علبة بخمسين سيجارة، ومعه، ومع أحمد قنـديل الرسام الذي أحبه، ومع رضوان الفقاص، أخيه الـذي كـان يدرس الفلسفة في كلية الآداب، وأنطوان – أخ أوديت – الذي كان يعمل عندئذ في " الميساجيري ماريتيم " كنا نـذهب إلـى سينما مترو، من تلاته لستة، ومعنا زجاجة ويسكى بلاك آنـد وايت مبططة، وقدحين أم الخلول في قرطاس ورق متين، وفي عتمة الظلال والأضواء المتناوبة، وبهدوء وحرص وكياسـة،

دون صوت تقريبا، وبينما الصور وأحلام هوليـود الجـاهزة المعلبة تتخايل على الشاشة، تترى، نفتح أم الخلول ونمـتص الهلام الطري الذي يحتفظ به كنه بملح البحر – وكأنه يحـتفظ في سر لحمه الحريف بموجه المكتوم، ونمرر زجاجة الويسكى نترشف منها حسوة بعد حسوة، جافة قراحا، ولم تكن السجاير ممنوعة حينئذ ولا كان أحد سمع بأنها ضارة جـدا بالصـحة، وكان طعم الكرافن أبيه بأم الخلول والبلاك آند وايت له مذاهق ونكهة خاصة جدا، وكان طعم اليأس من كل شيء هو طعـم استماتة اللذة المندثرة بمجرد سنوحها.

وعلى أن يده كان مفاوتة العيار، أو بسبب من ذلك، كان فتوح أحيانا يبحث في جيوبه فلا يجد مليما واحدا – والمليم هنا ليس استعارة بل حقيقة لها وزنها، المليم الأحمر الكبير – مثل ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى " لورانتوس " بعد جولة مرهقـة في شوارع الإسكندرية.

كنت قد خرجت من عملي (الذي ادعيت انه في المتحف اليوناني الروماني مرة، أو في شركة باتينيول مرة أخرى، ولم يكن بهذا ولا ذاك) بعد الظهر. كان ذلك يوم الأربعاء – وكنا

في أواخر الصيف، وكنت محبطا ويائسا وشديد الشـقاء مـن الداخل، لأن نعمتي حبيبتي لم تكن قد اتجهت إلى لا بتحية ولا حتى بابتسامة من بعيد، بل كان في نظرتها ما تصورته انكارا أو مجافاة نهائية، ولففت على المظـان المعتـادة: أتينيـوس والتريانون والفريسكادور وديليس وقهوة الأشباح وكازابلانكـا وعلى كيفك، فلم أجد أحدا.

قدماى ثقيلتان وقلبي ثقيل وأنا أدخل لورانتوس وأعبـر إلى الحديقة المفتوحة. الدنيا حر ورائحة الجيجـو والجـامبون والمكرونة بالفرن تحمل إلى عبقا مغويا ومنفرا قليلا، وفكرت أنني لم آكل من الصبح وأنني مع ذلك غير جوعان، و وجدتهم جميعا، بشلة المعلم، حول مائدة كبيرة مستديرة مفروشة عليها زجاجات البيرة، والنبيذ الأحمر، مفتوحة، والأكـواب نصـف ملآنة نصف فارغة، والمزات في أطباق صغيرة من الصـيني الأصلي الملون بنقوش، قطع الكرشة الحمراء، خشنة متعرجة الجلد وطرية المرأى، والترمس الأصـفر بحباتـه البهيجـة، شرائح الخيار، والطماطم ندية، ورقـائق الجـامبون لا تكـاد شفافيتها تتضرج بحمرة خافتة شهية، وغيرها من خيرات ا .

كانت أرضية جنينة لورانتوس مبلطة ببلاطات بيضاء كبيرة، وبينها ممرات من الحصباء معشوشبة عليها حصى كبير له خشخشة تحت أقدامنا وأضواء كرات المصابيح الزرقاء على أعمدة رفيعة، متناثرة على الموائد الهادئة، وشجيرات حسنة التقليم لها كتل مربعة من الأغصان قوية الخضرة تظللنا، وكان هواء سبتمبر ناعما.

أليست صورة ناعمة، حتى لو لم تكن صحيحة، فهي قائمة، وحية، أهي أيضا لا تعرف الزمن؟

كان هناك رضوان القفاص، وأنطوان، وفوزي، وأحمد قنديل، وطبعا فتوح القفاص الذي دهشت لأنه كان صامتا، لا يفح ولا يلعلع، يصغى إلى أخيه رضوان الغارق في شرح قضية الفمنولوجيا وكيفية انحدارها من هيجل، وكان واضحا أنهم لا يسمعون له إلا بنصف أذن فقد كان تكنيكيا جدا في مصطلحاته التي لقنها حديثا في الكلية على يدي يوسف كرم ونجيب بلدي وكازنيف.

عندما شربت – وأسرفت – انقلب النبيذ على كما كان يحدث دائما وأنا مضطرب الحس ومضطرب القلب، فذهبت

أفرغه في التواليت الضيقة اللامعة من النظافة، وعدت أحـس رعشة خفيفة في جسمي وركبتي مخلخلتين قليلا وأعـرف أن الدم قد انساب من وجهي، ولم أصغ كثيـرا لتعليقـات فتـوح الفلسفية الانفعالية، وهتافه بأخيه: "يـا حيـوان ! اسـمع.. وافهم.. !" إذ يحاول أن يثبت – بصوت عال – أن الفمنولوجيا عرفها أبو حيان التوحيدي قبل أن يعرفهـا هوسـرل. كانـت غرارة قلوبنا حارة.

جاءت لحظة الانصراف بعد منتصف الليل بقليل، علـى غير رضى منا، ولكن مواعيد الإغلاق، في زمـن الحـرب، تحكم.

حسبها رضوان القفاص بسرعة في ذهنـه، ووجـد أن الحساب يبلغ ٣٦ قرشا وسبعة مليمات، علـى وجـه الدقـة، واتضح انه لم يكن مع فتوح ولا مليم، ونفضنا جيوبنـا حتـى آخر مليم – كان في جيبي بالفعل شلن وثلاثة مليمات، وجمعنا على الترابيزة، بين أنقاض المزة والأكواب الفارغـة، كومـة صغيرة من القروش والملاليم هي قيمـة الحسـاب بالضـبط وبالتحديد النهائي الدقيق.

جاء ستيليو، الجرسون الجريجي الطويل، منحنى الظهر قليلا، أنفه أقنى وخطوط وجهه حادة، فـي البدلـة السـوداء السموكنج والبابيون الأسود على قميص ابيض زى الفل، ينظر بعينيه النافذتين الغائرتين إلى كومة الفلوس علـى الترابيـزة، لمها، عدها، أعاد عد القروش والملاليم الحمراء الكبيرة، مرة، ومرتين، فقال له رضوان: " مظبوط يا خواجا؟ " قال ستيليو، صوته مشروخ وعال وهو يخبط يدأ بيد " مظبوط جوى... ولا بكشيش.. ولا حاجة عشان ستيليو.. مظبوط ". واستدار وذهب وهو يتمتم لنفسه: " مضبوط يا حبيبي... مظبوط ! ".

أين كان وفيق بسطوروس راقم في هذه الحكايات؟ لماذا لم يكن له هنا.. أي حضور؟ هل كانت له شلته الأخرى، ومنها فوزى وأحمد صبرى وإيهاب ونسـوانهم، وهـل كانـت لـه اهتمامات أخرى؟ لم أكن بالكاد، أراه في تلك الأيام، أظنه لـم يكن يحب فتوح القفاص، أو لم يكن يرتاح له، على الأقل.

وكانت قصة أوديت وفتوح القفاص معروفة لنا جميعـا، ومقبولة، بل نجد فيها شيئا من الطرافة والانعاش والروح عن النفس.

ولعل أوديت كانت تكبرنا بسنوات قلائل، يمكن سنتين أو ثلاثة لا أكثر، وكان في وجهها خطـوط المعرفـة والخبـرة المكبوتة التي لم تكتمل.

وكانا يتواعدان، أحيانا، في الفريسكادور.

تأتي، أنيقة، محكمة الجسم، ورشيقة، على عينيها نظارة نظر حريمي مذهبة الإطار، يداها في قفازين أسودين من الجلد الغالي، حذاؤها بكعبه العالي يرن بموسيقيه متزنة فيها رصانة وفيها لمحة نزق على بلاط الفريسكادور الذي كانت مقاعـده على شكل مقاعد الترام أو القطار، متقابلـة وثابتـة ومنجـدة ومكسوة بالجلد الصناعي المريح.

كانا يشربان، معنا أو وحدهما، فنجان الكابوتشينو الـذي اشتهرت جودته ونكهته الطيبة، وعلى رغوته المزبدة مسحوق القرفة أو الشيكولاته الناعم الذي يكسبه في الفم طعما فريدا، أو يأخذان كأسا سريعا من المارتيني الجاف، ثم يذهبان وحـدهما إلى السينما مثلا أو التريانون أو المونسينيور لعشاء حميم ولا بد أن يكون فخيما.

ومع ذلك، أو بعد ذلك بقليـل، كنـت أواعـد أوديـت، صديقين، نلتقي في سكارابيه في ستانلي بيه، أو في سينما فؤاد لفيلم فرنسي من أفلام جان كوكتو، جان مارييه، رأيت معهـا "أورفيوس " و " تحت سماء باريس "، وكنت أمسك بيدها فقط، أحيانا في عتمة السينما الأنيسة، لم أقبلها قـط – مـثلا – لـم أعرف طعم شفتيها.

ذلك بينما كنت أخوض غمرات حـب يـائس يزلزلنـي ويبعث في نشوات وعذابات، وربما نشوات العذبات كـذلك، لنعمتي النضرة الحيية منعشة الصبا صغيرة القد.

وبالتالي لم تكن هناك بيني وبين فتوح القفاص لا منافسة ولا غيرة ولا تقاتل، كان مفهوما – على الأقل عندي – أن ما بيني وبين أوديت صداقة لا أكثر، فهل كان هذا مفهوما عندها؟ وهل كان مفهوما أن ما بينها وبين فتوح القفاص كان صـداقة غرامية، أم كان غراما، أو أكثر؟

ربما.

وكانت أوديت تأتي للفريسكادور أحيانا مع آرليت، أختها الطويلة التي لا أذكر منها إلا شعرها المنسدل الغزير ووجهـا

بيضاويا واسع الفم وقواما فارعا وشهويا، على عكس أختها التي كانت منمنمة الجسم ،" مثقفة " المظهر.

هل كان في زواج فتوح بآمال الحادة القاطعة، مغربية الأصل، وفي حبي لنعمتي، كلانا، في الوقت نفسه، خيانة مضمرة – أو سافرة – لأوديت؟

ربما.

بل كنت في ذات الآن، أواعد جارتنا في الشقة التي تحت، في راغب باشا، كانت تترصد نزولي للشغل في الصبح بدري وتخرج من باب شقتها في قميص نومها قاني الاحمرار، ضيقا يحبك بطنها وأعلى فخذيها، وذراعاها عاريتان وبضتان، كأنهما فخذان، تتفجران بلحم شهوي. ولعلني الآن نسيت اسمها، كانت ممتلئة بجسمها، ومحتشدة بل محشوة بغرامها الرومانتيكي الحسى معا، وكنت أذهب بها إلى سينما لاجيتيه في الإبراهيمية أو إلى جنينة البتي تريانون في آخر شارع سعد زغلول، بعيدا عن الأنظار، فهل كان في هذه المواعدات المغامرات ما يشبه الثأر أو الانتقام، مم، ممن؟ أم جرفتني إليها نوبات يأس واستهتار بقيم كنت قد خذلتها أو خذلتني؟

ما الخيانة، وأين الأثم؟ وهل هي هناك، هـل بـادت؟ أم أنها باقية، لا تريم؟

سماء الإسكندرية، صافية الزرقة، كانت تطفـو تحتهـا ببطء سحابات بيضاء خفيفة لا وزن لها كأنها لا تتحرك علـى سطح بيت في شارع الاسكندراني الأعمدة الرخامية الكورنثية تتناوب في صفوف طويلة مع أعمـدة الجرانيـت الحمـراء المشرجة بشرايين سوداء متشعبة غارقة قواعدها في مويجات البحر المخضرة والنقوش الهيروغليفية تقول لها بالخط المقدس أسرارا لا تقص تحكي عن أمجاد غابرة ولكن ثابتة إلى الأبـد في قلب الحجر المدور المصقول كـم مـن الأيـدي الحانيـة الخاشعة نعمته والكتابات القبطية موجات مزهرة بالأغصـان المعرشة ومثقلة بعناقيد العنب ومزامير بان وداود معا زرقـة الكوبالت الفرعوني بين اللازوردي والكحلي العميق تضـيئها نجوم هندسية تومض بالطزاجة كأنها في أول يوم للخليقة وهي في كن الأعمدة تحت سقف السيرابيوم الساجي بحر سـماوي ساكن السطح محبوس في السماك العالـى لا ينسـكب موجـه المرصود كأنما تجيش في دخيلتها قدسية غير معلنة وإذا هـي

تنضو ملابسها في الحرم المكنون وفي نور ينبجس من قلبهـا من هيكل مكرس إلى الأبد من عين واحدة نفاذة سيكلوبية تخلع الفستان الخفيف أولا ثم تخطو قدماها وتنوس ساقاها في بداية رقصة صامتة النغم لا يسمع جرس موسيقاها إلاها نايرة نيرة بنجوى كونية ثم تميط عنها السوتيان ويتحرر ثدياها الصغيران تحت أعين أسماء الآلهة المحفورة في الجرانيـت الاسـوانلي المصمت بدمائه السخنة وفي رخام كـرارا الناصـع بلدونتـه الملساء، وفي عمق الجسم المبذول وإذا هي الآن عارية تماما تنسل بين رموز القداسة منسابة في رقصها رمزا آخر لقداسة الجسد الأنثوى الذي انجسمت فيه جثمانيته وسـرائر دخائلـه المحرززة معا لم يعد, ثم حرص دنيوي بل سخاء كامل سرف العطاء، بلا ضن في موسيقي تموج الجسد الواحـد المتعـدد المتكرر بلا انتهاء المسفوح عن طواعية قربانا بلا حساب.

ضربات موج الصبا في " نوة المكنسة " على رصـيف ابيض يظل ساذج البراءة وناصع الحجر انهمار المطر الذي لا يغسل شيئا ولا يثبت شيئا ستارة مائية مزدوجة تطس الجدران العاتية التي لا تنهار وعصف الروح لا يقتلع نخيل الصـبوات

القديمة المورقة المثقلة بتمر خصيب يتخبط سعفه بحفيف أجش مضطرب النغم عذب وجارح الخشونة وهناك على البعد قلعة قايتباي التي لم ترمم بعد ولا وصول إليها أبدا عبر لجة السنين وهجمات بحر اللازمن.

لا وصول إليها؟

٥ – أمواج غائمة في السماء

كأنما القطار يخترق عاصفة رعدية، ونحن على وشـك الوصول إلى محطة سيدي جابر.

ومض البرق يشق الفضاء، منشعبا وخاطفا، يضئ ركام السحاب الأسود لحظة ثم ينطفئ لتجئ بعده جلجلة تهدم السماء في قعقعة متجاوبة الأصداء، جليلة، والقطار يقـاوم عصـف الريح وكأنما يصطدم بها وهو ينفذ في يحضنها المدوم.

وكأنما رامة بجانبي، كما كانت في ذلك القطار الذي كان يشق نفقا طويلا مظلما، وهي في حضني، رأسها إلى كتفـي، أسلمت نفسها إلى إغفاءة قصيرة، أحس جسمها الدفئ بـالحنو والاستسلام إلى جسمي.

وكأنما أقلب كتاب مذكراتها يومياتها، ليس فيه كلمـات، بل صور ملونة مرسومة بحذق ومسلم بها، مأخوذة كما هـي على علاتها.

متي رسمتها؟ وماذا تقول باللون والخط وتدوير الـنقش ورموزه مشتجرة متشابكة؟

ما لم تقل بالكلمات.

وكأنما اختفت من جانبي، بلا سؤال ولا غرابة.

خبت العاصفة، وانحسرت، والقطار يمضي الهـويني، يبطئ وهو يدخل المحطة، وليس في يدي إلا هذه الصور التي بهتت ألوانها، كتاب مذكراتها، لا يذكر شيئا عن الحب الباقي، هذا الحب الذي كانت تخشي عليه من الزوال بسطوة الـزمن، قالت " حبنا "، لكنه لم يزل، وما زالت مع ذلك للزمن سطوته. انتهى الأمر إذن، كأنما قلت لنفسي، بشيء من الحـزن فقـط، هذا الحب باق، لكنه بلا جدوى، ككل حب، ليس هنـاك فـي حسى تفجع ولا التياع ولا مضض، قليل من الحزن فقط.

دخل – في الحزن – بقامته الطويلة، أنيقا، ربطة عنـق بابيون سوداء لم أكن قد رأيته بها قط. من؟ دار في ذهن الحلم سؤالي: ماذا؟ ألم يمت؟ ألم يكن قد قتل؟

قالت لي إن الصحراء الممتدة الفسيحة البراح تسحرها، أن العراء المطلق تحت السماء يفتنهـا، لا أحـد، لا زرع ولا نبات معشوشب حتى، ولا شيء.. الرمل المتموج في وهـاده وكثبانه قليلة الارتفاع وسهوبه المبسوطة المـدحورة والهـواء النقي حتى ليكاد أن يكون جارح الصفاء، هذا هو ما تمـوت

فيه حبا، عندئذ، قالت لي: تشتهى أن تتعرى,أن تنضوعنها كل ماهو خارجى مقحم, كما تشتهى أن تسمو، وتصفو، وتخاص نقية بلا شائبة ولا وهـم عكـارة ولا كـدر، أمـام الرمـوز الهيروغليفية، تحت نجوم نوت المشعة حادة الخطوط في زرقة اللازورد العميق بلا قرار، قالت لي (مـن قالـت لـي؟): "رشوت خفير المعبد، بل تحببت إليه، حتى خـرج، وابتعـد، وخلوت إلى هيكلي وعبادتي، في عتمته الخفيفة بين الأعمـدة الجرانيتية المدورة التي تهمس إلى بألغاز الأبـد واللامـوت، خلوت إلى عرى جسدي أمام الأقداس، من غيـر رجـل ولا رغبة في رجل، بل هو خلوص ونقاء ".

قالت لي ما كانت قد قالته هي الأخرى، من التي قالت؟ هي أم هي الأخرى؟

كانت السماء غائمة والبحر مضطربا وأنفاسي متقطعـة من صدمة الهواء على الكورنيش وأنا أعبر الشارع المبلل من رذاذ كان قد أقلع من الصبح، ورشاش مـوج مـازال يطـس الصخر، تحت، ويعلو. يخبط الماء حافة الكورنيش ويتنـاثر، محبطا، فوق السور الحديدي الذي يلتمع.

وكان عبور الشارع خطرا وإن كانت السـيارات قليلـة لكن الأرض تحت قدمي زلقة.

عندما وصلت الرصيف وجدته فجأة أمامي.

بطرس طانيوس.

لكم أكن قد رأيته من سنوات، أخر مرة لقيته فيها كـان في قسم الإنجليزي فـي كليـة الآداب عنـدما انتقلـت إلـى المحمودية، وحييته تحية عابرة، ومضت بنا الأيام كـل فـي طريق.

لكنني الآن وأنا أسلم عليه، أمام باب البنايـة الجديـدة الشاهقة في جليم، كأننا تحت سفح صخرة هندسية ساقمة ولكن قميئة على نحو ما، غير مقنعة، وهو يسـلم بصـوته النحيـل الرفيع شيئا ما، صوت مدرس محترف فيه رنة معدنية طفيفة، تذكرت فجأة أول درس في أول يوم لي فـي مدرسـة النيـل الابتدائية التابعة للجمعية القبطية الكاثوليكية.

لا بد أن ذلك كان في ١٩٣٢.

جئت من روضة الكرمة القبطية الارثوذكسية، وقـالوا لي: هنا مكانك، كنا اثنين على التختة الأولانيـة، ولـم تكـن

الحصة قد بدأت وكنت خجلا وربما مرعوبا فلم أكن أعـرف أحد حولي - كنت طفلا في السادسة.

كان درج التختة أمامنا مشتركا، له غطاء واحـد كبيـر يرفع وينزل على قسمين يفصل بينهما حاجز خشبي، قسم لـي وقسم لزميلي الذي لاحظت على الفور أنه أشقر الشعر قلـيلا وإن كان أجعد، أبيض، ومدكوكا.

رفعت غطاء الدرج لأضع في "درجي " حمـل الكتـب الذي كان يربكني، فارتفع العطاء وكشف بذلك قسم زميلي من الدرج، لم أكن أعرف عن زميلي شيئا وترددت حتى أن أسأله ما اسمه؟ وعندما نزل الغطاء سقط فجأة من يدي على كشكول زميلي.. التوى الورق واعوج الكشكول وأحسست طبعا أننـي اقترفت جريمة.

هل كنت أرى في المدرس الذي أخذ رأسه صلع خفيف انحسر معه شعره الأكرت الفاتح، وعينيه المنتفختين قلـيلا، و وجهه الممتلئ المدور، ذلك الصبي الذي التفت إلـى بغضـب ومفاجأة، في أول استفتاح للسنة، وهتف بي: " مش تحاسب.... أنت أعمي ! "، ثم دخل مدرس الإنجليزي قيام وقمنا تعظـيم

سلام جلوس طلعوا كتاب الإنجليزي قولوا ورايا كات مـات، وكان ذلك مألوفا لي و أنيسا كنت قد حفظته في الروضة.

في الفسحة قال لي زملاء جدد أن الولد الذي كسرت له الكشكول هو ابن أخ ناظر المدرسة بذات نفسه، هـل كانـت البداية – مثل المسيرة كلها حتى النهاية الوشـيكة – خطـرة وزلقة ومنذرة، مهما كانت تافهة؟

لكننا أصبحنا أصدقاء وزملاء، افترقنـا فـي المرحلـة التالية فقد استمر بطرس طانيوس في مدرسة النيل الثانوية في غيط العنب، وذهبت أنا إلى العباسية الثانوية في محرم بيه، ثم عدنا فالتقينا في الجامعة وإن كان هو في الآداب، وأظن انـه كان قد نسى تماما حكاية الكشكول المعروج، وإن كنت أنا لـم أنسها – كيف يمكنني؟ - ولم أذكره بها، ولـو علـى سـبيل الضحك.

قبل أن تقام مدرسة النيل الثانوية كان محلهـا – عبـر شارع الكروم، في مقابل المدرسة الابتدائية – مبنى مـنخفض طويل خشبي السقف، كان كنيسة للأقباط الكاثوليك، المقاعـد الخشبية الجديدة الناعمة على صـفين، النوافـذ العاليـة ذات

الشراعات الزجاجية الملونة، عتمة خفيفـة، رهبـة الصـور والتماثيل القدسية الملونة البدائية علـى نحـو مـا، والهيكـل المنسدلة عليه ستارة قطيفة حمراء أرجوانية.

هل كانوا قد دعوا تلاميذ المدرسة الابتدائيـة لحضـور القداس، صباح الأحد، أم كانت تلك مناسبة خاصة؟

وذهبت، طبعا، مع أنني لم أكن كاثوليكيا.

ولا في أي وقت من الأوقات.

أم أن الذاكرة – أو الخيال – يلعبان بي؟

كان القسيس الصعيدي أسمر الوجه صاب الملامح يلبس الثوب هات الروماني الكاثوليكي، قبعة عالية مـدورة سـوداء تنتهي حافتها العلوية باتساع قليل، والثوب الأسود السابغ، عليه وشاح أبيض خفيف مشغول، ودهشت بل فوجئت قليلا، كـان ذلك على خلاف ما عرفته في كنيستنا الأرثوذكسـية، حيـث ملابس القسس بلدية، ويضعون على رؤوسهم عمـة سـوداء، وتنبهت إلى أن القداس والترانيم كانت تتلى باللاتينية فقـط، لا القبطية والعربية، لا بد أن الطقوس كلها في الثلاثينات الباكرة كانت وفق تقاليد كنيسة روما.

وعند تناول القربان فوجئت مرة أخرى بأنه كان أقراصا صغيرة، رقيقة مدورة، متساوية الحجم والكثافة والتدوير، قلت: " مصنوعة بالملكنات "، أما القربان جسد المسيح الحي الـذي أعرفه فكان قطع الخبز البلدي المخمر الملئ، لقمة تختلف عن لقمة، لكل منها جسدانيتها وكثافتها وحميميتها؟

لم أحضر قداسا كاثوليكيا قبطيا بعد ذلك قـط. أعـرف انهم الآن يتبعون الطقوس القبطية ويقولونه بالقبطية والعربية، لكني أحس دائما وربما عن خطأ – بلا شك عن خطأ – أنهـم ليسوا أبناء بلد، أن فيهم شبهة غربة عن الوطن الأم، أنهم تبع وليسوا الأصل، كما عندنا.

بعد سنين طويلة طويلة سوف اقرأ في " الأهرام " يـوم ٢٧ مايو ١٩٨١:

شكر وذكري الأربعين للمربي الكبير الأستاذ يني سـالم ناظر مدارس النيل بالإسكندرية سابقا تتقدم الأسـرة بخـالص الشكر للمتفضلين بمواساتها بالحضور والنشر والبرق وتخص بالشكر السيد رئيس الجمهورية ونائبه والسادة نـواب رئـيس الوزراء والوزراء ومحافظ الإسكندرية ورئيس أعضاء مجلس

الشعب ورجال التعليم وكلية الهندسة ومركز بحوث الهندسة الصحية وأسرة التأمين الأهلية والإسكندرية للزيوت والصابون وهيئة الطيران المدني وتفتيش ومدرسة أشرف الخوجة كما تخص بالشكر الجزيل غبطة البطريرك الكاردينال اسطفانوس الأول والاكليروس ورئيس وأعضاء الجمعية الخيرية القبطية الكاثوليكية وشعب الإسكندرية وسيقام قداس وجناز الأربعين على روحه الطاهرة الساعة العاشرة صباح الجمعة ٢٩ الجاري بكنيسة الكاثوليك ٢٩٨ شارع بورسعيد كليوباترا بالإسكندرية تلغرافيا عائلة المرحوم يني سالم بالإسكندرية.

وسوف أذكر الرجل الذي كان فارع الطول، ومهيبا، حنونا أيضا بشكل ما، هل كان بالفعل عم صديقي بطرس طانيوس، أم خاله، أم قريبا وثيقا، نسيبا للعائلة مثلا، ماذا يعنيني – أو يعنيكم – من التوثيق والتدقيق؟ أعرف فقط أنه كان على صلة قربى به، سوف أذكر كيف صعدت إليه سلالم الباب الجانبي الذي كان في شارع الكروم أمام مبنى الكنيسة الكاثوليكية الخشبية، سلالم مرهوبة لا يدخل منها إلا الناظر، والمدرسون أحيانا.

كان أبي يمسك بيدي ونحن نرقي الـدرجات الرخاميـة المحصورة بين حائطين من العتمة النظيفة الخافتة، ولأقـدامنا صدى خفيف على الرخام، سوف ندخل على حضرة الناظر – الأستاذ يني سالم – في غرفته التي كانت عندي، طوال سنوات أربعة، شبه حرم مقدس.

وسوف يقوم بنفسه، شامخا ودمثا ومحني الظهر قلـيلا، يخرج من وراء المكتب الأنيـق الصـغير المرتـب بخشـبه الموجني اللامع، ويسلم – باليد – على أبي، ويسلم علـى أنـا أيضا باليد، تلك من أسعد لحظات حيـاتي وأملأهـا بالإثـارة والانفعال، سوف يهنئ أبي لأن ابنه قد تخـرج بتفـوق مـن المدرسة الابتدائية، وكان ترتيبه مائة وثلاثة من بين اثني عشر ألفا وتسعمائة وتسعة وخمسين في القطر كله، في ١٩٣٧.

تلك من اللحظات التـي يحـس فيهـا أبـي بـالفخر، والاعتزاز.

سوف تعوضني تلك اللحظة عن يوم الصورة التذكارية للسنة الرابعة الابتدائية.

كان قميصي مفتوحا ولم أكن ألبس كرافتـة، كعـادتي عندئذ ولمدة طويلة وربما حتى الآن، وأرغمني مرقس افنـدي مدرس الإنجليزي الذي لم أكن أحبه علـى أن أذهـب للبيـت والبس كرافتة للتصوير، قال لي كلاما لا أذكر عنفه لكني أذكر أن عيني امتلأتا بالدموع لكن لم أبك، وأجد أن عينـي – فـي الصورة التي أحتفظ بها للآن – كانتا منتفختين من أثر دمـوع الحنق والغيظ والحس بالامتهان – التي لم تنسكب مـع ذلـك، على سبيل الكبرياء، وأجد أن ربطة الكرافتة كانت كبيرة وغير محكمة بالمرة على خلاف بعض زملاء الفصـل – الكبـار – الذين كانوا على سنجة عشرة، غاية في الأناقة والضبط.

كنت قد خرجت مع هؤلاء الزملاء " الكبار " إلى شارع فؤاد، والشلالات، في مظاهرة ترحب بالملك فاروق الذي لـم يكن يكبرهم كثيرا، ثم صعدنا إلى ربـوة الشـلالات – بعـد المظاهرة التي كان يحرسها بلوك النظام بعصـيهم القصـيرة الكاكي والشورت الطويل لغاية الركبة والألشين الملفوف على الساقين، في شاحناتهم الفورد مربعة الخطم... فهل كان معنـا بطرس طانيوس؟ لا أذكر، ولا أظن، بل كان معنا، لا شك.

ولما كنت قد تأخرت في العودة للبيـت عـن الميعـاد المضبوط الذي كانت أمي ترصده لعودتي، بدقة، ولما قلت لها عن سبب تأخري، بأمانة ودون معاذير أو تعلات، لم أسـلم – طبعا – من التأنيب الحاد ومن علقة سخنة موجعة، لكننـي – طبعا – لم أبال، وكنت سعيدا، وفخورا على نحو ما، ولم أتوان عن الخروج في مظاهرات أخرى، أيامها، في ذكـرى وعـد بلفور، وفي هذه المرة كان عساكر بلوك النظـام هـم الـذين ضربونا وشتمونا بالآباء والأمهات شتيمة موجعة، وكنت, مع ذلك، سعيدا بأنني كنت في المظاهرة، وفخورا بالتأكيد.

ذلك في ١٩٣٧.

وفي الإسكندرية ٢٨ ديسمبر ١٩٤٢ (فقط بعد خمـس سنين.. !)

عزيزي وفيق..

أحقا أن أمقتك. وأبغضك.؟.. أحقا أنني أحقد عليك؟..

كلا.. كلا.. أي سخف !.. أنني.. كما كنت، وكما سأظل دائما، أحبك..

إن ما خيل لك، ولي أنا أيضا، أنه المقت والكراهية ليس إلا الحب نفسه، والصداقة الجريحة.. تنزف دمـا وصـديدا.. لتعود أشد نقاء.. وأكثر انصهارا..

نعم... إنها لم تكن إلا نوبة ألم هول مجنون، فقد الوعي بنفسه، فانطلق جائحا... متنكرا بصورة مخيفة بشعة..

يا ا ... كم هي مروعة.. تلـك السـخرية.. سـخرية أحاسيسنا بنا... ألسنا.. كلانا.. روحين مريضـين معـذبين؟ نعم.. والأرواح المريضة.. كـم هـي معقـدة.. ومظلمـة.. ومروعة.. هل تصدق..؟.. إنني شعرت بلذة رائعة شـريرة.. حينما قرأت صرخاتك الموجعة.. في خطابك الماضي.. وتـلا ذلك مباشرة، شـعور سـاحق، معـذب.. عنيـد.. بـالألم.. والانسحاق.. وتأنيب الضمير !..

نعم.. نعم.. أنني قاس.. قاس إلى حد عجيب.. عليك.. وعلى نفسي.. قاس.. لأن الألم يدفع المرء إلى القسوة، والـى الجنون.. إن التعاسة تستطيع أن تحيل ا لحياة جحيما.. إنهـا.. كما قال تشيكوف... تفرق بين المرء والمرء... وتترك المرء وحيدا.. منسحقا.. في عالم كبير مـوحش.. جامـد مخيـف..

وأنا.. لقد كنت تعسا.. ولذلك صرت أنانيا.. قاسيا.. مخبولا.. الصدق الوحيد.. الذي فهمني.. كأقصى ما يستطيع البشـر أن يفهموا، لأننا.. لا نستطيع أن نفهم أنفسنا.

الصديق الوحيد الـذي أحبنـي.. لقـد ذهـب ..هكـذا اعتقدت.. بكل ما في النفس الطعينة الحساسـة مـن قـوى.. وتجسمت الفكرة كائنا حيا.. جلادا.. قاسيا.. في يـده سـوط عذاب... ! !

وإلى جانبي.. أينما أدرت بصري.. انتصب جـلادي.. وعلى فمه قهقهة مجنونة مذهلة.. مذعرة.. نعم.. كان الكـون كله.. يبدو فارغا.. واسعا.. موحشا.. رهيبا.. صامتا.. كسجن فسيح..

يا إلهي.. هل أنا ملوم؟.. لست أدري..

وفي غمرة عذابي.. خيل لي أن الصـداقة ان هـي إلا مقت.. مقت يشتملني بجو أسود.. ثقيل كجو كـابوس.. وفـي حمي آلامي.. تدفقت من قلبي الدماء.. ومـن فمـي سـيول الهذيان..

هل قلت لك إن صداقتك لم تكن إلا ريـاء.. وزيفـا.. وخداعا؟.. هل قلت لك انك نصاب.. محتال.. خادع؟؟.

هل حقا..؟؟..

لست أدري.. إنني كنت محموما.. كنت تعيسا.. وكنـت معذبا..

فهل تلومني؟..

كلا... كلا.. لقد انتهت تلك الفترة الشقية.. لقد انتهى كل هذا الهراء.. إننا كنا نعذب أنفسنا.. في إصرار.. وجنون..

فهل ستنتهي.. تلك السخافة.. أخيرا؟..

أجب.. يا صديقي.. أجب سريعا.. فإنني – وأنت أيضا – إنني لا أستطيع أن أعيش إلا إذا عرفت.. وأحسسـت.. أن هناك قلبا.. في هذه الحياة.. يفهمني.. ويفكر في – أحيانـا – بعطف.. وحب.. نعم.. لا أ ستطيع..

أجب... يا صديقي.. إنني في لهفـة محمومـة.. إلـى خطاب منك.. رقيق.. جميل.. عذب.. كالعاطفة التـي تعمـر صدرينا.. خطاب.. كتلك الرسالات الحلوة.. التي كنت أقرأها لك.. منذ زمن.. يخل إلى انه بعيد.. بعيد.

صديقي....

لست أدري.... هل تسطيع أنت أن تخبرني.. لماذا كنت أفكر فيك كل مساء.. وكل يوم.. ولماذا لم أستطع أن أكتب لك إلا الآن...؟... على الرغم من ذلك؟

وهل تستطيع أن تعرف.. لماذا.. يصوغ المـرء مـن عذابه وثنا.. يركع أمامه.. ويبكي.. في إنسحاق.. وفي تلـك الدموع.. يهتف بالصلاة.. الصامتة الصارخة.. الغريبة.. التي تتردد في النفس.. ثم تتحطم.. في أنغام متهاوية.. لتجعل مـن الشقاء آلها...؟....

لماذا؟... هكذا كنت في العشرين يوما الماضية.

هل تعرف ماذا كانت النتيجة؟..

أنني الآن أفزع من نفسي.. أننـي لا أجسـر علـى أن أحدق في أعماقي.. بأعين واسعة مستطلعة.. فإن الظلام الذي يتكوم هناك.. يخيفني.. ويذهلني.. ويشعرني بالدوار.. كمـن يطل في أعماق هوة لا قرار لها.. أنني الآن أجبن عن مواجهة نفسي.. عارية أمام نفسي.. لأنني أرتعد.. وأرتعش.. وأنطلق

مذعورا.. كمن يفر من ظله.. ولا يدري أنه ينقله معه.. ولـو انكمش في أعماق الظلمة...

إن شعاعا واحدا من النور المرتجف الممتقع.. كفيل بأن يظهر الظـل.. وأن يمـلأ الهـارب.. بـالهول والمـرارة.. والجنون.. ومع ذلك.. وعلى رغم كل شيء.. أليس العـذاب مقدورا لنا.. واللعنة مكتوبة على جباهنا؟.. نعم أننـا سـنذرع الحياة.. محدقين بالمجهول.. متأملين باللانهايات.. باحثين عما لا نعرف... " ناسين... ناسين دائما.. إن لا أجنحة لنا فنطير.. وإننا موثقين أبدا... إلى هذه الناحية ".. كما يقول طـاغور... "ناسين.... ناسين دائما.. أننا نجهل الطريق.. وأننـا لا نجـد الفرس المجنح.. وأن فينا الفتور.. وقلوبنا.. ما تنفك تتخبط في تيهاء.. ".

إننا نفر دائما.. من الواقع.. إلى الآلام.. إن الألم ليجعلنا ننطوى على أنفسنا.. نبحث.. وننقب.. في الأكـوان الغريبـة المجهولة.. إننا نستشعر الظمأ دائما.. إلى ما وراء الحجـب.. إننا نحس الشوق دائما.. إلى ما وراء المغيـب.. ومـا ننفـك نبحـث عـن كـل محـرم.. مـن الأفكـار.. والمشـاعر..

والأحاسيس.. لكي نستاب.. ونقتطف ونحس الحياة.. وما وراء الحياة.. بكل آلامها الجبابرة.. وأفراحهـا الخفيفـة المرحـة المتألقة.. وسخرياتها.. وجمالها.. وبشاعتها.. وروعة تعقدها.. ألسنا نحس الحياة.. ألسنا نظمأ إليها.. في جنون .. إذا افتقـدنا فيها روعة عرفناها من قبل.. حتى ليخيل إلينا.. أننـا نحـس الموت بعينه.. والجمود.. والملل.. والفراغ... الفراغ القاتـل الكبير...؟.. نعم أن الظمأ إلى الحياة.. هو ما يخيل إلينا أنـه الجمود..وأنه الموت..

لذلك فلنبحث عن الحياة.. الحياة الرفيعة السامية.. فـي أعماق أنفسنا الحية.. الخصبة.. العامرة..

نعم.. يا صديقي.. إن في نفوسنا أكوانا.. إنها الإنسانية كاملة.. تتمثل.. مركزة.. في أعماقنا.. لنبحث عن الحياة.. بين روائع الفكر.. والفن..

لنبحث عن الحيـاة.. بـين الآلام.. والعـذاب.. الـذي يطهر.. وينقي.. ويخصب..

لنبحث عن الحياة.. ولنمزق قبورنا.. ولنرتفع.. هاتفين: أيها الموت أين شوكتك؟. أيها القبر أين سلطانك؟ كمـا هتـف

المسيح.. ابن الإنسان.. الإنسان الذي فهم الإنسانية.. وأحبها.. وتألم لها.. وقدم حياته.. ذبيحة.. ودماءه محرقة..

لنتمرد... ولنثر.. ولنحطم القيود التي تنسـجها حولنـا نفوسنا.. لنصعد إلى السماوات.. ولنهبط إلى الجحيم.. ولـنكن من الطبيعة كلها عينها الصافية.. كما قال جيو..

لا أريد أن أكتب كثيرا.. وإن كنت أتمنى أن أظل أكتب طوال الليل.. حتى الفجر..!!

فأنت تعرف جيدا.. ذلك الجو المقدس المعبود.. الـذي يعيش فيه المرء.. حين يكتب.. وحين يجعـل مـن مشـاعره وأفكاره وأحاسيسه.. كائنات حيـة.. تمـلأ الحيـاة حولـه.. حرارة.. ونبلا، و جمالا، أنت تعرف جيدا.. لكنني أريـد أن يكون خطابي القصير.. نسبيا بالطبع.. لكي أكتب لـك.. فـي فترات قصيرة متقاربة.. وطبعا ذلك لـن يـتم.. إلا بتعاونـك أنت.. فيجب.. يجب أن تسرع في الرد.. لأنـك بـذلك – إذا استعملت تعبيرا لك – " تسدي خدمة إنسانية جليلة "..

أنت لا تدري أو تدري على الأصح – تدري تمامـا – ذلك التلهف المعتصر.. الذي أبحث به.. كل صباح عن خطاب

لي.. في قائمة البريد.. وأنت طبعا لا تريـد أن تنـتقم منـى ..؟..هل تريد ؟.. وأحب أن أنهى إليك بعـض أنبـاء.. قـد تهمك..

لست أدري ماذا حدث لي.. حتى أصبحت أكتـب الآن قصصا صغيرة.. وقطعا شعرية منثورة.. على نمط عجيب.. لم أعهده في نفسي..

أن الآلام التي كانت تصهرني.. وما تـزال.. تـوحي إلي.. بأشياء عجيبة.. فمثلا عكفت علـى الكتابـة.. وعلـى الحلم.. كتبت قصتين: " الأبله ".... و " الأوثـان ".. وكتبـت شعرا منثورا.. وسوف أبعث بها إليك.. إذا شئت.. وإذا وعدت وعدا قاطعا بأن تردها برجوع البريد.. لأننـي غالبـا.. بـل ودائما.. لا أستطيع سوى الكتابة مرة واحدة فقـط.. وأحـس بضيق شديد.. وملل قاتل.. حينما أحاول أن أنسخ منها صورة ثانية.

هذا من ناحية.. ومن الناحية الأخـرى.. فـإنني أقـرأ الآن.. كالعادة.. في جنون.. فقد قرأت ما يزيد على عشـرين كتابا باللغة الإنجليزية.. في فترة قصيرة جدا.. حتى خفت على

نفسي.. ألا أستطيع أن أكتب باللغة العربية.. ما دامـت كـل أفكاري ترتسم أمامي.. باللغة الإنجليزية " اللعينة "... ! ! هذا تحد.. أليس كذلك؟

وقد ترجمت عشر قطع لشيلي.. وثلاثا لكيتس.. وعـدة قطع لتاغور.

وعلى فكرة.. قرأت عددين من المجلة الجديدة.. أحدهما عن الفنون في القرن العشرين.. والآخر عن الأدب المصـري المعاصر.. وسوف أحدثك عنهما فيما بعد.. أو.. وهـذا مـا أستحسنه.. خير لك أن تطلبهما من إدارة المجلة الجديدة نفسها أو من دار الكتب الأهلية بميدان الأوبرا.. عندكم بالطبع.. هما عددان نفيسان حقا.

وقد يحزنك أن تعرف.. أن صخرة ستانلي.. قد تلاشت إلى الأبد.. من الوجود.

تسألني كيف؟ حسنا.. لقد رأت البلدية.. بثقاب بصيرتها النيرة.. أن تقيم عليها العشش الخضـراء المعروفـة.. فـي صفوف منتظمة.. بعد إصلاح كثير.. وبذلك ضاعت وحشـة

الصخرة.. وجمالها الطبيعي.. وأناقتها الوحشية، لكي تسـتبدل بها الأناقة المنظمة المنسقة المملة...

أنا الآن لا أرى جورج إلا نادرا.. وإن كنت أرى سامي باستمرار.. ومن العجيب انك دائما تقرنهما أحدهما بالآخر في أحاديثك.. بكل بساطة.. وبكل جرأة.. كما يستطيع المـرء أن يقرن الفراشة بالطاغوت.. أو شيلي.. بحافظ إبراهيم... ! !

أرجو.. وألح أن تبعث إلي... بكـل مـا يخطـر فـي جمجمتك.. من آراء.. ومشاعر.. وحـوادث.. وأقاصـيص.. ربما تكون قد كتبت، وعلى العموم، بصداقتك التي أنا في أشد الحاجة إليها...

تحياتي إلى جانيت، وأملي أن تنسى كل الهـراء الـذي كتبته في رسالتي الماضيتين.

وأنا في انتظار خطاب رائـع حافـل.. " زى زمـان " وبسرعة.. بسرعة.. بسرعة.

وأخيرا تحيات وأشواق..

المخلص

(.........)

انظر الآن، بعد خمسين سنة أو أكثر، وأعرف أن ذلـك الصبي، وذلك الفتي، ما زالا هناك، يقطنان ركنا في، ما زالا ينظران إلى بتوجس من لا يعرف إلام المصير، وكيف يكـون المآل، ما زالت فيهما حياة عنيدة خاصة، لست ذكريات، هي، كما أقول باستمرار، الآن، هي الآن.

القاهرة في ٢٣ سبتمبر ١٩٩٣

عزيزي وفيق...

انقطعت بنا السبل منذ سنوات، هـا أنـذا أكتـب لـك، استجابة لطلب صديق عزيز، عن " المرأة " التي لم أصدق قط أنها " وعاء للحمل وللولادة "، ولا أنها مجرد أداة للتكاثر، ولا موضعا لمتعة الرجل، ولا هي كما قيل عن المرأة في كتاباتي، قديسة وعاهرة في وقت معا.

ألم يقل ميخائيل من زمن بعيد: " أريد جسدك وسـماءك القاسية معا؟ " ألم يقل: " أريد الحرية، لا حريتي، بل الحريـة معك ".

ألم يقل ما معناه انه يعرف مع رامة الندية الكاملة لا في فعل الحب وحده بل في فعل الحياة نفسه.

صحيح إنني لست ميخائيل ولكني شبيهه ورصيفه.

أذكرك بما قال جمال شحيد عني في مقال له لم يصلني إلا جزء منه ولا أعرف متى ولا أين نشـر: " إنـه يطـرح إشكالية الذكورة والأنوثة دون تحيز للذكورة، لا بل يرى فـي الأنوثة الطبيعية المتوازية سمات إيجابية تتفوق على بطريركية الذكورة التقليدية ".

ليست المرأة عندي إلاهة ولا جارية.

ليست قنيصة، ولست صيادا.

ليست موضوعا، ولا تمثالا ينفث فيـه خالقـه الحيـاة، ويهوى ما صنعت يداه.

ليست أما بديلة يهرع إليها طفل مذعور ملهوف وليست طفلة يحنو عليها أب جهم الحنان.

حتى وإن كان فيها شيء من ذلك كله أو بعضـه، كمـا يكون شيء منه في علاقتها هي بالرجل، على ألا تحـل هـذه البدائل محل علاقة الندية والمشاركة حقا أمام أهوال الجمـال وملالات الحياة، والمحن والسعادات الصغيرة، والكبيرة، التي يضفر منها نسيج الأيام.

المساواة المطلقة الندية المطلقة بين الرجل والمـرأة – على إطلاقها – هي قانون إيماني.

ولا ي مكن أن يحدث هذا في داخـل نطـاق صـراع معزول بين " الرجل " و " المرأة " بلا لا يتصور إلا في سياق تحرر للقوى الاجتماعية كلها، على مستويات عدة.

حركة " تحرر المرأة " وحدها مقضى عليهـا، فلـتكن حركة تحرر متصلة ومتداخلة الأبعاد ثقافيا وعلميـا، فرديـا واجتماعيا، سياسيا واقتصاديا.

ليست حبيبتي تمثالا أرفعه على قاعدة عالية، أتعبد تحت سفحه، ليست " شيئا " من أشيائي، ولا هي – كما لا أحتاج أن أقول – عورة وسوأة، ولا هي أي عضو منهـا – إذا أمكـن الكلام عن " عضو " – أيا كان – من غير الكلام عن " الكيان " كله، جسدا دمثا وسماء صارمة، هذه الازدواجية الزائفة التي فرضتها علينا الثقافة اليهودية – المسيحية بين الجسم والروح، فما هناك قط أدني شق ولو في رفع الشعرة بـين الجسـدانية والروحانية، لا في المرأة ولا في الرجل.

نحن الذين امتزجت دماءنـا برواسـب راسـخة مـن البطريركية الذكورية نضبط أنفسنا، إذ نتردى في فـخ هـذه الثنائية الموهومة.

ولسنا وحدنا في ذلك بل تسقط " المرأة " فـي الشـرك نفسه، هذا إذا سلمنا مرة أخرى بصحة مثل هذه التعميمـات، الإطلاقيات، " الرجل " و " المرأة " و " نحن " وهكذا، فلكـل منا – رجلا أو امرأة على السواء – فرديـة وخصوصـية لا يمكن إغفالها – أليست هذه بديهية؟ إننا هنا طول الوقت فـي أرض البديهيات المنكورة، ولكن التعميم هنـا لا مفـر منـه، علامات تهدينا إلى إشارات نور على مفارق الطريق، حتـى ولو كان نور النهار ساحق السطوع.

لكنك – فيما أظن – لن تقبل هذا التفلسف كله، سـوف ترى فيه – ربما – شيئا من الضعف، والتخلى عـن فحولـة تتمسك بها حتى آخر لحظة، وإن لم تعترف بها صراحة، بـل تقارف بها نوعا من التسامي – الذي فيه شيء من السذاجة.

لا، ليست منحازا ولا متعصبا – ولـو فـي الخفـاء – لسيادة ذكورية لعل الظروف المجتمعية والثقافية لم تعد اليـوم

مواتية لها – حتى في عالمنا " الثالث " (أو " الأخير") – كما لعلها كانته في حقبة متطاولة من الزمن توشك أن تنحسر.

بل لعلني منحاز – كرجل – إلى جانب الأنوثة.

ألا يبدو لك هذا طبيعيا؟

المخلص

(.....)

في يوم الأربعاء ١٣ يناير ١٩٤٣

كتب لي وفيق خطابا لعله من أواخر خطاباته الحميمة:

عزيزي..

.. لست أدري ما الذي حدث حتى استطعت أن أمسـك القلم أخيرا.. ولكني أظنها "يقظة الموت" كما يقولون !.. لـي شهور كاملة ,لم امسك فيها قلما.. ولم أكتب شيئا..لـم أكتـب على الإطلاق.. إنني أعيش مدفونا يا صديقي.. أعيش سـجينا في جو مختنق بالظلام.. والبرودة القاتلـة..فـي جـو مـن الصمت.. والسكون الخانق.. كم أحس شـكرا عميقـا لهـذه اللحظة التي قدر لي فيها أن "أنفجر".. وأن احس في اعماقي بعض النار.. واللهب.. كم أحس الشكر لهذه اللحظة التي أحس

فيها شيئا على الإطلاق.. تصور المهزلـة يـا صـديقي.. إن الإحساس في حد ذاته قد غدا بالنسبة إلـى حلمـا... أشـكر الظروف لو حققته !.

وأعود فأتساءل... ما الذي حدث حتـى اسـتطعت أن أمسك بالقلم؟... صدقني أيها العزيز حين أقول إنهـا " يقظـة الموت ".

كنت اقرأ خطابا جاءني أخيرا من جانيت... صـادفتني فيه فقرة.. هي دون شك السبب الـذي بعثنـي هـذا البعـث القصير.. وأستمحيك عذرا في نقلها إليك:

"... يخيل إلى أنني أتعس فتاة في الوجود كلـه.. لقـد حاولت كثيرا إبعاد هذا الخاطر عن رأسي.. ولكن الأيام تـأبى ذلك.. فهي تثبت لي دائما ما أحاول أن أخدع نفسي فأكذبـه.. لو لم أكن يائسة.. لا نصيب لي من سـعادة كاملـة.. سـعادة دائمة، لما عاكستني الأقدار في أحلى ساعات حياتي، في أجمل أيامي وليالي الحبيبة التي أخال أنني عانقت السعادة فيها بكلتـا يدي، فلا أدرى إلا وقد اختطفت مني كل شيء، تاركة إيـاي، أتخبط وحدي في ظلام حالك، مشدوهة، غير مصدقة.. أننـي

فقدت كل شيء، وأنني عدت من جديد إلـى الوحـدة.. بـل الشقاء.. إلى اليأس والعذاب.. إلى البكاء.. وانتظار الرحمـة من الأيام..إذا كانت هناك رحمة في الوجود ".

هاك يا صديقي... إنها تعيش فيما تـدعوه جحيمـا... وعذابا لا نهاية له.. وأنا أعيش مدفونا.. ميتـا.. فاقـدا لكـل عاطفة، ولكل إحساس.

.... لماذا؟... إن وجود أحدنا مع الآخـر.. يكفـى لأن يرفعنا بعيدا إلى السماء.. بعيدا عن الجحيم والمـوت معـا.. ولكن.. الحياة تأبي ذلك.

أولست أدري ما هي " الأبالسة " التـي تتحـدث عنهـا جانيت... سيان.

... أخي.

ولكن ! يا لسخافتي إذ أدعوك بهذه الكلمة الجوفـاء ! كأنما هي حقا تعبر عن مشاعري نحوك؟!

... أنني فقدت كل شيء في الحياة إلا حبي لجانيـت.. واك.. نعم.. هذا الحب هو كل ما تبقي لي.. ولكن الحياة تأبي إلا أن تجعل منه.. قبرا لي.. أموت فيه رويدا.

.... قد أراك قريبا يا صديقي.. فأجازة نصف السنة تبدأ في ٢٣ القادم ولن تنتهي إلا بانتهاء الشـهر.. أمـا جانيـت، فالشيطان وحده يعلم متي أراها.

كم أود لو ماتت هذه الفتاة، إذن لانتهى كل شـيء فـي عذوبة ساحرة.

أنت لا تعلم بأي جنون أتمني موت أحب إنسان إلي في الوجود.. إنها حياتي يا صديقي، ولا تعجب أن أطلـب نهايـة حياة معذبة محطمة محترقة كهذه.

أنها تطلب الموت بإلحاح مؤلم.. وكم أتعذب لعذابها يـا صديقي كم أحس أنني مذنب.. وإنني جـررت هـذا المـلاك المسكين معي إلى الجحيم الملعون الذي كتب علي أن أعـيش فيه.

.. إني قلبي يذوب ألما واشفاقا لها إذ أقـرأ صـرختها المحترقة في هذا الخطاب الأخير... إذ تقول:

" لست أدرى ما الذي يجعلني أشك في انتهاء هذا البؤس يوما، وهذا الخاطر يؤلمني ألما بدرجة مخيفة تجعلني أنـادي الموت نداء مؤلما يتفجر من أعماق نفسي المعذبة.. وكم هـي

قاسية تلك اليد الرقيقة النحيلة ببرودتها الحبيبة.. يد المـوت.. إنها تبخل علي – حينما أناديها ضارعة في سبيل رحمتهـا – تبخل على بلمسة واحدة فيها نهاية كل شيء.. فيها خلاصـي من هذا الجحيم.. وفيها راحتي الأبدية.. ".

.. إن قلبي يذوب شفقة لها يا صديقي.. وأحـس أننـي مذنب.. مجرم.. لقد حطمت تلك الدنيا الواعـدة التـي كانـت تتعيش فيها.. وألقيتها إلى اعماق الجحيم الـذي أتقلـب بـين جمراتـه، إنهـا رقيقـة كـالأحلام يـا صـديقي.. وديعـة كالملائكة..طاهرة كزنابق الحقل.

كم أحلم باللحظة التي يحمـل المـوت فيهـا أنفاسـها الطاهرة.. وينثرها في قلب السماء.

كم أطلب لها الموت سريعا، حتى ننتهى معا، كما ينتهي نغم عابر تحمله النسمات بعيدا... بعيدا.. إلى واد وسيع.

إنها كل شيء يا صديقي.. ولكنني أعيش بدونها.. وليس في الحياة شبح من أمل في أن أحيا معا.. هنالك كـل شـيء يشير في سخرية مريرة قاتلة إلى ظلام حالك مخيف.. تكمـن

لي في ثناياه المقيتة كل أحزان الحياة وكل أهوال هذا المـوت المخيف الذي اعيش فيه بدونها.

آه يا صديقي.. أتذكر تلك السماء التي عشنا فيها معـا.. نحن الثلاثة.. خلال تلك الأيام الحبيبة التي قضيناها...

حسنا.. إنني يائس من الحياة تماما.. وليس هناك شـبح لأمل يغريني بها..

حتى الكلية لا أذهب إليها الآن إلا لكي أسال فيها عـن خطابات لي..

غريب ! إنني لا أكتب لأحد علـى الإطـلاق.. حتـى جانيت.. لم أكتب لها منذ شهور طويلة.. ولكنها تكتب لـي.. مرتين كل أسبوع.. ولكن ما فائدة الأنين؟

أن الموت يقترب ببطء مخيف.. ولا فائدة من الأنـين.. فلندعه يأتي في سكون.. ودعة وهدوء.. لن أراها يا صديقي.. ولست أكتب لها وهي كل حياتي.

لم يبق لي إلا أن أعيش. ميتا.. أحلم بما مضى.. كمـا يحلم إنسان بعث.. بما كان في حياته الماضية.

بعث؟ كلا.... لن أبعث يا صديقي، هذا أمل مضـحك، لعين ! إنني إنسان ميت.. يحلم بما مضى وما كان في حياته.

" لو كانت هناك رحمة في الحياة "...

كلا يا حبيبي.. لا تأملي في رحمة لا أقدار ولا بشـر.. ولا تلك الخرافة التي يدعونها.. اللعنة.. كم يغلى دمي لمجرد ذكر هذه الأشياء.

أتذكر بافنوس يا صديقي حين انتهى.. صارخا.. " ولكي أرغمك على أن تدخلني جحيمك.. هأنذا أبصق في وجهـك ". يا له من احتقار.. ويا لها من سخرية هائلة مخيفة..

ولكنني جبان تعس.. لا أجرؤ..

يا للأبالسة ! ثلاث صفحات كاملة.. أكتبها أنـا؟ هـذا مضحك أو قل مدهش !

ولكنها على قلتها بين أسطرها المضطربة.. المحمومة.. المختلطة.. تحوى مأساة مروعة.. هي نهاية حياة كانـت ذات يوم.... أجمل وأنقى حياة في الوجود.

أتكتب إلى عزيزي؟ على رسلك يا صديقي.

قد أكتب لك مرة أخرى، ولكني لا أعدك، قد يكون ذلك، بعد أسبوع.. بعد يوم.. أو بعد شهور.. ولكن هل تكتـب لـي أنت.. لست أدري.. ولكنني سأنتظر.

وعلى ذكر هذا، اذكر أن جانيت كلفتني بأن أرسل إليك خطابا كتبته هي لك.. فهل تزمع أن ترد عليه؟

.... هذا هو كل شيء يا صديقي..

نعم.. لا أظن في مقدوري أن اكتب أكثر من ذلك.

ولكن.. يا للشيطان ! ألا يكفي كل ما كتبت؟

إلى اللقاء يا صديقي.. وأنا في الانتظار

وفيق

فهل أستطيع أن أقرا هذه الخطابات الآن – للمرة الأولى ربما بعد نصف قرن، دون أن أحس أنني ما زلـت أكتبهـا.. ومازلت أتلقاها؟ أكتبها.. أو تكتب لي.

ابتعاث هذه الرسائل من جديد، أقول لنفسي، ليس تأريخا ولا استعادة تذكر، ألم أقل ذلك أكثر من مرة، حتى الملل، لكني لا أمل من تكراره.

إنها كتابة من جديد، بل كتابة جديدة، ولعلني لا أجـرؤ أن أكتبها الآن، خشية من عاطفيتها المسرفة، ربمـا, وهأنـذا أكتبها مع ذلك بلا خوف.

أكتبها، كتبتها، سوف أكتبها، كان ينبغي أن أكتبها، لـم أكتبها، لن أكتبها، لم يكن يجب أن أكتبها، وقد كتبتها، هأنـذا أكتبها. بكل الأفعال.

العمالقة الغيلان التي ترود جبال ووهاد النفس، تفتـرس أو تحتضن المسافر الضال، حسب الأحوال، هذه الكتابات.

متى ينتهي سفري، وضلالي؟ ورحلة المسـافرين فـي دواخلي.

محباتي الكبرى – والصغرى – قـد ولـدت وعاشـت وسوف تموت في حضن هذه الغيلان العمالقة.

فقط لأنها جسـيمة. " عمالقـة " فقـط لأن جِرمهـا – وجرمها – كبير.

التنين العظيم، ند رامة، كان رفيقا بل حانيا بل محبـا.. لكنه مع ذلك كان مفترسا ونهاشا.

ضوء الزمن الآخر ما زال يشع على العتمات الممتـدة على تراب من زعفران.

عمالقة؟ أم بنات إسـكندرانية – وغيـرهن – أم فقـط عرائس مصنوعة من مطاط كتلك التي وجدوها عنـد عبـده أفندي شاروبيم الذي درسني الفلسفة وعلم الأخلاق في العباسية الثانوية، أو عند الدكتور عبد الرحيم العربي أستاذ الفلسفة ذائع الصيت الذي يعيش الآن في بـرلين، عـرائس أنثويـة مـن كاوتشوك، موضوعات شبق يخلقها المرء ويشكلها ويصـوغها ويتحقق ويتدفق فيها، هل اسمها جين أو مارجو أو مارسيل أم خضرة ورشا وماجدة، تحليها الإعلانات المغوية في الصحف والمجلات البورنوغرافية، تعطيها شفاها متحركة ونهودا حسب الطلب وأجسادا طيعة وتدويرات مشتهاة، وتجعلها تصدر أنين المتعة والوجع الميكانيكي المطلوب، من أجهزة تسجيل مخبـأة بعناية (من غير كبير عناية بالإخفاء).

أليس مريحا أن هذه الشـهقات والأنـات الكلاسـيكية المطلوبة والمقصودة كانت من صنعة تلـك المـرأة المحنكـة الشهوية التي أحببت وما زلت أحب؟ عرائس من مطـاط أم

تماثيل بيجماليون المعاصرة في ثقافة اسـتهلاكية عارضـة؟ أدوات تنصب فيها وتنهدر نوازع الشوق إلى المطلق الأبـدي، ليست سيدة الملك القبرصي الجميلة المنحوتة من عاج دافـئ، نفخت فيها أفروديت أنفاس الحياة بقوة ضراعة الملك الولهان، بيجماليون القرن العشرين.

وبالمناسبة لماذا ضبطت هذه الدمى المطاطية فقط عنـد مدرسي وأساتذة فلسفة؟ (ضبطتها أجهزة قمـع معينـة فـي ملابسات مريبة، كما يقال).

أو على الأقل لماذا شاع ذلك عنهم فقط؟ فهل ذلك لأنها مجرد تجريدات ذهنية، صافية نقية بمعني ما، لأنهـا ليسـت كائنات حية حسية مضطربة التكوين متقلبة المقومات؟

ولكن – أقول لنفسي في هذا الحوار الممـض – ألـيس اضطراب الحياة وارتباكها وجيشانها المـدوم وربمـا غيـر المتوقع هي بالضبط أسرار قوتها وجاذبيتها ومصـدر النديـة الحقة بين رجل وامرأة؟ (حتى لو كانت المرأة تلجـأ لحيـل شبقية ميكانيكية؟).

أم أن نقاء الصورة، وخلوصها الصافي لـك وحـدك، وانصياعها الكامل لك وحدك – مثل كل تجريد فلسفي – سـر من أسرار الجاذبية والإغواء, أيضا؟

عمالقة غيلان عرائس من مطاط طواحين دون كيشوت طواحين الماء السواقي السبعة ذائعة الصيت التي تنعـي لـم طفوا لي نار؟ طواحين بن تدور، أمن غير طحن؟

طاحونة البن المدورة الصفراء من نحاس لامع، ناعمـة التدوير من الاستخدام ومن حميمـة قـبض الأيـادي عليهـا اعتصارها في حميا تشغيلها، دافئة، متموجة العضلات، دوران المقبض المعقوف الصغير، الذي تحس فعاليته وهـو يعـض ويكسر ويجرش حبات البن المحمصة، بين الأسـنان الـدوارة المعشقة بقوة، ثم يهرسها، ثـم ينعمهـا، ثـم تحـس دوران المسحوق الدمث المطوع بين التروس والنتـوءات الداخليـة، الملل الذي تعرفه اليدان في عمل التدوير المتكرر والإمسـاك بالجسم الاسطواني كامل الدوران الذي دفئ، وندى الآن بـين يديك، تسنده إلى صدرك تارة وتحس صلابته، وإلـى حجـرة تارة لتريح نفسك قليلا، بينما المقبض يـدور ويـدور وأزيـز

ارتطام التروس ونفاذها، وفاعليتها، وصوت الخشخشة الأجش النفاذ أولا ثم هسيس المسحوق المذرور المضغوط اللين بعـد ذلك، وبعد أن كنت متلهفا لا تكاد تصبر عليه عندئذ، تـذكره الآن، بعد كل هذه السنوات، بما يشبه التوق والحنان.

وكأنما تعيد إلى هذه الطاحونة المدورة الناعمـة التـي أحس تحت يدي الآن ملء جسـدانيتها، حـس تلـك الأدوات الأخرى الكهربية، مصنوعة من الصيني عاجي اللون كأنهـا مولودة غير مخلوقة، رخيمة الملمس، فتحت طفولتي عليها في بيتنا في غيط العنب، لا بد أن ذلك كان بعـد إدخـال النـور الكهربائي إلى بيوتنا بقليل، بذخ التشكيلات الكبيرة المصـقولة من الأزرار المكورة أسطوانية التدوير، ضخمة تمـلأ اليـد، السطوح اللامعة المنحوتة فيها ثقوب وحزوز سـوداء دقيقـة محكمة الاستدارة خروم صخرة سيدي جابر نافذة إلى العمـق تعج في داخلها الحميم بحيوات لا نعرفها وأنواع من الكابوريا وأبو جلامبو سراطين ميكانيكية رفيعة السيقان أقماع المصابيح مفرغة من وهجها مصنوعة من زجاج مضبب مفضض فـي لحمه الداخلي نقوش أغصان متشرجة مهندسة التفريع تنسـاب

عند سطوحها بايحاءات شكل الكمثرى لها أصـابع مبسـوطة عريضة كالأوراق المفرودة من زجاج أبيض غيـر منقـوش نصف شفاف الأسلاك المتينة ناصعة التغليف قوية الالتفافـات كأنما تحمل من الآن شحنة طاقة مندفعة ومكبوتة ولكن مهددة دائما بالجموح حروف شفرتها مغوية وحارة وقد تكون مدمرة الدوى والحلقات والاسطوانات الصغيرة النحاسـية المحـززة حادة الحواف موسيقية الصدى متواشـجة الدلالـة والجـرس والفيشات ذات الألسنة الضخمة – ألسنة قوالة – التي سـوف تولج بشيء من الضغط هين في ثقوب البريزات المضـبوطة على مقاسها بدقة وإحكام طقوس صارمة الصدق ولدنة تمـلأ قفة من الخوص الطرى مدفوسة تحت سرير أبى أتسلل إليهـا بعد الظهريات ما زلت ألوذ بها في وجه الهلاك وفي عتمة ما تحت السرير المنيرة بالكاد بضوء الحياة المزدحمـة الخاويـة الآن أستخرج هذه المجسدات تدب فيها حيـاة خاصـة بـين ذراعي الممدوتين بالوجع والنداء.

الكتابات كالأسماك طافية علـى مـاء الشـط فضـية ومفشوخة ولزجة ومنذرة بالفساد.

حارة أيضا بلا شك، تتكأ جراحا قديمة لم ترم قط.

طعنات الأنوار الكاشفة تطرد طائرات المغيـرين عـن قلب الإسكندرية وتدفعها إلى عرض البحر أو على الأقل إلـى الشاطئ الرملي في ليل الصيف الحار، واذ تحاصرها الأنوار والقذائف وطلقات مدافع الآآك آك تتراجـع الطـائرات إلـى الشاطئ فتنطلق المدافع المضادة للطـائرات بجنـون وتسـدد طلقاتها بتركيز كثيف إلى الجسم الذي نراه لامعا يومض فـي بؤرة التقاء شبكة الأنوار، يسبح صغيرا بطيئا بلا صوت فـي العلو الشاهق، وعندئذ يسقط حمولته من القنابل (الكلمات؟) ويصعد فوق متناول الأنوار وإلى ما بعد نطاقها.

لكنها تعود، كأنما بالرغم عنها، تعود، القنابل والكتابات تعود، سقطت القنبلة الضخمة على صخرة كليوباترا الحمامات، وفي الصباح وجدنا شظايا الصخرة، كبيـرة ومسـننة، حـادة وصغيرة، مكومة ومتناثرة على الرمل الفسيح، وشظايا القنبلة – الطوربيد لامعة مضلعة فضية اللون مغروسة فـي الرمـل مازالت سخنة , وتومض تحت خط الماء الضحل الرقراق مع

بقايا الكابوريا وأبو جلمبو وفتات القواقع البيضاء المهروسـة، وجثث الأسماك الطافية على الموج المضطرب، بلا حراك.

حصاد نزوات السنين، صخر كالغيم أو غيوم كالصخر؟

صخرة ستانلي بيه وقد أزالتها البلديـة، كانـت وعـرة شعثاء فيها رائحة برية والرمال تحتها طيعة ومنسـابة بـين شعابها الصغيرة قائمة السنان وصرخات النوارس مدفونة فيها تتلاحق تكاد تسمع نداءات جوعها وشراستها غيـر مكفوكـة الشفرة وصخرة سيدى جابر التي تندفع من خرومهـا الدقيقـة أرجل الكابوريا الكثيرة الصغيرة تجري رقيقة الجسوم مرهفـة الفكاك شفافة أو تكاد في نور الصبح الباكر جدا تحت شـمس شتاء نصف غائم ولكن دفئ، وحنون الصخرة العالية تنبثق من ربي وسهوب غير واقعية كما حلمت به وكم عشت فيها ورياح بحر بارد بل ثلجي تضربها وأنت في بيتها ذاك الذي لم تدخله قط ولم تبارحه قط مع ذلك يعصف الهواء حول حيطانه المبنية من حجر صلد كبير برونزي اللون قليلا بلا طـلاء، ينهمـر المطر عليه لانثياله على الحجر وفي المزاريب خرير أنـيس موسيقاه الرتيبة تثير فيك شهوات غير جسمانية يرتعـد لهـا

جسمك ويتوتر الماء يجرى على أسفلت شوارع الإسـكندرية يسقط في البالوعات عبر قنوات نظيفة تحت الأرصـفة التـي تلمع من النظافة ولجريان الماء صوت انسياب بهـيج المطـر يسقط عليك رذاذا، ثم قطرات مدورة لها وقـع وثقـل وأنـت تمسك بيدها لكي تصلا إلى باب أتـوبيس محطـة الرمـل – كليوباترا وتضغط بيدك على ظهرها الرقيق تحس حرارتـه من وراء الصوف الناعم المنسدل وتحـس شـريط السـوتيان المحكم على الصدر البكر الصغير صخور سـيرلانكا شـائكة السطوح تضرب إلى دكنة سوداء، بحواف الأبدية الغائرة معها بحطام سماء بيضاء في وهج ظهر لا ينتهى صـخورا غينيـا على المحيط الآخر تتخايل لك هشاشتها وكأنك تراهـا تتفتـت وأنت تعرف أنها صلبة القوام وعامرة بأحلام حقـب دهريـة مكتنزة بخزين القهر والعسف الذي لا تعويض له ولا برء منه وبأطياف أمجاد مندثرة أصداء صرخات الوجع التي لا يبرئها الزمن لا أتخبط بل أطفو تحت الغيوم فوق صخور السماء.

وهل أجرؤ أن أقول رعبي أمام هذه الصخور وتحـت غيم هذه السماء؟

لماذا يجب أن نخبئ مفازعنا كأنها عار؟

وهل أنا أخفيها؟

هأنذا أقول. لا أخاف من هواجس رعبي.

الغيم ناعم له قبضة نهائية وغير متكررة لا تني تـأتيني من جديد.. تحيط بعنقي، أختنق.

من جديد؟

بلا انتهاء؟

٦ – نورس وحيد على صخرة

على شاطئ البحر، رامة عارية، بضة، جلدها الأسـمر ندى غض فيه كل أنوثته الفياضة، يتحدى البحر.

لها وجه هاتور، وجه بقري حنون، غليظـة الشـفتين، كنت أذكرها رقيقة الفم ولكن شفتيها حساستان متحركتان بحياة خاصة قادرتان، أجنحتي متهدلة ساقطة على الأهرام الثلاثـة السابحة في سماء الإسكندرية، جلد السماء متخثر، كثيف، مثل جلد الحليب القديم الذي تصلب قليلا وتجعد.

الطحالب متدلية من عيني ووجهي، طويلة مبلولة تهتـز في الطيران البطئ الذي لا يقطع الزمن، ذكرى خضراء لهـا نداوة الغشاء المترقرق المتماسك وأحط على صخرة ناتئة فـي الموج الساجي الذي لا يترقرق، ارى تحتها على قاع البحـر الرملي الصافي تحت الماء السـاكن الشـفاف هـذا الهيكـل العظمي، كاملا، جافا تحت السيولة، هادئا بلا حراك، أعرفـه، أحس عظامي فيه، بل هي عظامي، وقد سقطت عني الأجنحة وراحت تطفو على سطح البحـر الـذي اكتسـب الآن تلـك اللزوجة، غشاء أبيض مجعد ولكن ثابت.

على الصخرة تنبت فروع وأغصان وقرون منشعبة مثل قرون الأيل الكبير تنبثق بصمت وتصعد، تلتـف بـي، قلـت غريب أنني لا أسمع صوتا، امرأتي، من على الشط القريـب، تنظر إلى بعينين واسعتين فيهما خضرة مألوفة ومفاجئة، دائما تبهرني.

لم يكن هذا حلما، ولا رؤيا.

أما في الساعة الحادية عشـرة مـن مسـاء ٧ ابريـل ١٩٤١، في فجر الخامسة عشرة، فإن اليوميات ما زالت تقول:

لا شيء... ! كتبت أشعارا محزونة فاجعة تنبئ عن ألم وتفصح عن مشاعر مختلفة أو بالأحرى عن جزء صغير مـن مشاعر مختلفة، فما اللغة كلها، وما لغات البشـر بأجمعهـا، بقادرة على وصف ما يختلج في قلب بشري.

ألم يكن " روفائيل " في قصة لامارتين يقضى الساعات الطوال في حرب ضروس بين مشاعره وبين لغته... كانـت اللغة دائما تنهزم فيها فلا تستطيع تحديد المشاعر، وإن كانـت تظفر من ذلك بمرونة وسعة وقدرة.... نعم إن هنـاك ألفاظـا تدل على معني مخصوص ولكنها توحى بأشياء أخرى غيـر

محددة لا يستطاع تعريفها بالقل.. توحيها إلى القلب فيشعر بها وإن لم يعرف لفظا يدل عليها.. هذا هو سر الكاتب أو الشاعر أو الفنان على وجه العموم.. إن هناك أشياء في بعض الصور والقصائد، يحس بها المرء ولكنه لا يراها.. وتشعر بها الروح دون أن تلمسها الأيدي أو تعرفها الحواس الخمس المحـدودة.. قد نجد هذا الشيء الغريب بين سطور الشاعر المبدع، وبـين ثناياخطوط المصور الخـالق ،وفـى زوايـا حجـر التمثـال البديع،وبين أنغام الموسيقى الساحرة، هذا الشيء نجـده هنـا وهناك موزعا بشكل غريب، يبث في الروح انفعالات خفيـة تخفق بخفة وترفرف في سكون ولكن في وضوح أو " إعـلان بالوجود " أن صح هذا التعبير، هذه الانفعالات دائما تفلت من القلم وتطير منه، ومهما حاول دائما الإمساك بهـا ووصـفها، فهي تغافله وتتسرب من بين أصابعه، بنفس الخفة والغمـوض اللتين تتصف بهما هذه المشاعر كخواطري، شـرود خبيثـة، دائما تلوح وتغري، ودائما تختفي سراعا وبـدون أن يشـعر المرء، دائما أحاول أن أدون ما يدور بخلدي هنا، ولكن عنـد الكتابة يتبخر كل شيء، ويهيم الفكر في وديان جديـدة، وقـد

تعاود الخواطر القديمة الظهور، ولكن لتختفي ثانيـة، كأنمـا تبتسم في سخرية وإشفاق من هذا الشخص التعس... تعس؟.. تعس !! حقا.. إن السلام الملكي يترامـي فـي الجـو مـن المذياع.. فلأنته به إذن.

هل قلت إنني ما زلت أكتب مثل هذه الأشياء؟

في طبقة مضمرة من الكتابة، أظن نعم

للأسف ! نعم، قلت هذا أكثر من مرة، وما زلت أكتب مثل هذه الخطابات.

الإسكندرية ١٧ يناير ١٩٤٣

عزيزي وفيق....

من المخيف حقا.. أن يقرأ المرء مثل خطابك.. وممـا يحز في النفس.. ومما يهز القلب من أعماقه أن يسمع المـرء مثل صرخاتك الموجعة، ولكن.. لماذا يا صديقي؟.. لم كل هذا اليأس؟.. لم كل هذه الظلمة؟.. لماذا هـذه النظـرة السـوداء المذعورة المؤلمة؟.. التي لا تطاق، إلى الحياة، لست أفهـم.. ولا أستطيع.

إنها نوبة يا صديقي.. نوبة فقط.. نوبة قد تكون طالت. وقد تطول.. ولكنها ليست إلا نوبة، أنني لا أطيق أن أتصـور تلك الحالة شيئا دائما حقيقيا صحيحا.. فإن هذا يكون مخيفـا، يكون كابوسا مروعا، يكون شيئا لا أجسر قط علـى التفكيـر فيه.. كلا.. كلا.. إنها ليست إلا نوبة.. أؤكد لك.

إننا كلنا نتألم، كلنا ننسحق تحت وطأة الأقدام الجبـارة التي تعتصر الدموع من أعمـاق أرواحنـا، ولكـن.. كلنـا يجب..يجب بجنون، أن نناضل هذا الألـم، وأن نمـزق هـذه الظلال السوداء، يجب.. يجب بكل عنف وإصرار، أن نناضل لكي نلتقط أنفاسنا، ولكي نخرج إلى النور، ولكي نرتفع فـوق قبورنا.

الموت؟ آه.. يا صديقي.. إننا سوف نشبع موتا، فلمـاذا نتعجل نصيبنا منه..؟

هل تذكر الخيام؟.. لشد ما هو صادق.. وإنساني، فـي بعض الأحيان!.. أتذكر قوله.

وسأضطر للرحيل اضطرارا.. واختياري أن اسـتطعت اختيارا.

أن أسرى عن الفؤاد الهموما.. في حياة مـلأى أسـى وغيوما.

فأدرها سلافة واسقنيها... نعمة فالوجود كان مصابا.

فقط، إن الوجود – رغم كل شيء – ليس هذا المصاب الذي يصوره الخيام.. أن فيه الخمر على الأقل... فيه " كـأس من الخمر.. وحبات من التمر.. وبساط من الزهـر... وثغـر الحبيبة الجميل... وعيناها الناعستان من النحول، وفيه.. لهـذا كله.. يحس المرء – يا إلهي.. قبلتك في قلبي ! ".

" كلا يا حبيبتي.. لا تأملي في رحمة أقدار أو بشر.. ولا تلك الخرافة التي يدعونها..".

أي عمق من اليأس المرير يصطخب في هذه الصـيحة الممزقة.

ولكن يا صديقي... أعود فأسألك.. لم كل هذه الظلمـة؟ ولماذا هذا التشاؤم المميت؟

تلك الخرافة التي يدعونها.. هل هناك إنسان عاش بدون هذه الخرافة، كما تسميها، هل هناك إنسـانية واحـدة، مهمـا كانت.. استطاعت أن تنطق في طريقها بدونها؟ كلا، كلا، كلا،

مطلقا.. إن الذي يهدم خرافة ما.. يقيم له وثنا آخـر يعبـده.. خرافة أخرى.... قد تكون أكثر قسوة، وأكثر جمودا.. وأكثـر بشاعة.. إن برجسون مثلا.. يحطم أوهاما قديمة.. لكي يضـع لنفسه أوهاما – أو حقائق – أخـرى يسـميها " الحيـاة " أو "التطور الخالق " الذي ابتدأ خلية زاحفة دنيئة، وظـل يتعثـر خلال القرون، يبنى لكي يهدم، ويبذر في مادة الحيـاة سـرفا وإغراقا، ويناضل المادة، وينتصر، وينهزم، أعمـى متخـبط عجيب، محتاج إلى مساعدة من البشر... لكي يصل إلى غايته التي يسعى إليها منذ ملايين السـنين.. كـلا، كـلا، إن تلـك الخرافة.. هي الشيء الوحيد الذي لا تسـتطيع الإنسـانية أن تنساه.. تلك القوة الغامضة الرهيبة.. التي لا نحـس منهـا إلا شوقا حارا جامحا إليها، نزوعا مجنونا في صـميم البشـرية، يترامى نحو الخلود واللانهائية.

أناتول فرانس – مثلا – هو ذا مخلوق " ليس يـدري " بكل بساطة، قد تكون هناك هذه الأوهام، وقد لا تكون.. لـيس يدري، ولا يستطيع، " قد يحدث أي شيء، وقـد لا يحـدث، لكنني لا أستطيع أن أحدد.. ".

ولكن، ولكن هل استطاع أن يعيش هكذا؟.. كلا. لأنه لو فعل، فإنه سيجن مباشرة وبلا إمهال، لقد رفع من الفـن، مـن الجمال، وثنا آخر، يسجد تحت قدميه، وعلى شـفتيه ابتسـامة نصف ساخرة، نصف عابدة، ثم يقدم له البخور من دماء قلبه، من أعماق روحه الكبيرة. وهكذا.. مـن المحـال أن يعـيش الإنسان، ما دام إنسانا، بدون هذا الوهم.

وأنتما... أنت وجانيت.. قد يعتريكما الشك، ككل مفكر، وقد يفترسكما الألم، ككل الأرواح الكبيرة. ولكن.. إن لكما من العاطفة النبيلة التي تعمر صدريكما، لكما منهمـا وهـم سـام رفيع، نبيل، سوف يرشدكما في يوم ما، إلى تلك القوة الهائلـة الرائعة، إلى النبل المجيد.

كلا، كلا، أكرر لك، وسأظل أكرر، إنه يجـب، يجـب بدافع من العاطفة المقدسة التي قد بقيت لك على الأقـل كمـا تقول، يجب أن تنهض من ذلك القبر المظلم المخيف، يجب أن ترتفع إلى النور، يجـب أن تبعـث، وإلا فمـا قيمـة تلـك العاطفة؟إنها نوبة وأؤكد لك – وسوف تمر، سوف تختفي، كما

تمر أجنحة طيور الليل، ثم تختفي في الفجر الرمادي الزاحف الذي يشرق في كبرياء.

أخي..

إنني أصور لنفسي حياتك تلك التي تصفها.. بكل هـذا الوضوح، المؤلم الغامض مع ذلك، فأرتعد، وأخاف، وأغمض عيني، كأنما لأبعد عن نفسي صورة مخيفة، لا أجسر أن أحدق بها.

أنت لا تكتب شيئا على الإطلاق، ولا تحس شيئا رفيعـا ساميا، وقد تكون لا تقرأ، وقد تكون لم تر لوحة فنية رائعة منذ أسابيع، أو لم تسمع قطعة من الموسيقى منذ شـهور، أنـت – فقط – " لا تنقطع عن المشارب ودور السينما والسهرات "، ثم أنت، أخيرا، لا تنقطع عن التفكير المرير المظلم، " ولا تـرى حولك من يحس شيئا، أو يرى شيئا، فكلهم جامدون.. قاسون.. حيوانات ".

نعم، أي صورة مذعرة، أي موت حقا. ولكـن.. لمـاذا أيضا، لماذا... لماذا لا تقضى أيامك ولياليك في رفقة القلـوب الكبيرة التي قد عبرت بإنسانيتنا هذه، وتركت لنا حياتها الخالدة

في مختلف صور الفن المجيد..؟ لماذا..؟ وإن كنت حقا تفعـل هذا، فإن هذا لن يكون بأي حال موتا، أو شبه مـوت.. فإنهـا الحياة، الحياة الحقة، الحياة الروحية، ولعلها الحياة الوحيدة.

لماذا لا تعبر عن نفسك في صور من الفن الذي تحبـه؟ لماذا لا تجعل " الحياة " تنبعث من ذاتك لكي تضـفيها علـى كائنات روحية أخرى جميلة؟ لماذا لا تكتب، أيهـا المجنـون العظيم ! لماذا؟

الموت؟ ! كلا، إن لك روحا خصبة كبيرة، لا يمكن أن " تدع الموت يأتي في سكون، ودعة، وهدوء ".. أنـا لسـت أتملق، ولست أحاول أن أرتدى مسوح الوعـاظ والمرشـدين. إنما أنا الصديق الوحيد الذي يعرفك، ويفهمـك، ويحبـك، إن روحك الكبيرة لا يمكن أن تموت، أؤكد لك..

ولماذا التأكيد؟... ها هو ذا الدليل بين يدينا.. فانك أنت تحس الموت، والقبر، والظلمة، في تلك الحياة التـي يحياهـا جميع الناس بلا مبالاة وباستمتاع أنت لا تطيق هذه الحياة، لأن في نفسك نزوعا إلى شيء أنبل، إلى أفق أسـمى، وأرحـب،

وأكثر امتلاء بالنور... أليس في هذا الدليل على أنك لا يمكـن أن تموت كما تقول.

عزيزي.... أن في " الحياة " نزوعـا إلـى الامتـداد، والفيض، وروحك ملآنة بالحياة، ولكنك تحبسها، تضيق عليها الخناق، لا تجعلها تنطلق، تنطلق مع نغم أو صورة أو كتـاب، تنطلق إلى الأجواء المقدسة، إلى الآفاق السامية، إلـى حيـث تصبح السعادة ألما، ويفنى الألم في السعادة.

يا عزيزي كلا... يجب أن تعـود إلـى إلهـك الـذي أنكرته.. يجب أن تركع أمام الفن وأمام الحـب اللـذين همـا مظهران لشيء و احد، هو تلك القوة الهائلة السامية التي تحكم العالم.

نعم... إنني لا ألغز، ولا أحاول أن أعمي، فـا ، ا الذي يعيش في نفوسنا، النزوع الغريب الذي لا يقـاوم إلـى أشياء غريبة، القوى الهائلة السامية المعذبة الحلوة التي تجـد طريقها إلى الخارج عن طريق الفن أو الحب أو الدين، هذا هو ا ، وهذه هي " ملكوت السموات " كما يقول المسيح.. فهـل يمكن أن ننكره؟

كلا، يجب أن نحمل صلينا ونمشـى، تعبـين مقوسـى الظهور، نحس بالنهك، لأننا نحمل ثقل الإنسانية فوقنا، لكننـا نحس بالحنو الغريب الذي يملأ قلوبنا نحو هذا التعب، ونبستم.

هذا ما أتصور، هذا ما أوقن به، وهذا ما أرجوه.

عزيزي...

لست أدري... انك مجنون بلا شـك، إنـك " أجهـدت رأسك حتى تعب "، إنك مريض، وبدون هذا لا يمكن أن تفسر تلك الصيحة المخبولة، هل حقا كم تود لو ماتت هـذه الفتـاة؟ إذن، فأنت مجنون، أنني أرتعد لمجرد ذكر هذا .كيف تعـيش أنت إذن،وكيف تموت أنت ؟.أنت إذن تمزق أحلامك، تمـزق حياتك، وروحك، كما يمزق المجنون جثة أحب النـاس إليـه بأظافره وأسنانه، ويحس بالجذل التعس، والغبطة المعذبة.

كلا... أفق ايها المجنون.. حطم الأغلال التي صـاغها الألم حول كيانك، انتصر على هذا الألم، نعم، أن الألم يصهر، وينقى، ويطهر، ولكنه في النهاية يقتل، ويميت، إن الألم لـن يكون قط غاية للحياة وإلا فإنها لا تكون " حياة "، إن الألم يمر

بيده الملتهبة لكي يفتح النفس ويجعل الروح تفيق، تفيق لكـي ترتفع، وتسمو، وتخلد.

أنت تقول إنك " حطمت الدنيا الوادعة التي كانت تعيش فيها، والقيتها إلى أعماق الجحيم الملعون الذي كتب علـى أن أعيش فيه "، " لكنك في الواقع قد رفعتها مـن المـوت، مـن الحياة الخاملة الطيبة التافهة، لكي ترشدها إلى ما في أعماقنـا جميعا من حياة نبيلة رفيعة خالدة، نعم، أن فيها الألم، ولكـن فيها السعادة الرائعة التي تطغي على آلام الجحيم نفسها، نعم، من يجرؤ أن قول إن العمل الفني الرفيع لا يستحق أن يعـيش في سبيله المرء حياة بأكملها كلها عذاب، وألم؟

نعم، لشد ما هي صادقة، كلمة جـان لا هـور: " هـذه الأكاذيب التي تغرينا بالحياة، وتجعلنا نصفح عن هـذا العـالم المجنون، أحبها، وأحب معها الموسيقى والشعر والحب ".

كلا، إنها ليست جحيماً مطلقا تلك التي نعيش فيها، إنـه مزيج من السماء والجحيم، من السعادة والعذاب، من التسامي والانسحاق، من المر والبخور.

إننا نتألم، ونموت، يا إلهي.. لنتعلم التضـحية، لنـتعلم النضال في سبيل تحقيق " الحياة ".

تقول لي: " أتذكر تلك السماء التي عشنا معـا فيهـا "، نعم.. أذكرها، ولكن لماذا أنت يائس، لماذا لا تعيش، وتحيـا، هل تفهمني؟ لكي تتفتح مرة ثانية أبواب الفـردوس المطلقـة ؟..لماذا لا تحيا حياة حقيقية , لكى ترتفع مرة أخرى إلى هذه السماء، وتحقق هذه السعادة، وتنال مرة أخرى تلك الأكاذيـب التي تكمن في أعماقها الحقيقة العليا؟

لم لا؟ إنني أسأل في جنون.. ولا أظفر بجواب، إننـي لست أفهم...

صديقي....

أخيرا، كم أحترق شوقا إلى نغمة جميلة منك.. كم أريد بجنون.. أن ترتفع عن هذه الوحول التي قد سقطت فيهـا أنـا أيضا لمدة ليست بالقصيرة، وحول الألم المنطوى على ذاتـه، المحترق في نفسه، الألم التعس الشيطاني اللعين.. كـم أريـد بجنون، بكل قوى صداقتي، أن تمزق تلك الظـلال السـوداء، وأن تحطم هذه الأسوار الساحرة، المقيتة.. إنك لا تعلـم كـم

يؤلمني كل هذا.. أن التأمل يا صديقي " قد يكون فـي بعـض الأحيان في غير موضعه، وقد يقودنا إلـى طريـق وعـر "، لنرتفع.. لنرتفع.. لنرتفع.. إننا ننال نصيبنا كاملا من العذاب، فلنثأر لأنفسنا من هذا الألم، لنعتصرها قطرة قطرة، بكل قوى حياتنا، فإننا قد دفعنا ثمنها دموعا، وآلاما، وتعاسة.

لنحلق... لنحلق... فإن في الحياة آفاقا نبيلة كثيـرة، إن في أجنحتنا التي مزقها الألم.. لقوة تستطيع بها أن ترتاد الآفاق البعيدة، وأن تحلق في الطرق المجهولة، وأن ترفع المصباح.

ماذا يهم بعد ذلـك؟ لا شـيء، فلنحلـق.. لنحلـق... لنحلق... يا صديقي.

(وبعد كل هذه السنوات، أما زالت تلك عقيـدتي التـي أخفيها أحيانا عن تقية، وأفصح عنها أحيانا؟ أم هل انكسـرت تلك الأجنحة، كما انكسر القلب؟ هل انكسر القلب؟).

عزيزي..

إنني أود بجنون أن أراك.. لا لأي شيء إلا لكي أنشب فيك مخالبي، فأنا أريد أن أنتقم لنفسي من هذه الوريقة اللعينـة

التي بعثتها تقول إنك حاضر لزيارتي في قطار الســاعة ٢/١ ١١ صباح الجمعة، أيها اللعين!

فهو إذن مقلب نظيف وأنت لم تحضر قــط كمــا هــو واضح من خطابك الأخير، فإيــاك.. إيــاك أن تتــأخر عــن الحضور – بجد – في الأجازة المقبلــة، فــإن بينــي وبينــك لحساب!

وهل تعلم – مثلا – أنني لا أدرى إن كانت خطابــاتي تصلك على الإطلاق.. فانك لا تشير إليها بكلمة.. اشتمها يــا اخي، العنها،كوم عليها كل سباب الأرض فقط أذكرها بكلمــة ،لكى أعرف أنك تقرأها على الإطلاق على أي حال، فإن عدم ذكرها هذا هو من أعراض الجنون الذي ترتع فيه، فهنيئا لك، على كل حال، هنيئا.. أو قد يجدر بي أن أهنيء أيضا مكانــا آخر تعرفه أنت بلا شك..!...

عزيزي " الميت "...

أرجو أخيرا أن تحيا، وأن تكلمني كما يتكلم العقلاء، أو المجانين، لا كما يتكلم الأموات، ولو أن المثل القديم مــا زال صحيحا فإن الأموات لا يتكلمون، وهذا دليل على انك لســت

ميتا، في النهاية... والآن ألا تصـدق إعجابـا ببراعـة هـذا المنطق؟ شكرا.. شكرا... كفى.. فقد أخجلت تواضـعي.. أي أنني أرجو أن تكتب لي، كما اعتدت أن تكتب قـديما، والا... لست أدري على أي حال ماذا أستطيع أن أفعل، الغالب أنني لا أفعل شيئا على الإطلاق، لأنني واثق انك لن تكتب، ولن تعني، ولن تهتم إلا بأن تكوم على رأسي كومة كبيرة مـن الخبـال والعته...!

أخيرا... أنا شديد الأسف لأنني لم أكتب لجانيت حتـى الآن... ولو أنني اعدك أنني ساتمم هذا قريبا جدا.. وأظـن أن في هذا كله الكفاية وما فوق الكفاية. ولو أن في جعبتي أشـياء أخرى كثيرة، لاعداد لها، وأنا منتظر خطابـك قريبـا، أنـت تعرف أي نوع من الخطابات انتظر.

في الختام... إلى اللقاء أيها العزيز المجنون.

(............)

صخرة جرانيتية صغيرة مأخوذة عنوة من أرض هضبة الأهرام، تتناثر فيها نقط سوداء وبيضاء وبقع دقيقة من الأحمر القديم وبها أبر مشعة وخازة تومض فوق السطح الصـخري.

شعلة وعى صغيرة متذبذبة الإشعاع سـوف تنطفـئ وشـيكا صرخة نورس وحيد ساقط الأجنحة على صخرة سوف تطفي عليها مياه أبدية بل لا زمن لها.

كيف أقول إن النهاية تقترب جدا، وأنني أعرف، وأنني لا أهتم حقا، أقوله بصياغة لا رومانتيكية؟ وإلى متـى أظـل غارقا في وحل رومانتيكي؟

أسير مع وفيق القديم في شارع شريف، نتفـرج، بعـد المدرسة، على الفاترينات الأنيقة في الشارع الأرسـتقراطي، محلات الصاغة والتحف والملابس الغاليـة (التـي رأيتهـا مكسورة منهوبة يوم إضراب البوليس في ١٩٤٧ وأصـحاب الجلاليب يخطفون لأنفسهم مـا اسـتطاعوا ويجـرون بينمـا العساكر في ملابسهم السوداء ينظرون إليهم بـلا اهتمـام ولا حركة)، وهو يتأبط ذراعي ونتحدث بحرية نادرة عما نـرى وما نحس وما نحلم وما نأمل (وطبعا هذه كلها ذهبـت، مـا تحقق منها وما لم يتحقق سواء)، أو نـذرع شـارع صـفية زغلول متجهين إلى محطة الرمل القديمة، والبحر يبعث إلينـا بهوائه الملحي المنعش عبر أشـجار النخيـل علـى المبنـي

النيوكلاسيكي الصغير، ونصل إلى محل العصـير المفتـوح حديثا، باهرا بأدواته اللامعة وإغراقه بثمار الفاكهة المكومة في سرف على الرخام، والماكنات تئز ببهجة، بعد سينما الهمبـرا (التي هدمت، وحلت محلها فرشة مغطاة، من قماش الشوادر، وتكومت فيها ركامات من الكتب التي تنذر بعـذاب الآخـرة وحساب الملكين وظلام القبر وخروج الجن من الأبـدان، ثـم احترق جانب منها وجانب من سينما ستراند وكافيتريا الغزالة التي تحولت إلى بنك بعد ذلك، وهو ما زال يتـأبط ذراعـي بحركة ود وإخاء وإعزاز لم أعرف مثلها قبل ذلك، ولم أعرفها بعد ذلك إلا مع نساء أحببتهن كثيرا.

الإسكندرية مساء ١٥ فبراير سنة ١٩٤٣

عزيزي وفيق...

يخيل إلي.... إنني كنت مخطئا، حين رحت أنتظر ردا لخطابي الماضي، طيلة الأيام، طيلة الأسابيع، طيلـة الشـهر الماضي كله، لست أعني أنه لم يكن واجبا أن انتظر، بل أعني انه كان يجب ألا انتظر... !

كلا.. ليس في الأمر سفسطة أو تفلسف فارغ.. فهناك فارق كبير بين " عدم وجوب الانتظار " وبين " وجوب عدم الانتظار " ففي الحالة الأولى... تكون المسألة من التفاهة بحيث لا يجب شيء ما، وفي الحالة الثانية تكون المسألة من الخطورة بحيث " يجب " وجود أو عدم وجود شيء ما...

والآن، انتظر قليلا... لا تطلق تلك الضحكة المدوية المرعبة، بل فكر قليلا، قليلا فقط..! قلت إنه يخيل إلى أنني كنت مخطئا.. كلما هممت بالكتابة إليك.. ثم رحت انتظر، يوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع، أنتظر ردا من صديق صامت، بعيد، مصمم على الصمت، عازم على أن يظل بعيدا.

ما أضعفنا يا صديقي.. ما أشد ضعف إنسانيتا...!

إن أقوى العواطف، أن أنقى ما يعتمل في قلوبنا منها، إن أعمقها وأثبتها.. محتاج أشد الحاجة إلى وقود دائم، إلى غذاء مستمر، يمد لهبها النهم بالحياة.. إن فضيلة الحيوان وحدها، كما يقول باسكال، هي التي تستطيع أن تكتفي بذاتها.. إن الإنسان، ما دام إنسانا، هو حلقة واحدة خافقة حية، في

سلسلة طويلة، يؤلفها جميع الناس بأيديهم المتصـافحة، كمـا يقول جيو..

نعم، يا صديقي، لماذا لا تكتـب إلـي؟.. لمـاذا تظـل بعيدا..؟ لماذا ترفض أن تمد يدك على البعـد، لتتلاقـي بيـد أخرى، مرتجفة، باحثة، محمومة، لكي يرتفعا على الظلمـة.. لكي يتحدا في العاصفة؟

هل هذه هي النهاية كما تقول، " نهاية حياة كانـت ذات يوم أجمل وأنقى حياة في الوجود.. ".

كلا، كلا، إنها ليست النهاية، إنها لا يمكن أن تكون.

أنني أرفض، بعناد، أن أقبل مثل هذه النتيجة، فإن هـذا يكون مروعا، مخيفا، مميتا....

أنني أحس، في غموض، أن هذا ليس صحيحا...

كلا.... قل لي يا صديقي أنه ليس صحيحا، وإنهـا لـم تكن أكثر من نوبة من حمي خبيثـة.. مضـت.. وانتهـت.. وانقضت آثارها....

تقول إنك تعيش في موت دائم مخيـف، ثـم تصـمت، وتصمت، وتظل صامتا..

ما معني هذا؟ ..إنني لا أبحث عن معناه، أن هذا يكون تعسا مخيفا، حقيقيا، قاتلا.. فليس في الوجود أقسى ولا أهـول من الوحدة الروحية... من الظلمة المميتة التي تخلقهـا هـذه الوحدة، من العذاب – العذاب المميت – الذي يقتل من يحـس بها....

وأنا.... لقد أحسست بهذه الوحدة، بكل قسوتها، وهولها، وعذابها، طيلة الشهر الماضي.

يا الهي.. لقد انقضت هذه الفترة، لقد ذهبت، لقد ذهبت..

لشد ما أخافها، لشد ما ارتجف لذكرها، لشد ما ارتعـد، لأنني عارف انها مضت.. ولكنها ستأتي ثانيا.. ستأتي بأشد.. وبأهول.. وبأروع، مما أتت.. إن كان هذا ممكنا.

أنني فهمت التعس، يا صديقي، لأول مرة، فهمته علـى حقيقته، لأنني أحسست به، في قمة طغيانه، وسطوته، لأننـي تلويت في قبضته، لأنني عبرت جحيمه.

لقد اصبحت شيئا جديدا، بعد ذلك الشهر المميت، حتـى لقد ارتعب اهلي، وذعروا، فقد نحلت، فيما يبدو، نحولا مخيفا، وأصبحت لا أبدو إلا واجما، عابسا، تعسا، " كمن يحمل الكون

كله على كتفيه "، كما قالوا – والكارثة أن حـبهم هـذا، هـذا الحب الأعمى الذي لا يرى، ولا يفهم، كان عنصرا جديدا آخر لإلهاب النار الآكلة التي كانت تضويني.

يا إلهي، لقد انتهت هذه الفترة، وخمدت هـذه الجحـيم، أنني لا أكاد أصدق، أنني ارتعد، في ذعر حقيقي، عندما أحس أن هذا الهول خامد فقط، وانه قد ينبعث في اية لحظة، ساخرا، مقهقها، مزمجرا، كشيطان مجنون تعس... يريد أن ينتقم.

انني لم اكن أدرى أن في الوجود كل هذا القـدر مـن العذاب...

لقد كنت أغبطك، من اعماقي، على هذا الجمود الـذي تتكلم عنه والذي لا أكاد أقبله، أما الآن، فقد اختفي العذاب في ضباب رمادي هادئ.

لقد سقطت في نوبة قصيرة كما اعرف، مـن نوبـات اللامبالاة الحيوانية الهادئة التي تجعلني أستطيع أن انظر إلـى الماضي بنوع من الهدوء المتثائب الملول.

لعلك تتساءل الآن عن مصدر هذا كله، لعلك، كما آمل، تحس شيئا ما، تحس على الأقل بالفضول لمعرفة سـبب كـل هذا.. ما دام الإحساس نفسه قد صار نعمة نادرة بالنسبة لك.

إذن، فانا استطيع أن أجيب هذا التساؤل... وأن أشـبع هذا الفضول. إن وجدا...

إنها المسألة القديمة، القديمة، إنه شيطان الشك.

انه العذاب الإنساني الكامن في الأعماق، عذاب التمـرد على الوجود.

إنه الإحساس المرير بالوحدة الروحية.

هل تعرف ذلك الإحساس يا صديقي...؟ كلا، كلا، إنـه النقمة المتجسدة. هو أن تفيق فجأة، فتجد نفسك وحيدا، في عالم واسع، رهيب، مخيف، عالم صلب جاف، صامت، عالم ملـئ بالأنقاض.. وبالظلمة، وبالهول البارد القاتل، الجامد، المميت، هو أن تدير حولك، في كل مكان، بصرا ذاهلا، زائغا، لا يقع إلا على حطام.. هو أن تحس ملء رأسك بالحمى، وملء قلبك بالجليد.

هو أن يتخلى عنك كل شيء، كل شيء، فتجـد نفسـك زاحفا بين أكوام من الشقاء الصـامت السـاخر فـي صـمته وجموده، هو أن تصرخ، في جنون، فلا يرتد إليك إلا صـدى لصرختك، صدى ميت، مثقل، يرن في جوانب عـالم مقفـر، موحش، مذعر الفراغ.

هو أن تبكي، ثم تسخر من دموعك...

هو أن تمزق، بأظافرك أنت، ذات نفسك، وأن تقهقه في جنون، بينما تتساقط على جرحك الفاغر المفتوح قطرات مـن دموعك المحرقة اللاذعة، تمتزج بـدماء المـرارة وقهقهـات الجنون...

هو أن تركع ألف مرة في اليوم.. وتبصق في وجـه العالم ألف مرة في اليوم.

هو أن تتحطم، ثم تبعث لكي تتحطم من جديـد، ولكـي تبعث ثانيا لتتحطم مرة أخرى، بقوة أشد، وإلى ما لا نهاية من المرات، هو أن تلعن الوجود، وأن تدعو الموت بكل حـرارة قوى الحياة ثم ترتجف.. وترتعد... وتنسحق... أمام الوجود.. والموت والحياة جميعا...

هو أن تحمل لعنتك.. لعن الأبد – تحملها بكل ثقلهـا – لتجررها.. محطم الظهر.. محنى الجبـين.. تجررهـا بـين الوحول.. واللهيب.. في طريق منحدر نحو الظلام.. الظـلام الصامت البارد المخيف.

هو أن تعيش تعسا، بلا أمل، ولا عزاء، ولا يأس أيضا.

هو ألا تتعزي بنبل آلامك، بل ترجعها بكل قسوة إلـى آلام وضيعة مادية تافهة نذلة..

هو أن تتحطم تحت ثقل الوجود وتسخر مـن الوجـود، وأنت تبكى.

هو أن تبحث عن شيء، مجهول.. بعيد، ساخر بلا أمل، ولا عزاء، ولا يأس أيضا.

هو أن تحترق رغبة في أن تتشبث بشيء واحد ثابـت مقدس، ثم لا تجد..

هو أن تفقد كل إيمان، بكل شيء.

هو – يا صديقي – العذاب...

نعم، لقد كانت فترة مخيفة من حياتي.

إن هذه الحمى لم تستمر ابدا طـوال هـذه المـدة فـي الماضي.

نعم، فليست هذه إلا مرضا. الأصـحاء لا يمكـن أن يحسوا بمثل هذا...

وهذا ما يزيد العذاب.. أن يعرف المرء انه مـريض.. وأنه تافه، وضحل، ثم لا يملك شيئا...

من يصدق أنني أفقد الايمان بكل شيء، حتى بالفن الذي ثبت لكل شيء في الماضي..

الماضي البعيد الذي ا نهار فجأة، وبقسوة..

ما زالت تلك القاعدة القديمة كما يقول باسكال صحيحة.. سافرة في صحتها، دامغة في أنها حق:

هو أن الاعتدال في كل شيء واجب وضروري.

ولكن ما جدوى كل ذلك؟

هناك جوع عميق في النفس، جوع لا يشبعه المنطـق، ولا الفلسفة.. جوع عميق، عميق، مخيف، العمق، شره إلـى الإيمان.

ولكن، أين هو ذلك الإيمان؟

لقد حاولت مرارا، حاولت كثيـرا، أن أومـن.. بـالقيم الإنسانية، بالخضوع الملائم، لكي أجد السلام، والهدوء النبيل.

ولكني تعس – أنا أيضا- وتافه، وضحل.

لقد فشلت دائما... وفي كل مرة...

إن في اعماقي وحشا ساخرا، متدفق الحياة، قـد يغفـو قليلا، لكنه دائما متحفز، دائما نهم، دائما متمرد، صارخ، ينفث في نفسي الظلمة، والتعس.

إن اسمه الشك.

الشك الذي يصحبه طغيان الحساسية، وطغيان المخيلة، وكلاهما عدو للسلام، وللهدوء، ولكن ما الفائـدة؟ ان مرضـا آخر يعذبني..

هو أنني دائما أحقر نفسي، وأرثـى لنفسـي بنفسـي.. وأسخر من نفسي، لذلك لست أدري... إنني ضال، تائه.

ضال عنيد، وعاجز وضعيف، لا يجد من نفسه المقدرة على اتباع " الطريق ".

لقد قال: " أنا الطريق.. وأنا الحياة.... ".

لقد قال: " تعالوا إلى أيها المتعبين وثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم ".

لشد ما يكون هذا جميلا، وسعيدا...

لكنني لا أستطيع.. أليس هذا مخيفا.. وشقيا؟

ما الفائدة. ما الفائدة من كل ذلك؟ ..لا شيء.

لا أمل، ولا عزاء، ولا يأس! حتى اليأس لا أمل فيه..

حتى هدوء اللامبالاة، لا أستطيع أن أتخذه، ولا بطولـة المتشكك الذي يشق الطريق، دون أن يتحقق من شـيء، دون أن يبالي بأنه لا يوقن بشيء يقينا نهائيا.

أنني احترق في جحيم حقيقية مفتحة الأبواب.. ولكننـي في أعماق اللهيب انظر إلى الأبواب كلها وأعرف الطريق إلى كل منها ولا أقوى.. حتى على مجرد الخطو. قد أغفـو فـي وسط اللهيب.. وقد أحلم.. بين النيران.. وقد أنسى قليلا.. أنني في الجحيم.. لكنني دائما أستيقظ في رعدة لكي أترك اللهـب يمزق روحي.

أنني معلون يا صديقي.. ملعون.. ملعون...

وعلى أن أحمل لعنتي.. بكل ثقلها.. خلال هذا العـالم.. ومن يدري.. قد أحملها أيضا.. طوال لا نهاية معذبة.

ثم... وفي كل هذا العذاب المخيف.. انظر حوالي.. فلا أجد إلا ما يزيد من العذاب.

حتى صديقي الوحيد، يصمت، ويصمت، ويظل صامتا، بعيدا.

آه ياصديقى ..اننى لاألومك ..فاننى أعرف كل شىء.

أنني أقدر ما تعانيه أنت أيضا.. أنني اعرف اللعنة التي تدمغ حياتك أنت أيضا.. ولكن..

آه.. من ذا الذي يستطيع أن يتخلى عن الأمل؟

في يوم من الأيام.. يوم بعيد.. مشرق.. ضـاح.. يـوم جميل مملوء بأشعة الشمس النقية.. يوم حافـل بالأرغاريـد.. وبالعطر.. في مثل هذا اليوم.. قد نرتفع من مستنقع آلامنا.. قد ننفض في كاهلنا لعنة الوحول.. وقد نغتسل في نار مقدسـة.. وننطلق.. في السماوات.. ننطلق إلى.. بعيد.. إلـى النـور.. والجمال.. إلى أشياء طاهرة.. رفيعة.. مقدسة.. ونحلـق فـي أشعة الشمس.. وفي زرقة السماء...

يا له من حلم يا صديقي...!... يا له من حلم..!

وإلى أن يتحقق هذا الحلم.. أو إلـى أن تنتهـي هـذه المأساة، ويهال عليها قليل من التراب، إلى أن يحـدث هـذا.. لماذا ترفض يا صديقي.. أن نتعزي بآلامنا عن آلامنا.. لمـاذا تصر على أن تظل بعيدا، لماذا ترفض أن تمد يـدك.. علـى البعد لتتلاقي بيد أخرى مرتجفة.. باحثة محمومة، لكي يرتفعا على الظلمة، لكي يتحدا في العاصفة،؟

(هذا النداء اللاعج، لوعة السؤال، ألا تكف أبدا؟ عرفت منها، عبر السنين، أن اليأس له وجه منير).

يا صديقي..

قد أكون أنانيا، وقد أكون تافها وغثا، وقد تكون آلامنـا كلها فقاعة من الزبد.

قد يكون كل هذا حقا، وقد يستطاع كل هذا...

ولكن..شيئا واحدا.. لا يمكن أن يطـاق، ولا يمكـن أن يحتمل..

هو أن يكون ما تزعمه أنت شيئا ثابتا دائمـا، مسـتمرا داحضا...

هو أن تصر على هذا الصمت، وأن تهمل تلك الحيـاة الروحية، ولو كانت كلها آلاما وعذابا، ولو كانت الجحيم هـي الثمن...

كلا أن هذا النوع من الموت – ولـيس المـوت نهايـة الحياة – هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن.. لا يمكن بأية حـال أن يحدث.. الصمت؟ أنه كفيل – بكل بساطة – بأن يقتلني.

أكتب لي.. اكتب لي مثل ما كنت تكتب فى الماضـي.. أو اكتب لي مثل التفاهات التي أكتبها لك أو أكتب أي شيء.. فقط.. لا تصمت....

نعم.. ليس هناك مجال للمجـاملات الاجتماعيـة.. أو للعبارات الملتوية الرقيقة الدبلوماسية.. أو لكل هذا الهراء، اننا أقل الناس جدارة بمثل هذا، للأسف الشديد.

وجانيت؟ كيف هي؟ نعم، إنه من المؤلم أن تستيقظ هذه الروح النبيلة على ضجيج الألم، ثم تنتهي آخـر الأمـر إلـى ضجيج الألم...

إن هذا وحده يدعونا إلى الأمل لا إلى اليأس.. أو هذا ما يجب أن يكون.. نعم.. أنني ارجو أيضا أن اقرأ لها شيئا ما..

فإن في الحياة الروحية مجالي أخرى واسعة، رحيبة، جميلـة حافلة بالجمال – غير الألم – وكل ما أرجو ألا يفقـدها الألـم هذه السعادة الأخيرة، سعادة الحياة الروحية.

(الحياة الروحية؟ ما أشد براءة هذه الكلمة، فيما يبـدو وما أكثر ما تضمر من خفايا الجسد المتنزية الجائحة.. الحياة الروحية !).

عزيزي...

لست أدري... قد يبدو هذا الخطـاب صـرخة ممزقـة مخجلة، وقد يبدو متعثرا ، أو ضحلا.. أو غامضا، ولكنـه.. على أي حال – حار، وصادق.

نعم، يا صديقي، إن كلينا في حاجة إلى الآخـر، ومـن المؤلم حقا أن تصمت هكذا.

ان هناك شخصا واحدا كنت اعرفه وكنت أحبه، وهـو الآن صامت...

وسيظل صامتا إلى الأبد، شخصا قد عبر هذا العالم إلى المجهول اللانهائي. شخصا ما أزال أذكره، دائما، في وحدتي وأبكي صامتا منسحق القلب دون أن يدري احد...

(أبكي فقدانا لا يعوض لذات نفسي .كم أفتقدك أختـي. شق ذاتي الأخرى).

ولكن... يا الهي... أنني ارتجف.. إذا قارنتك بها.

كلا، إنك ما تزال حيا، متدفقا بالحياة، الحيـاة الجائحـة الرائعة التي تتألم وتصرخ وتسعد وتفرخ، وتتسلى، وتنطلق في ضحكة رائعة.

أليس كذلك؟ نعم، نعم، قل إنه كذلك.

أما ذاك القبر، القبر الصغير المجهول المنسـي، فإنـه يعيش في ركن آخر من حياتي...

(قبر لم أزره مرة واحدة في خمسين عاما، وأزوره كل يوم).

ولكن.. يا رب الجحيم.. هأنذا بدأت مناحة أخرى.

لا بأس.. إن الروح التي تنتحب، لا يمكن أن يتسـاقط منها إلا الدموع..

عزيزي..

لست أدري إن كان يحق لي أن أنتظر أو لا يحق لي أن انتظر أو يحق لي ألا أنتظر أو لا يحق لي ألا انتظر..

نعم... فهناك فروق بين كل منها.. ولكن...

حسنا.. سأعفيك هذه المرة من هذا العقاب.. ولن اشرح لك الفروق!

نعم.. نعم.. سأجيب توسلك.. ولكن .. اياك أن تضغط كثيرا على صبري! وإياك أن تحرج صدري أكثر من حد معين.. وإلا.. أنت تعرف على اية حال.

نعم، وإذا تأخرت في الرد، فأقسم لك.. بالقوى الخفية والظاهرة، وبالجحيم والأبالسة.. أن أرسل لك خطابا، نعم خطابا واحدا لا غير، وأقسم لك، أنك ستمزق شعرك، وتحطم رأسك، وتدعو الجحيم والأبالسة، والقوى الخفية والظاهرة، ولن تفهم منه مع ذلك حرفا.. إنه يكون عقابا هائلا مخيفا قاسيا، وتكون أنت الذي سكبت المياه الساخنة على رأسك! والذنب ذنبك، على اية حال.. هيه، آمل أن يصلني منك إذن قريبا جدا خطاب، ومن جانيت أيضا.

وإلى اللقاء

(..........)

اعرف – بوضوح – أن هذا الخطاب بالذات لم يصـل إلى وفيق، كان قد جاء من القاهرة والتقينا، ولم نشر إلى مـا جاء فيه بكلمة، كنا قد بدأنا نتوجس من عنف مشاعرنا، مـن حميا القلق والمضض. كأنما فقد الخطاب مصداقيته، ومعنـاه، لأنه لم يصل – هل كان له معني، اصلا، أو مصداقية؟ - بل كأن لقاءاتنا بعد ذلك أصبحت عبثية – كما تكـون اللقـاءات عندي – إلا نادرا – أدني وأهون بكثير من لحظـات الحمـى وسورات الكتابة، أقول " إلا نادرا " ولا أقول – للاسـف، أو لحسن الحظ – دائما.

" لولا اليأس ما انقطع الهوى ".

ما أغرب شعر جرير، حتى لكأنه غير حقيقي.

هل اليأس يبقي الهوى متصلا؟ هل اليأس هو الذي يمد الهوى بزاد لا ينفد؟ اليأس سر اتقاد الهوى؟

يأتيني أحيانا مشهد لقاء مراود.

أقول لها: لا تتكلمى. دعيني أحضنك الآن، فقط، لا أريد أن أقول شيئا. سوف نشتجر مليا، ربما، فيمـا بعـد. سـوف

تلومينني ربما، فيما بعد، ولك حق، الآن فقط دعينـي انظـر إليك، أملأ روحي من جديد بمرآك.

مشهد يمليه اليأس، حلم كأنه حقيقة لا دحض لها. أمـل أعرف أنه لن يتحقق أبدا.

" وأما اليأس فهو أخ شقيق.. كأن القحـط عبـرة كـل أرض.. فسيان التهائم والنجود "

نعم يا بن بابك، رفيق التولج – هازئا بالأمـانى – فـي دلج لا استيضاح لها ولا انجياب.

هل ستغسلين قميصى الآن – كما كنت تفعلين في الزمن الآخر – من لوثات الامل الخداع؟ انتقع فـي " وشـل المـاء المدمن الذي يزجي سفنا مجنحة " , إلى قرار هوات بلا قاع.

في ذلك الزمن – باقيا وماثلا الآن وإلى دهر الـدهور. كنت جالسة على كرسى المطبخ المنخفض وأمامك الكروانـة، أم هل هو الطشت الصغير؟، ومن ورائك الغسالة الكهربائيـة آخر موديل، وأنت تشطفين القميص بعد أن كنت قد نقعته فـي الماء والصابون طول النهـار، أصـابعك القـادرة المحنكـة المكتنزة قليلا في الرغوة البيضاء الضاربة إلى رمادية خفيفة،

وعلى وجهك مسحة سهوم واستغراق، كمن يقوم بطقس أو يفى بعهد أو يقدم قربانا، استغفارا عن خطيئة غابرة أم اســتمطار لأمل منظور؟ أم لمجرد إتقان ما بين يديك من عمل؟ لماذا هذا المشهد لا يبارحني – من بين مشاهد أخرى – ألا لأنــه فــي بساطته ويوميته محمل بدلالة تذهب إلى غور نفســي؟ أم لأن ترفعك وكبرياءك الروحية قد تجسدت في إيماءة اتضاع لــيس فيه أدني ابتذال؟ أم لأنه، ببساطة، يقول الحب، دون كلمات؟

قلت: I care for you, I'll always do

قلت: دائما؟

أقول: ما معني انك تهتمين – أو تعنين بي؟

يا لبؤتي الجميلة الشرسة عاقلة الوجه جامحة الشــهوة، عيونها مروج خضراء ناضجة، تضم ريش جناحيهــا علــى نهديها المكبوتين المتحديين، قابعة على رخام الآن ومحلقة الآن نفسه في سماء مثقلة بالسحب لم تحدث في الماضي، جناحاهــا شاسعان ومخالبها أظفار طويلة قانية المانيكير، ضــاربة فــي عمقي.. فخذاها العظيمتان رابضتان على عجلة القدر الدوارة، على شاطئ البحر وأنت عارية بضة، دائمة...

هل أنت هنا، الآن، ما تزالين؟

٧ – لا وقت للنوستالجيا

هذه المرة لم تكن العينان اللتان تواجهاني معاديتين. بل كان الوجه كله غريبا، ثقلت عليه وطـأة السـنوات، وتركتـه حادا، قاطع الزوايا، تجاعيده محفورة غائرة.

كان وجها لا صلة له بي.

لكنني كنت اعرفه كما لم اعرف وجها آخرا.

هو قناعي، طول العمر.

أوشكت أن أهتف بـه: مـن أنـت؟ لمـاذا تـواجهني باستمرار؟ هل تطاردني؟ كان وجها فقـد البهجـة كمـا فقـد النضارة.

عندئذ تمنيت أن أرى وجهها – هي – محبة، وغزالـة، عيناها العميقتان مكحولتان بخط من مخمل ليلـى، عاشـقتين ومتسائلتين باستمرار، دون إدانة. تنتظران.

شفتاها قانيتان بدم الشهوة غير المسفوك، وعلى أعلـى وجنتها اليمنى تلك الشامة المدورة السوداء التي تؤكد تضـرج خديها بحمرة وردية فاتحة من تدفق الحميا الخفيـة، صـامتة

ومتطلبة في الصمت بعد ذلك بكثير سوف تأتي صرخة وجـع المتعة.

لم أحتمل، فنزلت إلى الشوارع، وسألت نفسي: أبحـث عنها؟ أم أحاول أن أجد نفسي؟ قلت: من أنا؟ قلت: فيم بحثـي ونشداني؟.

في قلب الحب وحشة.

أضمها إلى صدري، بكل ما في صدري من توق، فأجد بيننا حاجزا شفافا لا عبور منه إليها.

أطلال أزجي إليها التحية، أطلال هي خضر الروابـي في روحي، نضرة، عميقة، ترف بنور ليس من هذه الأرض. تنوس على سفوحها سيقان عباد الشمس صفر السنى، رؤوسها المستديرة عيون مكحولة مفتوحة في روحي في ساحة صـحن كنيسة هي؟ أم هو مسجد سامق عريق؟ أم هو الرامسيوم وقـد سقطت أسواره، فقط أعرف أنه منه ينشعب شارع اليوسـيس، مستباحا الآن، بلا حرمة.

" لم يكن عهد الهوى إلا مناما.... ".

في هذا النوح صحوى الوحيد.

يا ساكني الأطلال غضة يانعة ما زالـت، مـا أنضـر محياكم !

كما لو كنت قد لقيتكم منذ لحظة، هأنذا ألقاكم الآن، لاول مرة. ماثلون أنتم، بكل بكارة النظرة الأولى، بكل نشوة اللمسة الأولى.

صدمة البحر تداهمني في شـارع شـامبليون، ثغـرة مفتوحة نحو أبدية مراوغة، والسحاب الخفيف، مثل غياب من أحبهم، يطفو على سماء زرقاء ساجية، صامتا، لكن بيني وبينه صلة ما.

كنا في الصيف، وكنت، في غيمة مضيئة، قـد شـربت الراح معه. وكانت السماء، بلا نهاية، هـي سـقف غرفتـي المتكررة التي لم تنقض قط. وكان يخايلني، يضحك ضـحكة بلورية صافية، لها موسيقي، حسها عذب ومهدد.

أجده، فجأة، يملأ الأرض والسماء، لا يهـولني. عينـاه دائما غريبتان وحميمتان، لهما ألق أنيس وخطر. ثم أجده قـد اختفى من أمام عيني. لكني أعرف انه هناك.

كنت قد قلت له: أخلع عليك نفسي أم نفسك تخلعها علي؟

لبس القلوب عندي ليس مما تخشى مهالكه.

لكنه فقط ضحك.

هل قال لي: انزل ابحث..

هل قلت: عمن.. عم أبحث؟

أم قلت: هل البحث غاية؟ هل البحث وصول؟

عين مفتوحة في سماء جوانية ليست صافية ولا ناعمة، تضطرب فيها أمواج السحب الداكنة المتقلبة، تشقها لمع بروق تفعقع، سرعان ما تخبو.

في آخر شارع السلطان عبد العزيز كانت مئذنة جـامع القائد إبراهيم هادئة الرشاقة. كنت أحبها، وآمن إليها، عنـدما كانت هناك ساعات للكبرياء. أما الآن فكأن فيها غرابة، ونذر غامضة.

مبنى منظمة الصحة العالمية بأعمدته الكلاسيكية الزائفة يبدو ضيقا ومقتحما، وعليه حرس. وحديقة الخالدين تحولـت إلى سطح جراج تحت الأرض شكله خانق، التماثيل صـامتة خرساء، لا تعني لأحد شيئا، ومقفل عليها.

وعندما وصلت محطة الرمل، على الصـبح النضـر، وجدتها رثة صاخبة مضطربة المسالك، مزدحمة بركاكة السلع التافهة ينادون عليها بأصوات ميكانيكية: كل حاجة بجنى وربع تعال بص وشوف.

كله م المراكب الحق بجنى وربـع شـرابات حريمـي ورجالي وأتفال العب واتسلى ورق الكوتشينة بجنـي وربـع، دقدقة متصلة على الموازين القائمة لها وجوه مرقمة دائريـة، جافة ولامعة أخذت من أصحابها مسحة بشرية مهدرة، تجاوبها دقدقة متصلة من بويجية الأحذية يخبطون بانتظام على عدتهم بالفرش الخشبية، جالسين على الأرض، متجاورين، بلا زبائن.

(صعدت إلى الترام الأنيق الهادئ حتى في زحمة عـز ساعة العودة، و وجدت بجانبها مقعدا خاليـا، كانـت جميلـة وعذرية وبكرا رشيقة الخصر ورقيقة. وكان النخل السـلطاني على الجانبين هفهاف السعف. قلت لها معابثا بالسؤال التقليدي المكرور الذي كأنه شفرة: كليوبـاترا الحمامـات؟ فأومـأت مبتسمة بأنوثة بنت كبرعم وردة مغلق الأكمام ورقه الندى يلتم

على بعضه بعضا يكتنز عطرا شهويا مكنونا سوف يسـكرني رحيقه في قابل الأيام ".

كن يعبرن سـاحة المحطـة العاريـة، الآن، المكتظـة بماكنات الفشار وثلاجات الكوكاكولا ومقاصير بيـع الحلـوى والسجاير، سوداوات تماما، على رؤوسهن أغطية زرقاء قاتمة وفي أيديهن قفافيز مشغولة بالتريكو، أحذيتهن رجالية مسطحة الكعوب، ملففات بأردية أحسها ثقيلة، سابغة لا يبدو منها غير العيون اللامعة ببريق صاب، في أيديهن الأطفـال يتواثبـون بحيوية لا ينال منها شيء، ويرفعون إلى الخيمـات الأموميـة الملففة بالسواد والقتامة وجوها فيها براءة باقية وطلب للحنان.

" لحظة عبور الشارع إلى كافيتريا " غزالة " في الدور العلوي بعد سينما ستراند كانت لحظة استشراف اللقيـا ونعـم القربى ".

عبرت الشارع إلى الرصيف الذي يغص ببياعي جلـد الساعات وإطارات النظارات والصحف والمجـلات الملونـة وكتب أسرار الجان وعذاب القبر وعجائـب التطبـب بحبـة البركة، وكانت الشاورمة البايتة المسخنة مرات عديدة، بلهـب

البوتاجاز يلعق لحمها بألسنة كيماوية، تساقطت منهـا قشـور رفيعة مكومة تحتها على رقعة الألمونيوم، لها رائحـة فيهـا عطن خفيف من اللحمة الزهمة، تختلط برائحة بخـور تعبـق غيامتها فجأة من داخل محل الحلـوى واللعـب والسـوداني، زجاجه ملوث قليلا بآثار أصابع قديمة، والرجل يهز مبخرتـه بقوة وجلبابه الرمادي المغبر يمسح بلاط المحل ولحيته رمادية شهباء هائشة، صل على النبي صل ع الحبيب تكسب وكمـان زيده صلاه، وسينما فريال عليها قضـبان وأبـواب حديديـة كأبواب السجون تتردد أصداء الكلام في الصالة الأمامية كمـا لو كانت في ساحة جوفاء بين صور فريد الأطـرش وفريـد شوقي وفاتن حمامة وإعلانات كبيرة بذيئة التلوين عـن فـيلم اليوم.

لم يكن طيفها بجانبي، وأنا أمر بجانب البياعين وأمامهم بضاعتهم من الصنادل والجزم والشباشب البلاستيك صـاخبة في ركام ألوانها فاضحة في أبتـذالها، والشـورتات الرجـال اللميعة الطويلة الفضفاضة على الموضة وعلـى الشـريعة – حسب المزاعم – والقمصان الاسبور المربعات وقمصان النوم

بالحمالات الرفيعة حمراء وزرقاء من نايلون نصـف شـفاف توحى بأجسام نسوية ميتة على الفراش أو مدعوكة مهموكة في تحضير الطبيخ ومسح مؤخرة الأولاد والبنات والنـاس تأكـل الفشار السخن أحس في فمي تفاهة طعمة وهشاشـة قوامـه، أقماع غزل البنات الحمراء الهائشة تتهشم فورا تحت الأسـنان وتتعلق خيوط طيارة منها بالشفاه التي تعلق سكرها المصبوغ في سموم الصناعة من يدري في أي غرف مظلمـة سـاخنة وماطخة وتحت أي سلالم متهاوية وموحلة في حارات بحـرى أو خرابات العصافرة.

قالت: أبحث عنها؟ قديستي المنتهكة المنهوكة والمستباحة بلا ثمن؟

قلت: هل أراها أبدا بعد؟

قلت: فات أوان الحنين.

هل برح بي الطيف الذي يسري، فزادني سـكرا إلـى سكرى؟

أستنجد بك يا شاعري البحتري، ولا نجدة.

قلت: سبات الروح الكمين ليس غيابا. ولا غيبوبة.

" في طريقي إلى عملي، وحبي، فـي الشـركة التـي أسميتها أسماء عديدة وعرفت فيها " نعمة " صـاعقة الهـوى الحق، آتي إلى أول شارع النبي دانيال مـن طـرف ميـدان المحطة الفسيح، من أمام مبنى التليفون والتلغراف، تهب على في الصبح الباكر رائحة الجناين المنسـقة المرويـة بعنايـة، ويتهادى الترام في وسط الشارع الصـامت، منيـرا بـأنواره الكهربائية في وسط نور الصبح الغامر ".

مستودع زبالة السلع والكراكيب الملفوظة علينـا مـن الأسواق العالمية قذفتها إلينا مراكب سـوداء محملـة بركـام نفايات النمور الآسيوية قادمة مـن تـايوان وهـونج كـونج وسنغافورة كله م المراكب إلحق إلحق شرائط فيـديو رامبـو متضخم العضل حتى الورم المكين وصراعه مع أشباه التنانين الاصطناعية، وأفلام المصارعين المرتدين أسمالا أنيقة مطرزة التمزيق، وبقايا الكتب المصفرة متاوية الورق باعهـا تلاميـذ المدارس بعد الامتحان، وورثة الميتين هواة القراءة القـدامى، المجلات التي باخـت أغلفتهـا وبهتـت ألوانهـا وأصـبحت موضوعاتها المثيرة ماسخة وغير مفهومة، تلال الجوافة أيضا

حباتها الأمامية ممسوحة بالزيت ووراءها الحبات المعطوبة طرية الجنبات – كلها على أي حال مشبعة بالمبيدات والهورمونات – والبلح الأسود لزج الشكل له حرافة عسل مخزون في لحمه المتهرئ.

هل كنت أبحث – ما زلت – عن وجهي أم عن وجهها، في أطلال سينمات شارع فؤاد: سينما رويال، وسينما بلازا وسينما فؤاد، وهل سمعت لها أنين نزع لا ينتهي؟

" أطياف مخايلة عرفت في طواياها لحظات هدوء وأناقة مع أوديت الغابرة إلى جانبي، ويدها في يدي في العتمة الرفيقة، نتلمس معني ولا نجده حتى في إيهامات جان جابان وجان ماريه وسيمون سنيوريه وميشيل مورجان وترجيعات ناى أورفيوس تحت سماء باريس ".

وهل وجدت بغية لي في شارع شريف الذي كان ارستقراطيا واجهات محلاته باذخة الجمال ؟.

كان اللاجئون السودانيون بوجوههم الفحمية لامعة السواد، وعيونهم البراقة كالخرز وقاماتهم النحيلة الطويلة المحنية، أمامهم أكوام هزيلة من البخور السوداني والعطارة

المقوية للباه أو الشافية من الإمساك والإسهال ووجـع الـبطن والأسنان، ملفوفة في ورق نايلون عكـر الشـفافية ملصـوق بصمغ خشن عليه بطاقات زرقاء وصفراء مطبوعة بحـروف مطبعة مكسرة الحواف.

" في مكتب " الميساجيري ماريتيم " كان أنطوان، بعـد ساعات العمل الرسمية، يفتح لنا المخزن ا لخلفي وفيه ماكنة الرونيو التي صنعناها بأيـدينا نطبـع عليهـا المنشـورات التروتسكية، وصحيفة " الكفاح الثوري " على رأس صفحتها الأولى المنجل والمطرقة ورقم ٤ بالعربي.

أرم ذات العماد ليس مثيلها في البلاد.

ماسة الحب المفقودة، أشعتها، داخل الحجر الشـفاف، ومضات طعن نفاذ ".

- وله يا حسين أنت بتلعـب مصـارعة حـرة ولا روماني؟
- علبة النيدو بـ ٦ جني.
- مين عايز فلافل؟
- " لم يكن عهد الهوى إلا مناما ".

- بيساريا.. بيساريا.
- وا العظيم ميه في الميه.
- يا ختي عنها وما خليت لهوش، لا والنبي، ومـن نبي النبي نبي، هو كل الطيـر اللـي متنقـى ع الفرازة، قلت له م اللـي متنقـي ع الفـرازة.. آه والنبي.
- بيكا... بوتيليا....
- أيوه يا جدعان.. أما حته نتايه، طابـت واسـتوت وطلبت الأكالة يا وله.
- البساريا.. طازه طالعة بمية البحر.
- فاجافيجو.... فاجافيجو..
- منجه عويسي وهندي وبيض العجل شيليان حمـار وحلاوة بتلاتة شلن كوالين أعمـر مفتـاح أعمـر أصلح وابور الجااااز.
- لم يكن البحر بعيدا.

أعرف أنه هناك، ينتظرني، سوف أعبر إليه الحـواري التي زحمتها أكياس نايلون مملوءة بالنفايات وأكوام صـغيرة من قمامة فيها بقع مبتلة سوداء.

وكان الصقر يحدجني، بغضب، مـن قفصـه الضـيق المرهف القضبان المعلق على حائط شارع الكنيسة المرقسية. لم يكن يستطيع أن يبسط جناحه، كان يعرف ذلك، لا يبسطهما ولكنه لا يقبل ولا يستسلم.

يصأى بصوت ثاقب، يهبط فجأة بمنقاره الحاد المقـوس العظام على غذاء الأسير: مزعة لحم نيئة حمراء مرمية على أرض القفص. كل ما بقى له من أطيـاف نـزوات الجمـوح والطراد والتحليق، جوعه إلى السماء لا غذاء له.

مولدات الكهرباء الصغيرة النقالي على رصيف شـارع سعد زغلول، حمراء مضلعة، أمام المحلات تمدها بالكهربـاء عبر أسلاك سوداء غليظة القوام شكلها شرير، تهـدر وتطـن وتزأر بلا انقطاع، بآلية متصلة لا تهن.

وجنبها، في صناديق الكرتـون، السـلاحف الصـغيرة والكبيرة مكومة تهز أرجلها بحركة بطيئة غير مجدية، أنمـاط

قميئة لديناصورات ممسوخة نسيتها الدهر داخل درقات تبـدو سريعة الكسر وقليلة المعني.

نصبات البياعين شرابات حريمي نايلون وسادة ودانتيلا وصوف مشغولة باليد وكيلوتات وسوتيانات مفتوحة ومعلقـة ومغلفة بماركات دولية مزيفـة وتـلال مـن جاكتـات جلـد اصطناعي وقماش مبطن كله م المراكب الحـق الحـق قلـب وشوف بعشرة جني أوكازيون المراكب يا خراب بيت الخواجا والطواقي الخليجية المدورة المخرمة المصـنوعة فـي الهنـد واندونيسيا.

" صعدت إلى مكتب الاستشارات العمالية والنقابية الذي استأجره وفيق في الدور المسروق الذي تجده بعـد سـلالم حلزونية حديدية فوق محل الجزم، رائحـة الجلـد الأصـلي الحريفة تفغمني وأنا أدفع باب المكتب الزجاجي وعليه الاسم بالخط الثلث الذهب: " وفيق رافم مستشار عمالي وصناعي ".

كنت قد زرته منذ أيام في شقته الضـيقة فـي شـارع امبرواز رالي بعد محطة كليوباترا الصغيرة، وكان في البيـت رائحة رضاع الأطفال وزهومة الأجسـام المقـززة بكثافـة

عصاراتها، ورحبت بي امرأته الطيبة البيضاء الممتلئة وهـي ترد طرف ثوبها العلوى على صدرها بعـد أن فرغـت مـن رضاعة آخر ذريتها المتعاقبة. وكان الشارع عنـدما نزلـت بالليل خاليا، والرذاذ يسقط خفيفا وأنا أسارع خطوي وأحـس غصة حب محبوط مكتوم لم أعترف له بتباريحه، كما كـان – هو – يشكو لي عذابات قلبه أيام زمان ".

وفق الآن وعائلته الكبيرة قد نزحت عـن مصـر مـن زمان، وتفرقت ذريته إلى مواقع الغربة في ميلانو و وندسور وبريتاني، لا يعرفون أنهم غرباء.

أمام طلل أطياف هذا المكتب القديم ينادى الرجل القاعد القرفصاء على الرصيف: لعبة عشان الولد لعبة عشان حمـادة العروسة بتعوم وحديها في الميه اتفرج يـا سـلام، تضـرب بذراعيها وساقيها المتصلبتين من بلاستيك غير متقن الصـنع في مياه الطشت، وفوح الخبز السخن الطالع من الفرن يخـتلط بالأنفاس الكيماوية من صناديق الجيلاتي، محلات السـجاير لا رائحة لها وعلى العربات الكارو المسنودة على عكاكيز رفيعة

أكوام فتاحات العلب والسكاكين والشواكيش وفيشات الكهربـاء والمفكات من كل المقاييس.

عبق البن البرازيلي يحمل إلى نفث الغابات الاسـتوائية والتلال المخضرة المسبعة في تنجانيقا والأمازون وصـرخات القرود المفاجئة مع زعيق حاد للببغـاوات وخمـيس سـائق السيارة القادم أصلا من زنجبار يحذرنا من النزول أو انـزال شبابيك السيارة لأن هذه الجهة فيها الثعـابين الضـخام ذوات الأجنحة التي تطير و هي تحمل الرجل الجسيم إلى مـا فـوق الجبال لتطعمه فراخها النهمة مفتوحة الأفواه.

محل البن – والمخزن والطاحون – جوفه غائر معـتم قليلا وعريق مازال محتفظا بآثار عز غابر.

يا من يحن إليك فؤادي..

هل تذكرين ليالي هواك. هل تذكرين عهود الوداد؟

" في البيتيه تريانون – الذين انضم إليه الآن بـودرو – أخذت الشاي الكومبليه في حديقته الصيفية الخلفيـة، وطلبـت رفيقتي التي نسيت اسمها الآن شـيكولاته مثلجـة، وجـاتوه بالكريمة، كانت تقول إنها تحبني وتسهر الليل في نافذتها حتى

تراني راجعا من " ملاهي " – كما قالت – بعد منتصف الليل فتنام وهي " تحلم بحبنا " الذي لم يتحقق قط، وكانت تخرج إلى من بابها في الصبح، بقميص نومها المفتوح عن صدر وفيـر مضغوط وذراعين لحيمتين بيضاوين كأنهما فخذان، لتقول فقط بعينين ثقيلتين بالكحل والحلم، هامسة بصوت خفيض مبحـوح قليلا: صباح الخير يا حبيبي ".

هل طويت ساعات الحب؟

قالوا محطة الرمل تحترق، النار تصـعد إلـى عنـان السماء، سينما ستراند، والفيومي، وفرع البنك الاهلي، وعلـى كيفك، ومحلات الساعات، والكازابلانكا (التي استحالت صالة للأفراح البلدي وزعيق المطربين السكة والراقصات العـوالم المضروبات) وشادر الكتب المجلدة المذهبة، ومحل العصير، قالوا كلها تأكلها النيران.

كنت النار.

جوانحي مشتعلة. متعة شبقية أن أتقد وألـتهم وأدمـر. أنشق وأنفث دخان التهابي. أئز وأفح باللظي الذي يسـتنفدني واستنفد به. في قلب شعاليل النار وجههـا مضـمخ الشـفتين

مكحول العينين، حاجباها قوسان واسعان نازلان علـى أعلـى وجنتيها يوشكان أن يلتقيا بطرف الكحل المرهـف المسـتدق تحت العينين الدعجاوين النفاذتين، لم أعرف وجه من، مـددت إليها ذراعي في قلب الضرام لم أجد أحدا.

عندما جريت إلى محطة الرمل وجدت النار قد انطفأت وتركت ندوبا سوداء، في جنوب المبني المطعون، خبت ألسنة اللهب التي تعلقت بحيطان " غزالـة " القديمـة – لـم تخمـد موسيقاها الناعمة الخافتة ولم تطفئ ضوء أحلامها الرفيق ولا أحرقت وسائدها الطرية على المقاعد الوثيرة، لم تضـع لقـى الحب العذبة ولم تنقض ساعات النجوى ولم تذو أحلام مستقبل لم يأت قط.

هل يمكن أن يعاد ترميم ما لم يندثر؟

قلت: لا دثور ولا انقضاء.

لا وقت للنوستالجيا.

ليست هذه مرثية، بل ضربات غضب.

عشيقتي لماذا تركت نفسك تسـتباحين؟ لمـاذا تركـت الغرباء ينتهكونك ثم أخذتهم – يا قادرة – إلى حضنك فإذا هم

من بعض عمق، جسدك؟ كيف تستحيلين، بالاغتصـاب، إلـى توحد مع الواغلين؟

شارع سيدي المتولى بالليل هادئ، وشبه خـاو، مبنـى المدرسة اليونانية القديمة بأعمدته الشامخة وبنيته الهيلينية مـا زال مضيئا وعامرا بأنفاس اليونانيين الاسكندرانية القدامى من قاليماخوس إلى كافافيس، ومن أرشميدس إلى سـلفاجو، مـن سكيريانيديس الدون جوان موضة الخمسينيات كهلا رياضـيا متوفزا بالغزل الجسداني إلى كوستا البقال الـذي علـى قمـة شارعنا في راغب باشا في دكانه أطايب الحياة من مـأكولات ومشروبات التاراما والأوزو، الباكالاه، والبلاميطا، الكونيـاك والنبيذ القبرصي الحلو إلى جانب الحلاوة الطحينيـة والجبنـة الدمياطي والصابون نابلسي فاروق وصـفايح الجـاز ولوفـة الحمام.

أمام المبنى الرشيق المهيـب الـذي يتضـوع بأنفـاس الإسكندرية الهيلينية ذات النكهة المصرية كان البيـت القـديم تطل من جداره الحجري الراسخ مشـربيات دقيقـة النمنمـة

مخروطة من الحلم بصنعة المحبة، ينسكب عليها نور القمـر العالي البعيد ويسيل من على خشبها المشغول الحميم.

هل رأيتها تطل منها، شعرها الغزير الوحي ملقى إلـى جانب وجهها الأسيل، انهمار دفئ يدعو اليدين إلى الغوص في غماره الوحفة الوثيرة، طيف ليلة هندية وهي تلقى الأشـعار، حافية القدمين انفاس الناس – وأنفاسي – معلقة بأنفاسها رخيمة الجرس أنثوية الإيقاع صوتها فيه تمكـن وحصـافة ويـبض بالنسوية وغلمة الشبق، كنت ليلتها قد عانقتها وعرفت نعومـة أغوارها، وكان بكاؤها بعد ذلك حارا وعنيفا.

وتحت بيت سيدي المتولي كان الجراج يشـغل صـحن الفناء القديم المسفلت الآن، له باب حجري مقوس العقد تـدور عليه نباتات منحوتة وبينها خطوط ناتئة بالخط الثاث الجسور " ما شاء ا .. ادخلوها بسلام آمنين "، الجـراج يبـدو لعينـي المجهدتين فسيحا معتما، ركنت السيارات وديعة الجسوم بالليل إلى السكون، الأرض تمتد إلى داخل لا ترى نهايته في بـراح خاو تتردد الأصداء فيه.

على باب الجراج الحجرى السميك غزالـة مصـرية، مربوطة إحدى سيقانها في عمود حديدي قصير، بحبل مضفور مجدول برقة من خيوط البلاستيك اللامعة.

رقيقة، هفهافة الجسم، رأسها دقيق فـي سـحبته إلـى الأمام، وشفتاها تختلجان، عيناها واسعتان، مكحولتان، فيهمـا دهشة.

أصغر قليلا من حمل الذبيحة، وأكبر قليلا من " بست " القطة اللبؤة التي لا حبس لها ولا يمكن أن تستمر في الأسـر، حية، ناطقة، لها كبرياء.

كان الجامع يربض، راسى الأركان و وطيدا، على قمة الشارع الليلي المقمر، ضوء القمر يحـدد نصـوع جدرانـه الخارجية المكينة، ويرسم، بدقة، خطـوط المئذنـة الجميلـة ومقرنصاتها ودانتيلا معمارها الأنيق الذي يوحي إلى بجـلال ومهابة ومحبة تهتز لها مشاعري وأصبو إلى حمي حنانها.

انكسر مركبي في بحر الهوى.

عصفت به الأنواء، وارتفعت أمواجه جبالا.

كم دنسوك يا قدسية الأسرار.

بدء إنقاذ آثار كوم الشقافة:

كتب – عاصم بسيوني في " الجمهورية " يوم ٧ / ٩ / ١٩٩٣:

" بدأت عمليات الترميم بمقابر كـوم الشـقافة الأثريـة بوسط الإسكندرية وعلاج مشكلة المياه الجوفية بها.

أعد خبراء هيئة الآثار دراسات علمية متخصصة لعلاج ارتفاع منسوب المياه بحفر ٦ آبار ارتوازية على عمـق ٢٥ مترا بأبعاد مناسبة عن المقابر الأثرية مهمتها سـحب الميـاه الزائدة بشكل منتظم للحفاظ على محتوياتها الهامة.

كان د. عبد الحليم نور الدين رئيس هيئة الآثار قد زار منطقة كوم الشقافة وطالب بسرعة إجراء وتنفيذ عمليات إنقاذ المقابر الأثرية بعد أن هددتها المياه الجوفية بالانهيار ".

أما تحت كوم الدكة وأمام باستروديس، فقد كانت البنت ترتدي البنطلون الجينز الخشن على ساقيها العبلتـين، وحـذاء عاليا رفيع الكعب، وبلوزة حريرية شفافة ترى منها حمـالات السوتيان الأسود من على كتفيها الناصعتين، وكـان شـعرها

مفروشا على ظهرها، تسير بثقة وهي تخترق مـوج نظـرات الرجال، لم يكن لها زمن.

وفي أهرام يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٩٣ أن طبيـب الحجـر الصحي بالمطار " احتجز ١٥ صقرا من صـقور " شـاهين " النادرة الغلية (٥٠ ألف جنيه للصقر الواحد) وكانت الصقور برفقة أحد كبار الزوار، وقد استشاط الضـيف غضـبا مـن الطبيب البيطري، الذي يؤدي واجبه، ورفض حجز صـقر و احد لأن هذه الصقور، سوف ترافقه في رحلة الصيد بصحراء مطروح.

وعندما أراد الطبيب البيطري الشاب أن ينفـذ القـانون بحجز الصقور أصيب بخيبة أمل وحرج شديدين، بعد أن أبرز الضيف موافقة " رفيعة المستوى " بالإفراج عن الصقور فور وصولها إلى المطار.

والقصة الثانية عكس الأولى، فقد تعرض أحد الأطبـاء البيطريين إلى ضغوط شديدة، عندما وصلت إحـدى القوافـل وكانت برفقة أحد كبار الزوار العرب، وكانت القافلـة تعبـر الحدود المصرية، إلى خارج الحدود، وقـد حملـت سـيارات

القوافل لحوما، كان المطلوب أن يصـدر الطبيـب البيطـري شهادة تؤكد صلاحية هذه الذبائح التي تحملها القوافل ضـمن عائد رصيد الصيد في الصحراء المصرية للاستخدام الآدمـي ليدخل بها حدود بلاده !.

والواقع المر.. أن صحراء مطروح تـزدحم بعشـرات القوافل من سيارات الصحراء الأنيقة الغالية، وقد خرجت كـل قافلة، في رتل طويل، وعشرات الصقور، وموافقة تحمل اسم " وجود في الصحراء " (أي سياحة صحراوية) مـن جهـاز شئون البيئة.. ويرافق كل قافلة ثلاث مندوبين من جهاز شئون البيئة والسواحل، والأمن، وقد اشترطت التأشيرة أن يكـون " وجودا " وليس صيدا ! وهو الأمر غير الواضح: كيف تكون سياحة صحراوية لهواة صيد قادمين من الصحراء ! وللحـق فإن هذا العام هو أول عام يرسـل فيـه الـزوار الفاكسـات والتليكسات، إلى جهاز شئون البيئة، يطلبون السـماح بـالإذن للدخول بالسيارات، إلى صحراء مطروح، ومن ضمن شروط هذا الإذن، عدم حمل سلاح أو صقور، وتكون رحلة تأمل ! !

ولكن الوضع مختلف تماما، فالقوافل تدخل الصـحاري بالصقور وتحصل على السلاح من عرب الصحراء، وعنـدما أراد أحد مندوبي جهاز شئون البيئة، الاعتـراض علـى مـا يجرى حدثت مشادة، انتصر فيها قائد رحلة الصيد.. فقد نهـر مندوب الجهاز أو عنفه، على الاعتراض وقال له " إنني أحمل إذنا للصيد من أسيادك " ! ولمـا أراد المنـدوب أن يراقـب وجوده، فشل لأنه يقوم سيارة " تلهث " وراء السيارات الحديثة المجهزة لغزوا الصحراء، وكم من مطاردات شهدتها الصحراء الشرقية ومطروح وزاغت القوافل من مندوب الجهاز.

ورغم أن جهاز شئون البيئة يصدر تصريح " الوجود " في الصحراء مشروطا بخط السير، وعدد السيارات، وأسـماء المرافقين، لكن كل هذا حبر على ورق لأن المندوبين الثلاثة، يواجهون قوافل صيد حديثة جدا لهذا الموسم الذي بـدء هـذا الشهر وينتهي منتصف فبراير، وأمام د. عصام البدري، رئيس قسم الحياة البرية، والمحميات بجهاز شئون البيئة، ٥٠ طلبـا بالموافقة، وقد أوفدت هذه الشخصيات مديري أعمالهـا فـي القاهرة – وهم لواءات سابقون – للحصـول علـى موافقـة "

وجود في الصحراء "، وكانت سابقا تخرج من حديقة الحيوان " بتصريح صيد "، والرحلة تمتد لعدة أسابيع وتتكلف أكثر من نصف مليون جنيه ! ويصاحب هذه القوافل صيادون وطباخون وسائقون وتباعون وحراس من الهند وتايلاند ومصـر.. عـدا سيارات الإسعاف والسيارات الثلاجة ! ".

وفي ميدان محطة الرمل، تحت جدران السفارة الإيطالية العريقة، كانوا يسيرون ببطء، يؤكـدون وجـودا، ويثبتـون، بمجرد مشيته، شيئا، رتلا من الشبان ضخام الجسوم، مفتـولى العضل، وغير ملتحين، يرتدون البنطلونات الجينـز، قـرأت العبارات المطبوعة على ظهور قمصانهم الاسبور نصف كـم صفراء اللون التـي تلتـف بإحكـام علـى الأذرع المفتولـة والخصور الممتلئة بتفجر الأبدان، بكلماتها المتطابقة: " اللهـم ارحم شهداءنا وفك قيد أسرانا "، يحيط بها رسـم عقـد فيـه أغصان شائكة وزهور صلبة .وأحسست البحر غيـر بعيـد , وزعانف ضخمة لحيمة تثير موجا مكتوما مـن وراء السـور الحجري الأبيض على كورنيش المينا الشرقية.

" تخايلت لي، في زحمة ميدان محطة النار، شعرها بني فاتح مفروش على ظهرها في غدائر مفكوكة مهتزة مع حركة جسمها المحكم، لها موسيقى شهوية كامنة ".

قلت: كم لك من تجليات ... لا نهاية لك ".

- يا خوخ يا خد الجميل.
- أنت يا واد أنت وهوه يا مقاصيف الرقبة كل واحد يمسك إيد أخوه.

السماء تتدحرج إلى شق في قلب الليل، بياعة الكوكاكولا متربعة تفترش حصيرة صفراء جديدة على رصـيف شـارع النبي دانيال، تحت عمود الكهرباء الذي يلقى نورا قويا علـى بقعة مستديرة بجانبها، وهي في الظل، طفل ينام جنبها علـى قطعة من سجادة قديمة ألوانها بنية مترِبة نصـلت خيوطهـا، وتلوح كأنما كانت ثمينة مصنوعة باليد في أطفهان أو شيراز، وحولها كسرولة الومنيوم أرى فيها بقايا طبيخ، و وابور جـاز عتيق إحدى أرجله مكسورة، مسنودا إلـى حجـرة صـغيرة، وأكواب وأطباق بلاستيك غير نظيفية لونهـا الضـارب إلـى الزرقة يميل الآن إلى خضرة زاهية في نور الكهرباء الساطع،

وجردل واضح أن فيه ماء مغطى بخيشة مبلولة، قلت: بيتهـا، ملاذها من هجوم الليل و وحشة الهجر.

صندوق الكوكاكولا الأحمر مطبق الجنبات يبدو عاليـا، وراءها في الشارع الذي أفـرغ الآن مـن كراكيـب السـلع والشرائط والفواكه والكتب القديمة ومجلات زمـان، غطيـت العربات الكارو المحملة بنفايات أسواق العالم، بدت كنعـوش ثوت فيها أشياء – كائنات – غريبة ناتئة الجسـوم ومكومـة الأضلاع، وهي تنادي: " الساقع ..! اشرب ليمون ..!كاكوولا .. !" فماذا اقول لك ؟ اقول لك " يا أختي ... يا بنتـي .. يـا امرأة أعرفها في صميم نفسي، ليس لي، حتى, حـق الأخـوة عليك، وليس لي بنات.. أنت غير كل امرأة عرفتهـا.. لكنـي أعرفك كما لم أعرف أية امرأة " .

كانت نحيلة الوجه، سمراء داكنة، وعظام كتفيها بـارزة تحت جلابيتها السوداء، أم سفرة مكشكشـة علـى زى أهـل الطرانة، وكان على حجرها طفلة ترضع من ثديها الصـغير المتهدل الملئ، قلت لنفسي أليست طفلة كبيرة؟ لعـل عمرهـا أكبر من سنتين، وكانت تمتص، بنهم، اللبن الذي يلـوح انـه

شحيح، كأنه طعام للبقاء على قيد الحياة، فقط، شعرها متـرب أشعث، قوى منكوش في نـور عمـود الكهربـاء، وعيناهـا واسعتان ومحاصرتان بكحل يبـدو أزرق كامـدا، مفتوحتـان تنظران إلى بسؤال لا أعرف إجابته.

ألم ألتق بهذه المرأة من قبل؟ وكانت صعيدية؟ قلت.

ألم أعرف هذا الكابوس، من قبل؟

لماذا التكرار؟ فيم العودة إلى أرض الكوابيس.

- صلّ ع النبي تكسب... وكمان زيد النبي صلاة.
- قبل ما تخرجي ابقي اتبخري م الحسـد والعـين، بخور بس !
- أنا بقول لك أهوه... اوع تروح هنـا ولا هنـا.. عينك تزوع هنا ولا هنا.. أحسن يا ا السلامة !

قال لي، وهو بعيد، شاهق، يحاجني: أما زلت تبحث عن وفيق، عن وفقاء، عن وفيقات؟ أما زلت تبحث عـن وفاقـة، رفاقة، صداقة أو محبة موافقة؟

قلت، أحاجه: أليس التنافر ضربة لازبا في كل وفاق؟

قال لي: لن تجدها قط.

قلت: أظل أبحث.

كانت السماء تنسكب في البحر، بينما كانت أستمع إلى الصحراء، ما تقوله الصحراء، بأصوات خفيضة، نسوية، تكاد تكون مكتومة، فيها مع ذلك براح فسيح، ونعومة كم أفتقدها.

كأنما البحر لم يعد أنا، أمواجي تتكسر على حافة الصحراء، الممتدة إلى ما لا أرى، رغوات الزبد تذوب باستمرار، وتأتي من جديد.

النخيل متشابك الفروع والأصول، ينبثق من على الحافة متلوى الجذوع، ينحنى على البيت الذي لم يعد فيه إلا جدار واحد غير مكتمل، مبتور، من الطوب النئ، قائم في فناء موحش خاو.

شراع المركب الحاد معلق في وهدة بين ربوتين مدورتين من السحب المكومة الخمرية الضاربة إلى صهبة خفيفة، لدنة ومتماسكة، سلافة قديمة متوردة اللون، كثيفة بحياة نضرة، السماء عندئذ هادية ومشتعلة بالشفق، بصمت وحنو.

- من صعد إلى السماء فأخذها إليه؟
- أنا صعدت.

- من علا إلى السحاب فاحتضنه؟

- أنا علوت.

ثم هويت، بعد ذلك، وما زلت أهوى، فهل انحطمت؟

النجوم أضاءت، ليلتها، في محارسها، وابتهجت، هـل كانت كانت تبعث إلى رسالة؟

- خايف يكون حبك لي شفقة علي.

من قال إن الحب والشفقة نقيضان، أو حتى متغايران؟

كأن رحمة تبطن عندي كل حب.

وأرحمتا للعاشقين، ماذا جنوا من الحب، وجنينا؟

" صار كلي قلوبا فيك وامقة، للحـب فيهـا وللأشـواق أمشاج ... "

الأصوات الآتية من طفولتي لا أستطيع الرد عليهـا، لا تفارقني فأين حدود طفولتي.

من غير تسايل ولا تهرؤ في نسيج العاطفة: ودع هواك وانساه وانساني عمر اللي فات ما هيرجع تاني، لم يعد وقـت، لم يعد وقت، لم يعد وقت، من غير دموع، ربما بقليـل مـن الحزن.

هل أنساك؟ هل ينسى هواك، أبدا؟

- تين يا عجمية المحفظة والحلق بجنى وربع المحفظة ع السكيـ ... يـ... ين .

أيوه الفريك الصعيدي يا فريك يا جوافة يا لالـي النبـي حلاك البس الصوف بتاع الشتا يا بلح يا بنات عيشه هوه لمـا يكون ابن جنية واجدع مخلـوق خلقـه ربنـا برضـو مـش حيستكردني يا واد يا زلطة.. يا زلطة العنط وا وعزة ربنـا وشه يقطع الخميرة م البيت الحلوة اللي هناك اللي لابسة حلق أخضر بجني وربع الحلق والمحفظة...

الصقر بوجهه الإنساني الصارم، أكبر مـن الإنسـاني، يبسط جناحيه فوق حبيبتي الملقاة على سرير انتهاكها تساقطت منها قطرات دم نزر في ليلة عرسها، قالت له، متى حطمـت قفص أسرك؟ متى انطلقت إلى السماء؟ قال: لم أكن أسيرا قط لن أسقط أبدا.

الصقر الوحش ند التنين أم هو نفسه الثعبـان النـاطق الحكيم، هو ذا في المدينة.

قالت لي: لا تصدق.

قلت: وهل غاب لحظة واحدة؟

قالت: الدنيا ليل والبحر بعيد.

قلت: حتى في الغياب حضور مقيم.

قالت: متى؟ متي؟

قلت: حضور لا يريم.

قالت: يا ويلي !.

قلت: كل أحد يراه.

وفي غيام الرؤية وحجابها الشفيف تهـاجمني التيـاتين والتنانين والغيلان والدناصير، العماليق الشـاهقة، والمسـوخ القميئة زاحفة كالثعابين الملسـاء الرفيعـة، والسـحالي ذوات الدرقات الهشة والعناكب السـوداء ذوات الأنيـاب المسـنونة والوجوه المخططة المبتسمة عن نواجذها، منها ما هـو علـى مقاسي بالضبط، ينظر إلى بعينين غريبتين.

" البكلاه في شارع إيزيس معلقة مشبوحة في محـلات البقالين، بين المقاهي والمـراحيض العموميـة والمقـلاة ذات الصحن المتحدر، المستدير، السخن، مائلا على الفرن المتقـد على الدوام، الرجل يرفع الحمص والسوداني واللب بشيء كأنه

المذراة، إلى أعلى، يفرشها وينفضها ببراعـة يـد سـاحرة، تصطدم الحبوب المدورة الصغيرة بحافة صحن المقـلاة ثـم تتحدر من جديد، ويرفعها مرة أخرى بمذراته التي لا تكل.

جسوم البكلاه ناشفة بيضاء غير شـفافة، مـدلاة مـن الخطاطيف، أكوام قمر الدين والبندق واللوز والحمص وعـين الجمل والصنوبر في شوالات بضة وعضلة، بهجة رمضـان تغمرني، قراءة الشيخ محمد رفعت تنسال عذبة رقراقـة مـن الراديو الضخم ذي العين الكهربائية الخضراء المدورة، تهدهد القلب وتطامن المخاوف لكنها تحمل للفاسقين، والعاصين نذيرا صارما، كأن فيه رحمة خفيـة، حزينـة، مسـرات الـروح، والحس، متواشجة، آلامها الآن منسية " .

ليس طريق الياسمين، على العكس، ببعيد.

يأتيني عبقة وأنا أدخل إليه من شارع فؤاد، في الحـي الإغريقي القديم، تهب على الآن نفحته الجسدانية المتطـايرة، عبر ستين عاما أم عبر عشرين قرنا من الزمان ؟ الأغصـان الرفيعة مهتزة متهدلة على الأسوار الحديديـة فـي الفـيلات الكلاسيكية المعمار، بواجهاتها وأعمدتها الهيلينية، تفيض هـذه

الأفنان الليلية بخضرة هفهافة تتوزع فيها نقاط الزهر البيضاء الدقيقة سهلت القطاف ، وتملأ جسد الليل الحار المبلول بشذى الياسمين.

إلى أين يفضي شارع الياسمين؟

الأشعار التي دفنتها، كأنها كنز مكنوز، تحـت جـدران قصر النعمان الأبيض الشاهق، تحت حيطان فنـدق أوبـروى الشامخة التي رفضتني في ليلة هندية قديمة، وتحت صـخرة ستانلي بيه التي انتسفتها بلدية الإسـكندرية الهوجـاء، هأنـذا أحتفر الأرض لأستخرج تلك الأرصـدة، فيطـالعني وجهـه الضاحك ضحكة بلورية، وفمه الذي ينفث النار.

في " الأهرام " يوم ٣ مايو ١٨٩١ من الإسـكندرية: " قلنا إن عدد الآبار في البلدة بلغ ٩٠٠ والصحيح أن هذا القـدر في العطارين وحده، أما في عموم الثغر فيوجد ما ينوف عـن أربعة آلاف بئر يستقي الأهالي من مياهها السامة القتالة " .

قمر القلوب أين نورك؟

حبيبتي الطيعة المنتهكة ينخر في جسدها عطب شهوات غابرة ومقيمة، تظلين مع ذلك لصيقة بالقلب بل بالجسد منـي،

تهتز لك أشواق روحي، ومهما كنت صموتا، بل مخرسة، تظل آيات مجدك مرفوفة في هذه السماء، التي غاب عنها النـور، أين أنت؟ أما تزالين هناك؟ كنت الآن أجرى، بخطـو سـريع منتظم، لا أحس أن الأرض تحتي، لا أنهج ولا أكاد أعرف أن لي جسما، خفيفا أجرى كأنني أطير، كأنني في حلم أطير.

البيوت القديمة، وراء سينما ماجستيك لها حدائق فسيحة مهملة معشوشبة، قوات الأمن تحتلها، ويقـف أمـام البوابـة الحجرية الضخمة بجمالها غير البائد حرس مسـلح، بالسـترة السوداء، والخوذة السوداء والمدفع الرشاش الأسود الصغير في طرفه السنوكي الحاد سطحه الجانبي فيه تجويف منقور منتظم الحواف، مشرع للأمام.

سيارة حمراء مكشوفة تتعقب بنتا نحيلة الساقين تلـبس البنطلون الاسترتش المحزق، أحمر لاصقا بفخذيها الرفيعتين، لا تثير في المرء – ربما – إلا قليلا من رثاء، وقد ألقت على كتفيها، دون أن ترتديها، جاكتة جلد اصطناعي سوداء مفتوحة، ومن على حافة السيارة يقول لها الولد المحفلط المزفلط المحبك

المتأنتك: " إيه يا بت اللى أنت لابساه ! ما تروقي يا متخلفة، طب اركبي ! وهي تهرول مسرعة، وخائفة، وغير مستسلمة.

دوت في سويقة سيدي بشر شحنة ناسفة صـغيرة لـم تصب أحدا بجراح، كان الفجر يوشك أن يطلع، لكنها دمـرت الأسماك التي كانت على الرصيف أمـام سـينما " المنتـزه " القديمة (هل تحولت إلى بنك أيضا ؟ أم تركت للخراب، مثـل سينما فلوريدا، وسينما لاجيتيه ؟) وفي الشارع تناثرت أشلاء السمك، بيضاء مغسولة أو محترقـة أو محموشـة بالبـارود وممزقة الأوصال، رؤوسها المحدقة بعيونها المدورة المفتوحة، أزرار حمراء مبتورة، ما تزال تبـرق بـين شـظايا قليلـة ومسحوق زجاج مذرور كالملح المجروش.

قالوا: مر من هنا ... !

قالوا: من المعمورة إلى العصافرة مـن العجمـي إلـى العامرية، من باكوس إلى سموحة، من سيدي بشر إلى سـيدي جابر.

قالوا: من محرم بيه إلى ستانلي بيه ومن كرموز إلـى كامب شيزار.

في المعمورة كانت المرأة تتجه إلـى البحـر، واثقـة، جسيمة ومتناسقة، ملء جسدها قوة الشباب، بفسـتانها الكامـل حريريا ناعما سابغا له طيات وشراشيب، مقفل الصدر طويـل الأكمام، تخفى شعرها بعمامة محبوكة لها عدة طيات متراكبة من قماش ساتان أزرق مطرزة بحبات لامعة وخـرز متعـدد الألوان تحيط بمعالم وجهها وتؤكد تقاطيعه المسمسمة، وفـي قدميها حذاء مطاط لاصق، وعندما ابتلت ساقاها التصقت بهما شراشيب الفستان، ثم تحددت قسمات جسمها في الموج الضحل وهي تغوص، وإذا بها تسبح بمقدرة، وتمكن، في كامل زيهـا، وم الشط رأيت كل تدويرات الجسم وربواته و وهداته وهـي تغوص وتطفو، وصدرها متكور وراء حبوسه الحريريـة إذا تصعد وتهبط بجانبيها وذراعاها تتضربان الموج فـي حركـة السباحة المنتظمة الرتيبة.

كنت أراقبها، دهشا وخجلا قليلا، والمصـيفون تحـت شماسيهم الملونة المتقاربة جدا، في ضجيج أحاديث وأغنيـات موسيقات الكاسيتات والراديوهات المختلطة المتراكبة، وزحمة النداءات، ودقات الراكيت المصمتة تاك تاك: إذ تعـود مـن

سباحتها، تشر بالماء من كل قسمات جسمها، تمثالا حيا مبـتلا متجسد الطوايا والثنيات، تسير، لا مبالية بـالنظرات الشـرهة التي تسمرت بها، والحذاء المطاط يترك على الرمـل آثـارا مبلولة لها صوت صرير إذ ينبثق الماء منـه مضـغوطا لـه زقزقة مكتومة.

قلت على قول سيدي سحنون: حقيقة المحبة مالا ينتقص بالجفاء.

قالوا: عند سيدي المرسي أبو العباس قالوا عند سـيدي كريم في غيط العنب قالوا فـي الحضـرة وعنـد المسـرح الروماني، في المكس وفيكتوريا، في حجـر النواتيـة وفـي كليوباترا الحمامات، في كرموز وفي الأزاريطة، في زيزينيـا وعند العامود، وعلى كوبرى التاريخ.

قالوا نشفت ترعة المحمودية تحت زعانفـه الضـخام، وحراشيفه الجارحة وهو يضرب طينهـا الرخـراخ اختنقـت سطوح المياه الضحلة فيها تحـت ورق ورد النيـل المفلطـح المحنى بعضه على بعض متلويا في غضارة حوشية وبطـئ السريان في تجمعات بذيئة الالتصاق بالماء النزر، وهو يشـق

طريقه فيه يزيح التخثر الراكد وقد لاح قاع الترعـة مـوحلا لزجا لم تصوح الشمس لدونته قالوا كان يؤج منه النور والنار قالوا كان يغمره موج الظلام.

عندما التقيت به أخيرا في شارع سعد زغلـول، كنـت أعرفه، كما لو كنت أنتظر لقياه، كما لو كان حميما.

الشارع قد خلا فجأة من الناس والسيارات والحنـاطير، الدكاكين أغلقت ضلفها وأنزلت ستائرها الحديدية بصوت خبط وقرقعة في الشارع الصامت، ورأيت البياعين يلمون نصباتهم وبضائعهم وباعة الصحف علـى عجـل يجمعـون أوراقهـم ومجلاتهم، والمارة يتدافعون جميعا مهرولين متـزاحمين فـي الحارات الضيقة الذاهبة إلـى شـارع سـعيد وإلـى البحـر والشوارع الجانبية ناحية شارع شـريف والفلكـي والكنيسـة المرقسية.

كانت أقدامه – زعانفه المفلطحة لها صدمة ثقيلة مبتلـة على أسفلت الشارع تتناثر منها قطرات مياه قليلة تبدو كثيفـة القوام.

وضحك لي ضحكته البلورية لها صـدى يتـردد بـين المباني العريقة إذ يعلو برقبته الفارعة الضخمة فوق السطوح ويكاد يهدم شرفات البيوت بحراشيفه الناتئة.

و وراءه من بعيد رتل سيارات المطـافئ والإسـعاف، جلجلة أجراسها ومواء صفارتها يبدو خافتا ضئيلا لا جـدوى فيه.

قالوا كان هنا في المولد حيث كانـت حبـات الأنـوار الكهربية عقوداً تحيط بالمئذنة السامقة وتتدلى متأرجحة بألوانها الحمراء و الزرقاء الصفراء، والصـلبان الضـخمة المربعـة تحدها أنابيب المصابيح النايلون الطويلة النحيلـة المتقاطعـة، فوق الساحة المكتظة بالناس في طرفها موكب المرتدين جلود الفهود حليقى الرؤوس حليقى الأبـدان المكتسـين بالمسـوح المتمنطقين بالإسكيم الرافعين رايات التكبير والتوحيد تخفق في هواء الليل , هل يرتلون لآمـون ام يتغنـون كيرياليسـون ام يسبحون بالأذكار والأوراد، وجماهير المحتفلين قد استقر بهـم المقام أقاموا مخيمات صغيرة أو فرشوا الحصـر والسـجاجيد وبسطوا الملاءات والبطاطين على حبال ممدودة بـين أعمـدة

النور وقوائم خشبية حفروا لها قواعد غائرة في أرض المولد، يأوون إلى كنهم المرتجل المحروس في رحاب ولي ا القديس الشفيع مرفوع المقام من الصوان والجرانيت المنقوش اسـمه الواحد على صفحات القلوب والنـاس فـي حمـاه يعيشـون ويطبخون ويأكلون ويتضاجعون وينامون ويصلون ويـذكرون ويترنمون، حاجاتهم البدنية والروحية كلها مقضية على الاسـم المكنون غير الملفوظ، ويستوشمون على أذرعهم وزنـودهم القوية أو النحيلة.

نشرت الأقمشة ذات الألوان الزاهية تخفق فـي هـواء البحر من المينا الشرقية – أم هي نسمات النيل ؟ - المناديل أم أوية المدندشة والأوشحة، والملافح والشيلان الحريمي غامقـة الزرقة بوبرها الناعم متقلب الألوان، وأكوام الحمص والفـول والحلوى وأقفاص الفجل والجرجير وقفف التين والتوت والبلح الابريمي وأرغفة الخبز والبتاو المعجون بالحلبـة والسمسـم وأدوات الطبيخ الألومنيوم والخشـب والطشـوت البلاسـتيك والفخار والأباريق الزجاجية الزرقاء.

أغرقني طوفان المولد وبهجته الحميمة، منعشة للقلـب الظامئ إلى القربي.

رأيت الشيخ الصعيدي ينادي: " يا دانيال ... اوع تعوج في البحر يا ولدي " وهو يرفع ذراعه فينحسر كمه الوسيع عن وشم أليف قلت: " يا عم أبو دانيال حمد ا على السـلامة يـا بوى! " قال: " ا يرعاك يا ولدي " . قال: " عم نيجو ننـول البركة ونرمى الحمول ".

قالوا: مر من هنا.

وكانت الساحة التراب، الخلفيـة، مـن وراء الصـرح الشاهق المكين تموج بطوفان الناس وفتح عينك تاكـل ملـبن والنداءات والدعوات والصرخات والضحكات قد غاصت فـي غمار عجيج الميكروفونات وتسبيحاتها والجدع يشجع الجـدع وأطفال يتدفقون ويتدافعون ويتصايحون والكرة الحديدية الثقيلة على قضيبها المرتفع بانحدار، يدفعها الفتيان الاشداء والصبيان والكهول إلى أعلى تصطدم بالحافة أحيانا فيهتفون بالانتصـار تاك تاك أو تقع الكرة خائبة إلى قاعدتها السفلية فـي أغلـب الأحيان بوم م مكتومة الصدى، وتحت نور الكلـوب السـاطع

الضارب إلى زرقة بيضاء متوهجة، ومن أمام صفوف الدكك الخشبية التي جلس عليها أولاد البلد والفلاحـون والصـعايدة، رجالا كلهم دون نسائهم، تتمايل الغازية وتهتـز فـي ثوبهـا الأسود اللميع المطرز بالترتر الصغير يخشخشن في تحركات جسمها وتذبذباته الخاطفة بالبطن والنهـود وصـبى السـيرك يزعق في الميكروفون المرأة الكهربائية – بالفصحى - علـى بطنها تنور على وسطها تنور من كل حتة تنور ادخل يا جدع قبل ما تلعب.

قلت نعم مر من هنا، ولم يهرب منه أحد هنا، غمرتـه أمواجهم، وجهه هنا كوجوههم، متكرر منهوك دهـري القـدم أضناه العوز والنحول ولكن فيه كبرياء لا ينال منها شيء مهما نزفت دماؤهم إلى الداخل المعطوب الذي يظل عنيدا وسـعيدا ببهجات عريقة.

" المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك ".

خلعت أوصافي على محبوبي، لم يبق منـا إلا جـوهر الحب، ثابتا ومراوغا في آن , مخايلاً ولا يريم .

اهي محبه توجب سفك الدماء ؟

قد أريقت دمائي , من زمان .
شربتها رمال بيد من ورائها بيد .

كانت تمتطى صهوته، عاليا هناك، تحيط رقبته السميكة ضخمة الحراشيف بذراعيها السمراوين المدملجيتين بنضارة لا تغيب، ورأسه يرتفع فوق بناية شيكوريل، بعينـين رحيمتـين وصارمتين معا، ونفثات ناره الخفيفـة تنـدلع فـوق سـقف المتروبول.

كانت عارية شعرها منسدل يسـتر ظهرهـا وبطنهـا الخمري، سابغا على كل جوارحها، جسدها ناصـع السـمرة تخطف منه ومضات مـن خـلال جـدائل الشـعر الغزيـرة المتموجة، وهي تتشبث بحراشيف عنقـه الهائـل العـريض المتين.

وكان يسير ببطء وحذر، أسفلت الشارع الخاوي بغوص تحت ثقل أقدامه – زعانفه المفلطحة ولكنه يحرص ألا يمـس الأبنية العريقة فلا تتهاوى جدرانها الشماء باحتكاك جسمه بها، كأنه يحميها من سطوة نفسه.

لأنفاسه صوت مثل فحة وهيج النار، ودخـان أبـيض خفيف يأتي بعد ألسنة اللهب المتطايرة من فمه حتى يصل إلى السفارة الإيطالية عبر الحديقة ومن جنب التمثال الـذي بـدا صغيرا ولكنه حصين.

هل كنت – وما زلت – أشرب معه الراح، صيفا وشتاء على السواء؟

" شربت كأسا بعد كأس، فما نفد الشراب ولا رويت " .

وهل قلت إن قلبي لا يرعوى عن هواك ؟

وأنت هناك، على متن سفينة شاهقة بلا شراع، ولا دفة، لا تنال.

مثل قصص كثيرة تقطعت السبل بيننا، كما يقال، بسبب من كبرياء، بسبب من أوهام، أم بسبب من مخاوف وتوجسات ملتبسة؟ هل نفد رصيد الشهوة أم تهاوى جسمان الهوى؟

أم أن الزمن – كما كنت تتخوفين – قـد أوقـع علينـا سطوته ؟ وهذه هي كما يقال أيضا، سنة الحيـاة، هنـا علـى الأرض؟

قلت لنفسي: لم تجد وفيقا ولا وفيقة، قط، ولن تجده أبدا.

كان الدثور عند لحظة البدء.

قصاراك لحظات خاطفة من وفاق، بل مـن نشـوة لا تصدق، من بهجة لم يبق لك بعدها من شيء، لحظات – كمـا تعرف – هي أبديات، فهل هذا قليل؟

ليست هذه مرثية، ليست هذه قصة.

تلفت حولي، لم أجد الغزالة المصرية ناعمة الجسد التي جاءت أصلا من الصحراء الشرقية، أو من أشبيلية، توحشـنى عيناها المتسائلتان، بخضرتهما الصفراء الدعجاء، توحشني.

كان الجراج في شارع سيدي المتولي خاليا الآن، رأيت الحبل المضفورة جدائله الرقيقة ملقى على الأرض الأسـفلت الصلبة، حياته السارية قد بارحته، أحسه جافا وذابلا.

قلت: طارت صقورى التي وقفت على العليقة المشتعلة لا ينتهى احتراقها، ضربت في شعاب لا طاقة لي باسـتبارها ولا بالتغوير في مخانقها الطرية العميقة.

تلك كلها مجازات، لا مجاز لي فيها

كان – هو – يطل علينا من النافذة العريضة المفتوحـة على فناء موحش لا يطرقه احد، وكانت النار في فوهة شدقية

المقفلين مكتومة، لم نسمع في لقائنا الأخير باخ، ولا مـوزار، ترددت ثم أحجمت عن أن أطلب الموسيقى، أن أطلب ما كان من حق الحب، لم يكن في لقاءنا الأخير موسيقى، بأكثر مـن معنى.

عندما لمست يدها واستجابت لـي، وبـدأنا طقـوس الاقتراب من أحدنا الآخر، جسدانا ينصهران رويدا، لم يكـن ذلك إلا روتينا شبقيا، لم يكن ثم اقتراب حـق، ولا انصـهار حق، افتقاد الموسيقى توجس وإخفاق.

هل تقلبت إخفاقي عن طيب خاطر، أم كـان التسـامح الطبع انقطاعا للسبيل، على أي حال؟

البيت – بيتنا – رفضني في الآخر، لم أجد وسادة أضع عليها رأسي، لم تتطوع هي بأن تقول أرح هنا رأسك المنهك، هل ذلك لأنها تأخذ مأخذ المسلم به أن هنـا موضـعا واحـداً لرأسينا معا؟ ولماذا لم أفتح درج خزانة ملابسها لكي أضع فيه متاعي القليل؟ المتاع القليل من حبيب مفارق؟ لماذا انتظـرت أن تفسح هي، لي مكانا، لماذا لم أقتحم مكاني الطبيعي؟ لأنه لم يكن هناك مكان لي، لم يكن هذا بيتي الذي أويت إليه ساعات،

لم يكن بيتنا، كان وهماً ما أقوى رسوخه، وما أعذب مـراودة طيفه.

أهذه توجعات النوستالجيا، أم أنني أتوحد بها، لا أستطيع – ولا أريد ربما – أن أتحال منها، أراها الآن كما صنعتها هي لي، كما صنعتها أنا لها، في نورها الذي لا يخبـو، الجـذوة المدفونة تحت الرماد ما زالت محترقة.

بيتنا الذي لم يكن، وما أقوى كيانه، فيـه سـعة الحـب وبهجته وسكراته، النفس فيه فسيحة ليس لها جدران، كالسماء، بيتنا الذي لم يكن، أحسه قائما في داخل جسدي، انظـر إلـى سمائه من النافذة الرحبة الشفافة، فأرى الوحش الوديع القاتـل المحيي يطل على, جريت إليه، ومازلت أجرى، تنـدفع بـي خطواتي، كما سأفعل دائما، حتى أصل إلى نباتات الظل اليانعة ورافة الظلال تحت الفتحة التي أرى منهـا الموالـد، وأسـمع نداءاته من هنا، من الآن.

أصارعه، وأصارعها، في قبضة أحضان وثيقة سـاخنة لا انفكاك لها، لا أنطفاء لها، تتقطع أوصالي من حبـي حتـى أعود نقطة محرزة داخل النون، أطياف وقائع حلـم مكنـون

ومكين، لأن مخالفة الحب لا تنجيني، لا أريد أن أفر من بلائه، وروحي عاجزة عن احتمال سطوة أشواقي.

يا سيدتي، يا سيدتي، هل تسمعين؟

سؤال قديم قدم الخلق الاول , لا يريم.

كانت تنظر إلي، من عل، من فـوق المـتن الشـاهق الوطيد، بعينيها الخضراوين النجلاوين، طعنات نظراتها تترك جروحا بكرا غضة لا برء لها، ولا تريد البرء.

أريد أن يخرسني الحب فلا أنبس، بـوحي انسـكاب لا أملكه. وما أزال، على اليأس، أهتاج إلى لقياها، أليس اليـأس أخا وفيقا؟ لا أملك فطام جوارحي عن شهوة قرباها.

ألم يقولوا " إن أمر الحب لا نهاية له " ؟ لم أستطع أن أرى نهايته، كان ذيله العظيم يضرب في غور أفق لا يـرى، ولسانه المشقوق يضرب أطراف سحاب مشـتعل عنـد قلعـة قايتباي، من وراء الأنفوشي، من وراء النخل السلطاني، الذي أحترق سعفه من الجفاف والقدم، من وراء أنوار المولد التـي تهتز الآن في آخر النهار، كريات مغلقة على ضوئها النـزر كثيف القوام، من وراء البحر الساجي.

هذا الحلم الشاهق الغامر لا صلاح لي بغيره، ولا صلاح له بغيري.

الإصابة مصمية، هأنذا أقول.

خرجت من الحب إلى الحب، هأنذا أقول، قد تحقق فنائي.

أعود آخر النهار، بعد أن احتضنت التنين، ضربات البحر هينة، سماء الإسكندرية صافية وسماء روحي ملبدة، لم أسمع أحدا يناديني: إدوار.

لم يعد هناك وقت لا للنداء ولا للعودة.

لا وقت للنوستالجيا.

لا وقت.

إدوار الخراط

٢٣ طوبة. ١٧١٠

٣١ يناير ١٩٩٤

فصول الرواية

مؤلفات الأستاذ إدوار الخراط

التي تنشرها وتوزعها دار ومطابع المستقبل

١- حيطان عالية: مجموعة قصص (١٩٥٩).

٢- ساعات الكبرياء : مجموعة قصص (١٩٧٢).

٣- رامة والتنّين: رواية (١٩٧٩).

٤- اختناقات العشق والصياح: قصص (١٩٨٣).

٥- الزمن الآخر: رواية (١٩٨٥).

٦- محطة السكة الحديد: رواية (١٩٨٥) .

٧- ترابها زعفران: نصوص اسكندرانية (١٩٨٦).

٨- أضلاع الصحراء: رواية (١٩٨٧).

٩- يا بنات إسكندرية: رواية (١٩٩٠).

١٠- مخلوقات الأشواق الطائرة: رواية (١٩٩٠.

١١- أمواج الليالي: متتالية قصصية (١٩٩١).

١٢- حجارة بوبيلو: رواية (١٩٩٣).

١٣- اختراقات الهوى والتهلكة: نزوات روائية (١٩٩٣).

١٤- رقرقة الأحلام الملحية: رواية (١٩٩٤).

١٥- أبنية متطايرة: رواية (١٩٩٤).

١٦- حريق الأخيلة: رواية (١٩٩٤).
١٧- اسكندريتي: كولاج قصصى (١٩٩٤).
١٨- مختارات من القصة القصيرة في السبعينيات: مـع دراسة (١٩٨٢).
١٩- عدلى رزق ا " مائيات ٨٦ " : دراسة (١٩٨٦).
٢٠- مائيات صغيرة: دراسة (١٩٨٩).
٢١- أحمد مرسى: دراسة ومختارات شعرية (١٩٩٠).
٢٢- من الصمت إلى التمرد: دراسات في الأدب العالمي (١٩٩٤).
٢٣- " الحساسية الجديـدة " : دراسـات فـي الظـاهرة القصصية (١٩٩٣).
٢٤- الكتابة عبر النوعية: دراسات في القصة القصـيدة (١٩٩٤).
٢٥- " مـا وراء الواقـع " : دراسـات فـي الظـاهرة اللاواقعية.
٢٦- الخطاب المفقود: مسرحية كاراجيالى (١٩٥٨).
٢٧- الحرب والسلام: ليو تولستوى (١٩٥٨).

٢٨- الغجرية والفارس: قصص رومانية (١٩٥٨).
٢٩- شهر العسل المر: قصص إيطالية (١٩٥٩).
٣٠- فارالاكو: رواية غينية أميل سيسيه (١٩٦٢).
٣١- انتيجون: مسرحية جان آنوى (١٩٦٣).
٣٢- مشروع الحياة: دراسة فرانسيس جانسون (١٩٦٧).
٣٣- ميديا: مسرحية جان آنوى (١٩٦٨).
٣٤- الوجه الآخر لامريكا: دراسة ميكائيـل هرنجتـون (١٩٦٨).
٣٥- تشريح جثة الاستعمار: دراسـة جـى دى بوشـير (١٩٦٨) .
٣٦- الشوارع العارية: رواية فاسكوبراتوليني (١٩٦٩).
٣٧- نحو التحرر: دراسة هربرت ماركوز (١٩٧٣).
٣٨- حوريات البحر: قصص أمريكية (١٩٧٩).
٣٩ - الاسلام والاستعمار: **دراسة** (١٩٨٥)